رواية

2020
7.1.2020

كلير مسعود

الفتاة التي تحترق

ترجمة خالد الجبيلي

كلير مسعود

الفتاة التي تحترق

رواية

ترجمة خالد الجبيلي

الفتاة التي تحترق

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

الفتاة التي تحترق

تأليف: كلير مسعود
ترجمة: خالد الجبيلي
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-38-566-0

روايات REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: MC-02-01-9354888

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE BURNING GIRL
Copyright © 2017, Claire Messud
All rights reserved

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إلى ليفيا ولوسيان وجيمس
وإلى ذكرى C.H

لاف الفتى، وقف على ظهر السفينة التي تحترق
محاولًا أن ينشد: "وقف الفتى على ظهر السفينة".
لاف الابن، وقف يخطب متلعثمًا
بينما تهاوت السفينة التي تأكلها ألسنة النيران.
.
.
ولاف الفتى الذي يحترق.

إليزابيث بيشوب "من قصيدة "Casabianca"

الجزء الأوّل

يخيّل إليك أنّ هذا لا يضايقني الآن. فقد مضى زمن على انتقال عائلة بورنيس. مضت سنتان. لكن بالرغم من ذلك، فأنا لا أستطيع أن أتمدد تحت الشمس فوق الصخور عند حافة مقلع الحجارة، أو أغمر أصابع قدميّ في الماء البارد الرقراق، أو أسمع أصوات الفتيات الأخريات وهنّ يغنّين، من دون أن أتذكّر باستمرار أن كايسي قد ذهبت. ثمّ أريد أن أقول شيئًا - لكنّكِ لا تستطيعين. كأنها لم تكن موجودة أصلًا.

لذلك فإمّا أنني لم أذهب إلى هناك في المقام الأول، أم أنني كنت أعود إلى البيت مباشرة، وأرمي درّاجتي الهوائية فوق العشب في حديقة البيت الخلفية وعجلاتها لا تزالان تدوران، وأقرع باب الغربال بقوة مصدرة صوتًا عاليًا يجعل أمّي تجفل في كلّ مرة، وتُهرع إلى المطبخ وتنظر إليّ بعينيها المفعمتين بالعاطفة التي تتراءى لي الواحدة تلو الأخرى – الحبّ، الخوف، الإحباط، الانزعاج، لكن الحبّ يغلب عليها كلها. ولم تكن تردد عادة إلاّ كلمة واحدة وهي، "عطشانة؟" بعلامة استفهام، وهذه الكلمة هي الجسر الذي يجعلني أعبر من هناك إلى هنا، فإمّا أني أقول "أيوه" أو "لا"، وإمّا أنها تصبّ لي ماء من الدورق في الثلاجة، أو أنها لا تفعل ذلك. ونبدأ من هناك، ونمضي.

هكذا تمضي الأيام، وستظل تمضي على هذا المنوال – ألم تكن كايسي نفسها هي التي تقول عادة، "الأمر كلّه هو أن الزمن يمضي؟ - وسنبلغ نهاية هذا الصيف، كما بلغنا نهاية الصيف الماضي، كما مرّ كلّ ما حدث لنا منذ أكثر من سنتين. ويباعد كلّ يوم يمضي المسافة بين الحاضر وبين ذلك الزمن، حتى أنني أستطيع أن أعتقد – يجب عليّ أن أعتقد – بأنّني سأنظر ذات يوم إلى الوراء ولن أكون "آنذاك" سوى نقطة صغيرة في الأفق.

إنها قصّة مختلفة تعتمد حكايتها على النقطة التي ستنطلق منها: من هو الطيب، من هو السيء، وماذا يعني كلّ ذلك. فكلّ واحد منّا يشكّل قصصه الخاصة به لتعبّر عن الطريقة التي نفكّر فيها بأنفسنا. يمكنني أن أبدأ القصة منذ أن كنّا، أنا وكايسي، أعزّ صديقتين، أو يمكنني أن أبدأ منذ أن لم نعد صديقتين، أو بوسعي أن أبدأ من النهاية الكئيبة وأحكي القصة كلّها من الماضي.

لكن لا توجد بداية "من قبل": فقد التقينا، أنا وكايسي، في روضة الأطفال، ولا أستطيع أن أتذكّر زمنًا لم أعرفها فيه، زمنًا لم أكن أميّز فيه رأسها بشعره الأبيض الناعم، الأملس، من بين مجموعة من الأطفال، وأعرف تمامًا أين تجلس في الغرفة، ويعتريني شعور، بطريقة ما، بأنها ستكون صديقتي. كانت كايسي ضئيلة الحجم، عظامها رهيفة مثل عظام طير. وكانت دائمًا أصغر فتاة حجمًا في الصفّ، وكان حجم محيط كاحلها بحجم محيط رسغي. وشعرها أبيض - أشقر يلمع، وكانت بشرتها بيضاء حتى تكاد تكون برصاء، بشرة شبه شفافة تميل قليلًا إلى اللون الوردي. لكنّك تكون مخطئًا إذا ظننت أن حجمها وشحوبها يشيان بأنها ضعيفة. وكلّ ما عليك

أن تفعله هو أن تنظر في عينيها – لا تزالان عينان زرقاوان تصبحان رماديتين في الأجواء المعتمة، كما هو الماء في مقلع الحجارة – وبوسعك أن ترى أنّها فظة. قوية، أظن أنها الكلمة الأنسب. مع أنها في نهاية الأمر، بالطبع، لم تكن بذلك القدر من القوة. لكن حتّى عندما كنّا صغارًا، كان ثمة شيء في طبعها، شيء أشبه بقولها: "بحق الجحيم أنا لست جبانة، هل أنتِ كذلك؟"

وبحسب ما تقوله أمّي، وأمّ كايسي، بيف، فقد أصبحنا، أنا وكايسي، صديقتين في الأسبوع الثاني من دخولنا إلى روضة الأطفال عندما كنّا في الرابعة من عمرنا. كانت هذه هي القصّة دائمًا، مع أنني لا أعرف الآن إن كنت أتذكّر ذلك، أم أن ذلك تكرر على مسامعي كثيرًا فاخترعت هذه الذكرى: فقد كنت ألعب مع عدد من الأطفال بصندوق الرمل، وكانت كايسي واقفة في وسط ساحة اللعب، واضعة يديها على خصرها مثل زومبي، تحدّق في كلّ شيء. لم يكن يبدو أنها متوترة أو عصبية، وإنما ساهمة تمامًا. فتركت صديقاتي ودنوتُ منها ولمستُ مرفقها، وقلت لها – هكذا قيل لي - "هيا، تعالي وشاركيني في بناء قلعة؟" فافترت شفتاها عن تلك الابتسامة الواسعة النادرة، ابتسامتها المعروفة التي تجسّدت عندما أصبحت أكبر بتلك الفجوة التي تفصل بين أسنانها الأمامية مثل جورجيا جاكر. وعادت معي إلى صندوق الرمل، "وهكذا كان"، كما كانت أمّي تقول دائمًا.

عندما تكونين في روضة الأطفال، فإنك لا تفكرين بذلك كثيرًا. فقد كنّا مجرد طفلتين، وكنّا نقول إن الأخرى هي الأخت التي لم تلدها أمّنا. ولم يكن باستطاعة أحد أن يخطئ ويظن أننا قريبتان بصلة الدم – فقد كنت طويلة القامة وضخمة العظام بالنسبة

لعمري، تمامًا كما كانت كايسي صغيرة الحجم، وكان شعري داكنًا ومجعّدًا. لكن ما كان يجمعنا هو العينان الزرقاوان. "انظروا إلى عيوننا"، كنا نقول، "فإننا شقيقتان سرّيتان".

وكنت أعرف بيتها وغرفة نومها كما أعرف بيتي وغرفة نومي. فقد كانت كايسي تعيش مع أمّها في شارع فرعي مسدود على الطريق رقم 29 عند مدخل البلدة، في بيت مرمم حديثًا كان قد بُني في التسعينيات من القرن العشرين، عندما كان الاقتصاد في أوجه. بيت صغير رائع يقع عند رأس الخليج يبدو من الخارج كأنه التُقط من مكان آخر وألقي به في هذه البقعة المتواضعة: بيت مطلي باللون الأبيض له درفات حمر، وشبابيك بارزة، وسقف غامق طويل مائل، ويمتد أمامه بساط من العشب، ليس كبيرًا، تطول فيه الأعشاب سنة بعد أخرى حتى أصبح يبدو حقلًا من الأعشاب والبرسيم أكثر منه مرجًا، ويحيط به سياج خشبي مدبّب أبيض مضحك الشكل، سياج في شكل U، له بوابة عند المدخل الأمامي، لكنّه لم يكن يحيط بالبيت كله - سياج للزينة، يخيّل إليّ أنّك ستسمّيه. أما خلف السياج ووراء البيت مباشرة، تمتد الطبيعة بنقائها، لم تمسّها يد إنسان، تنتشر فيها أزهار الملكة آن وشتلات القيقب، وأشجار الآكاسيا والخرنوب التي تصل إلى السماء، ووراء هذه البرية، تبدأ الغابة الشمالية الشرقية الكثيفة التي لا تبعد عشرين قدمًا وراء البيت، تذكّر دائمًا بأن الأشجار والصقور والغزلان والدببة – كنا قد رأينا أمًّا وأشبالها عند مدخل الطريق المسدود ذات مرة لتبحث عن طعامها في صناديق القمامة – وهي موجودة هناك قبل أن يظهر الإنسان بزمن طويل، ومن المؤكد أنها ستبقى لأمد بعيد.

الكلمة التي تخطر ببالي هي "زحف": إذ يبدو أن الغابة هي التي تزحف إلى بيت أسرة بورنيس، مع أن في الحقيقة، بالطبع، العكس هو الصحيح: فقد جعلت شركات البناء البشر يزحفون على الطبيعة ويعتدون عليها. وكانت البيوت تنتصب على جانبيْ بيت بورنيس، بيوت أكبر حجمًا من بيتهم، ألواح بسيطة من شجر الأرز بدلًا من ألواح بيضاء محاطة بشجيرات نهمة منتفخة. ويوجد لدى الأسرة التي تسكن بجوار بيتهم، عائلة أوكوينس، كلبان من نوع جيرمان شبرد يظلان خارج البيت معظم الأحيان، وكانا يثيران فزعنا عندما كنّا صغيرتين. وكانت كايسي تزعم دائمًا أن الكلبة، لوتي، عضّت أحد ضيوف أسرة أوكوينس وأحدثت ثقبًا في مؤخرته، لكني أدركت الآن أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، وإلاّ لكانت أسرة أوكوينس قد تخلصت من لوتي. كانت كايسي تحبّ أن تحكي قصّصًا مثيرة، لكن ليس من المهم أن تكون قصصًا صحيحة تمامًا.

كانت بيف، أمّ كايسي، ممرضة، لكنها لم تكن ممرضة عادية تعمل في مستشفى، وإنما كانت تقوم برعاية المرضى المسنين الذين هم على فراش الموت، وكانت تتوجّه كلّ يوم بسيارتها السيفيك الحمراء الغامقة المليئة بالملفات والأجهزة إلى بيوت أولئك الأشخاص المحتضرين، لتشعرهم بالراحة، أو لتجعلهم يشعرون بأكبر قدر ممكن من الراحة قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة. وكان أبي الذي لم يكن متدينًا – حتى أنه لم يكن يصحبني أنا وأمي إلى الكنيسة في عيد الميلاد – يقول إن بيف تقوم "بعمل الله".

كانت بيف مبتهجة باستمرار– أو أنها تبدو كذلك باستمرار تقريبًا، إلاّ عندما لا تؤدي – عملها. كانت امرأة مسيحية تقية، ولم

تكن تبكي على زبائنها المحتضرين – فقد كانت تقول دائمًا إنهم "يعبرون" وكانت تقول ذلك كما لو أنها تساعدهم على الاستعداد للقيام برحلة غامضة، لكن ربما تكون رحلة رائعة، بدلًا من أن تساعدهم على تهيئة أنفسهم للذهاب إلى حفرة تحت الأرض.

كان لبيف صدر كبير طري ومؤخرة عريضة. وكانت ترتدي تنانير طويلة فضفاضة موشاة برسوم تتطاير عندما تمشي. وكانت يداها الرهيفتان وقدماها تذكّرني بكايسي. وكان أكثر شيء تفتخر به بيف هو يداها: فقد كانت أظافرها مشذّبة بشكل رائع على الدوام، تُقلّم بشكل بيضوي، وتُحفّ بالمبرد، وتُصبغ بطلاء أظافر بألوان جميلة مثل ألوان قطع حلوى صلبة. وكان شعرها العسلي مثل سحابة تفوح منه رائحة حلوة. وعندما تعانق بيف، فإنك تشمّ رائحة شعرها.

لم تكن أمّي مثل بيف على الإطلاق، تمامًا كما لم يكن بيتي مثل بيت كايسي. فأنا لديّ أب، وفي ذلك، كنّا دائمًا مختلفتين. ولفترة طويلة، كانت كايسي تحبّ أن تأتي إلى بيتنا لأنها تستطيع أن تتظاهر بأنّنا شقيقتان سرّيتان، وأنّ أسرتي هي أسرتها أيضًا.

استقرّ والداي في بلدة رويستون بعد أن أنهى أبي دراسته بفترة وجيزة، قبل أن أولد. وعندما انتقلا إلى بيتنا الذي لا بدّ أنه كان بيتًا فسيحًا أشبه بقلعة: منزل قديم من الطراز الفيكتوري يزيد عمره على مائة وخمسين سنة، فيه خمس غرف نوم، وشرفة تلتف حول المنزل، ويوجد مبنى خلف البيت كان يستخدم في الماضي إسطبلًا. لم يكن بيتًا جميلًا، وإنما بيت قديم فقط. وكان المطبخ أقدم من أمّي - مطبخ يعود إلى خمسينات القرن العشرين، له خزائن

بيض لا تُغلق حتى آخرها بسهولة، والأرضية شطرنجية ذات مربعات سوداء وبيضاء، وعندما يُشعل الفرن، فإنه يصدر صوتًا مثل صافرة باخرة سياحية.

يعمل أبي طبيب أسنان، وتوجد عيادته في المكان الذي كان يُستخدم إسطبلًا. وأمام المرج الفسيح، عُلّقت لافتة على شكل درع كُتب عليها بأحرف بارزة الدكتور ريتشارد روبنسن، طبيب أسنان، تُصدر صريرًا عندما تهبّ الريح. وعندما يذهب إلى عيادته، كان يسير حوالي مئة قدم من الباب الخلفي. وعندما كان يعاني أحدهم من ألم في أسنانه في الساعة العاشرة ليلًا، فقد كان يعرف أين يجده. وكانت تريسي مان، الاختصاصية في صحة الأسنان، تأتي إلى العيادة أيام الإثنين والأربعاء والجمعة. وكانت آن بودرو تأتي لتساعد أبي طوال أيام الأسبوع بقدر ما تسعفني ذاكرتي. وكان عمرها يقارب عمر والدَيّ لكنها كانت تبدو أكبر منهما سنًا، ربما لأنها كانت تتبرج وتصبغ وجهها بكمية كبيرة من المكياج، وتقبع فوق شفتها العليا شامة غامقة تشبه الشامة التي تعلو شفة مارلين مونرو، لكن الشامة التي تعلو شفة آن لا يمكن أن يقال إنها، في أي حال، جميلة ومثيرة جنسيًا.

وتعمل أمّي صحفية مستقلّة، غموض يبدو أنه يعني أنها تستطيع أن تكون صحفية عندما تشاء. وهي تكتب مقالات ومراجعات عن المطاعم والأفلام السينمائية لصالح جريدة مقاطعة إسكس، وفي السنوات القليلة الماضية، كانت تكتب مدوّنة أدبية يتابعها بعض الأشخاص، بمن فيهم طلاب صفّ لتعليم اللغة الإنكليزية للبالغين في طوكيو يكتبون لها تعليقات في غاية التهذيب. وكانت تتخذ من الطابق الثالث في بيتنا مكتبًا لها – كان والد صديقتي

كارين قد رممّه عندما كنت في الصف الأول. وقد انتقلت كارين إلى مينيابوليس عندما كنّا في التاسعة.

توجد غرفتي بجانب الحمّام في الطابق الأوسط، قبالة الطرف الجانبي، وتطلّ على بيت أسرة ساغافي المجاور لبيتنا الذين وضعوا بركة سباحة فوق الأرض منذ عدة فصول صيف، وكنت أسمع أصوات أطفالهم الثلاثة وهم يلعبون ويرشون الماء على بعضهم طوال الصيف. وعندما ترتفع حرارة الطقس وأشرع نافذتي على مصراعيها، فإني أراهم قد خرجوا إلى الحديقة وبدأوا يسبحون. وقالوا لنا إننا نستطيع أن نأتي ونسبح في أي وقت نشاء، لكنّي لم أعد أفعل ذلك، لأن أطفالهم يصغرونني كثيرًا، ولا يكادون يخرجون من الماء.

لكن في أول صيف جلبوا فيه البركة، لبّيت دعوتهم. وأطلق أبي على البركة اسم "قذى في العين"، لكن أمّي قالت، "دع الناس يستمتعون". وقالت إنّني يجب أن أقبل دعوتهم المفتوحة، وإنّنا سنبدو أناسًا منعزلين ومتحفظين إذا لم نفعل ذلك. وفي ذلك الصيف، كنت أذهب إلى بيتهم برفقة كايسي كلّ يوم تقريبًا. كنت قد بلغت الثانية عشرة من عمري آنذاك: في تلك الصيفية قبل أن أنتقل إلى الصف السابع. كان أبناء أسرة ساغافي لا يزالون صغارًا، ولم يكن بإمكانهم أن يسبحوا دون إشراف أمّهم، لذلك، لم يكونوا يستخدمون بركة السباحة كثيرًا. وهكذا أمضينا، أنا وكايسي، فترات بعد الظهر كلها ونحن نسبح ونتشمس ونثرثر، بتمهل شديد، كما لو كنا نتبع وصفة معقّدة بحذافيرها.

لو كان بمقدوري أن أعود إلى ذلك الزمن، لدوّنته كلّه: الأسرار التي كانت تفضيها إحدانا للأخرى، والخطط التي كنّا نضعها. والأغاني

التي كنّا نستمع إليها، حتى، عندما كنا نرفع صوت الآيبود خاصتها فينبعث منه صوت يشبه صوت راديو ترانزستور يصدر خشخشة: "فتيات كاليفورنيا" التي تغنيها كاتي بيري، وتلك الأغنية التي تغنيها ريهانا برفقة إمنيم، الرائعة جدًا لكنها كانت تثير الخوف عندما تستمع إلى كلماتها بدقة. "قف هناك وانظر إليّ أحترق..." فتسرع أمّي إلى تغيير المحطة عندما نكون في السيارة، وتهزّ رأسها، وتقول: "يا بنات، أنا آسفة، بما أنني أؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة، فإني أعترض على سماعها".

في ذلك الصيف بالذات ارتديت لأول مرة المايوه البيكيني المرسوم عليه العلم الأمريكي – الجزء الأعلى النجوم، والجزء الأسفل الشرائط – وكنت أتباهى عندما أتمدّد على ظهري، عندما يتمدد الجزء الخلفي من عظم الورك إلى عظم الورك، حيث يوجد بينهما منحدر، وبطني غائرة. وعندما كنت أرفع رأسي قليلًا وأنظر إلى الأسفل، كان بوسعي أن ألمح الشعر الأسود المجعّد بين ساقيّ الذي نبت هناك مؤخرًا. وكان يتعين على كايسي ذات البشرة البيضاء أن تدهن طنًّا من مرهم الوقاية من الشمس، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان جسمها يحترق إذا نسيت أن تدهن بقعة صغيرة منه. وأذكر تلك الليلة التي نامت فيها في بيتنا وكان لون مؤخرة فخذيها، بجانب ركبتيها قد أصبح أرجواني اللون تقريبًا. فنقعت أمّي قطعة قماش في الخلّ، ووضعتها فوق البقع المحترقة لكي تمتص بعض الحرارة منها. وعندما وضعت أمّي على جسد كايسي أول قطعة قماش مبللة بالخلّ، صرخت لكنّها لم تبك. لم أر كايسي تبكي قط.

في فصل الصيف ذاك، تطوّعنا للعمل في ملجأ الحيوانات

الذي يقع خارج البلدة على الطريق 29، وتبنت كلّ منّا قطة صغيرة. كانتا أختين، من نفس البطن، مرقطتين، صغيرتين جدًا إلى حدّ أنك تستطيع أن تحملهما بيديك، لهما أسنان بيضاء صغيرة جدًا ومخالب برّاقة تنغرز في بنطالك الجينز. وتشعر بدغدغة لكنها غير مؤلمة عندما تضع هاتين المخلوقتين على حضنك. وقد أطلقت على هرّتها اسم إلكترا، وأطلقتُ أنا على هرّتي اسم زينا تيمّنًا باسم الأميرة المحاربة، ولأن اسمها بدا جميلًا مع اسم إلكترا. أما الآن فقد أصبحت زينا كتلة كثيفة من الفراء الناعم وأصبحت في متوسط عمرها تقريبًا. وتنحصر طبيعتها المحاربة في مطاردة الطيور والفئران تحت جنح الظلام – تجلب لنا بين الحين والآخر أعطيات مشوّهة وتضعها على أرضية المطبخ كما لو كنا سنشويها لطعام الفطور - لكن بعد سنة، اختفت إلكترا التي كانت لا تزال صغيرة في الليل.

كانت مغامرة، ومنذ وقت مبكر كانت تقوم بإغارات في الغابة وراء منزل كايسي. وجاء وقت، ليس بعد انتقال أندرز شوت بفترة طويلة إلى حياة أسرة بورنيس، لم تعد فيه إلكترا إلى المنزل قط. ولو كانت قد دهستها سيارة على الطريق 29، لكنّا قد وجدنا جثّتها. وتساءلنا عمّا إذا كان أحد قد اختطفها أو أن صقرًا قد انتشلها، أم أن هيكلها العظمي الصغير يرقد في مكان ما بين أوراق الأشجار المتعفنة في الغابة الزاحفة. وكان يحلو لكايسي أن تتخيّل أن إلكترا قد ذهبت وانضمت إلى أسرة أخرى، ربما حتى على بعد ميل أو ميلين أسفل الطريق، وأنّها تلتهم بسعادة سمك التونا من طاسة فضّية: حياة جديدة أفضل.

"إذا كان عليكِ أن تتخيّلي شيئًا، فلماذا تتخيّلين شيئًا سيئًا؟"

كانت تردد باستمرار. لكني كنت متيقنة بأنها نفقت.

في ذلك الصيف، أردنا كلانا أن نعمل في مجال رعاية الحيوانات، من بين أشياء أخرى. فقد كنت أريد أن أصبح طبيبة بيطرية وأن أصبح نجمة أغانٍ شعبية وكاتبة – مع أنني، كنت أقول لنفسي أحيانًا، إذا أصبحت كاتبة أغانٍ شعبية فإن ذلك سيكون أمرًا جيدًا، ثمّ أريد أن أعمل في رعاية الحيوانات وأن أصبح نجمة أغانٍ شعبية – وكانت كايسي تريد أن تصبح طبيبة بيطرية وممثلة ومصمّمة أزياء. فقد كنّا نتصفحّ كثيرًا مجلة تايغر بييت التي سجّلت لي أمّي اشتراكًا فيها بسبب اهتمامي بالموسيقى، ولأن كان لديها نفس الاهتمام في شبابها. وكنت أبدي اهتمامًا بالفرق الموسيقية نفسها وأدائها، بينما كانت كايسي تهتم بمظهرها وشكلها الخارجي. وأوضحت أمّها ذات يوم أنه يوجد أشخاص في هوليود أو في نيويورك يكسبون رزقهم من العمل في اختيار الأزياء للمشاهير. ولم تقل بيف إن كان ذلك شيئًا جيدًا، وقالت إننا نعيش في عالم مجنون يظن البعض أنها طريقة مقبولة لتمضي حياتك هكذا! لكن كايسي لم تفهم الأمر بهذا الشكل. فقد كانت مغرمة بالأزياء. وكنّا نتسكّع في قسم مواد التجميل في محلات رايد إيد (Rite Aid) وتجرّب كلّ أنواع ظلّ العيون على ظهر يدها. وكنت أتظاهر بأنني أحبّ ذلك لأنها تحبّها كثيرًا. وكانت معجبة جدًا بالليدي غاغا لا بسبب أغانيها وإنما لرهافة إحساسها بالموضة والأزياء: تلك الأحذية المجنونة، وذلك الثوب اللحمي. وربما، في جزء من ذلك، لأنها لم تكن تستطيع أن تبتعد عن بيف بورنيس وكذلك عن الليدي غاغا.

أثنت بيف على رغبتنا في أن نعمل في رعاية الحيوانات، بل

شجّعتنا على ذلك. وفاتحت أمّي بالموضوع واقترحت أنهما إذا تناوبتا على توصيلنا بالسيارة، فلن تكون هناك أي مشكلة إذا عملنا في ملجأ الحيوانات. فوافقت أمّي لأن ذلك سيجعلنا نشعر "بالمسؤولية التي يتحمّلها الكبار"، وأضافت، "عندما كنت شابة في فيلاديلفيا، كنت أعمل "كاندي سترايبر" في المستشفى". وكان هذا الاسم يُطلق على المتطوعات لأنهن يرتدين مريلات مخطّطة بخطوط حمراء وبيضاء. ثم تذكّرت، وقالت: "كنت أدفع الأشخاص على كراسي المعوّقين في المستشفى من غرف التصوير بالأشعّة، أو التصوير الطبقي المحوري وأعيدهم إلى غرفهم، أو إلى غرف العلاج الطبيعي. بل حتى إلى مصفّف الشعر، أحيانًا. وكانت سيدة مسنّة تصفق لي بيديها عندما تراني، وتنادني، 'يا بنتي! يا بنتي'". وحدّثتنا أنها انعطفت ذات مرة عند زاوية بقوة فارتطمت ساق امرأة مكسورة مكسوة بالجبس بالحائط. وحتى بعد عدة سنوات، لم يكن بوسعها أن تكتم ضحكة محرجة: "من صراخها العالي، لا بدّ أنها تألمت كثيرًا". وأظن أن العمل مع الحيوانات كان يبدو لها أكثر أمانًا، وسنظل في روح "الخدمة". وكانت بيف وأمّي ترددان عبارة "الخدمة" و "وردّ الجميل" كثيرًا لتذكّرانا كم أننا محظوظتان.

لم تكن رويستون بلدة غنية، مع أن منشأة هينكيل لم تكن تبعد كثيرًا عنها، مع أن البلدات القريبة، مثل نيوبريبورت وإبسويتش، تقع على الماء وتجذب السكان الأغنياء، خاصة في فصل الصيف. وإذا كانت، بحسب معايير بوسطن، مثلًا، أسرة روبنسن تعتبر متواضعة، فإننا في رويستون في حالة جيدة. وحتى بيف وكايسي تعيشان في حالة جيدة، بأسلوبهما المتواضع.

كان ملجأ الحيوانات المؤلف من مبنى إسمنتي بطابق واحد، يبدو مثل هجين يجمع بين مكان لإيواء الحيوانات وبيت لإيواء الكلاب. وفي الغرفة الأمامية المكيّفة بالهواء توجد كراسي بلاستيكية زرقاء غامقة فوق أرضية من اللينوليوم، مثل غرفة انتظار، ومنضدة عالية يجلس وراءها موظف أو موظفان حقيقيان أمام أجهزة كومبيوتر وعدد من الملفات. وكان المكان يعبق برائحة المطهرات، وشديد البرودة باستمرار، مثل مجمّدة كبيرة. وعُلّقت على الجدران البنية الداكنة ملصقات عن رعاية الحيوانات واللقاحات ("دودة الخَيطاء اللَّدودَة: القاتلة المثيرة للحزن" و "مرض اللايم وحيوانك الأليف")، وعلى طول أحد جانبي الغرفة تمتد لوحة إعلانات كبيرة فيها صور كلاب وقطط مع أصحابها الجدد.

كان شعر مارج، المرأة المسؤولة – الضئيلة الجسم، النحيلة، السمراء -الذي غزاه الشيب قصيرًا كما لو أنها قصّته هي نفسها، وصوتها أجشّ. وكانت بلوزتها الفضفاضة تكشف عن ذراعيها المكسوتين بالعضلات، يتدلّى تحتها ثديا سيّدة عجوز مسطحين وعريضين يصلان إلى أعلى سرتها تقريبًا. وتصوّرت أنا وكايسي نفسينا في معطفين أبيضين كتلك التي يرتديها المحترفون، ونعلين واطئين لا يصدران ضجيجًا، ومع أن مارج لم تكن طبيبة بيطرية (عندما كانوا يحتاجون إلى طبيب بيطري، كان الدكتور ميرفي يأتي من هافرهيل، ودودًا ذا لحية، بطنه مشدودة تحت معطفه الأبيض)، فقد منحتنا إحساسًا مختلفًا حول كيف يمكنك أن تكون في العالم: شخص يفعل ما يفعله لأنه شغوف به، ولا يأبه بما يقوله الآخرون عنه.

كانت مارج تحبّ تلك الحيوانات كثيرًا. وكانت يداها الجلديتان

مليئتين بعروق بارزة، لكنها عندما كانت تلمس الكلب المترنح ذا الأنف الأفطس وعين واحدة "ستينكي" على بطنه المتموّجة، كانت تبدو رقيقة، وعندما تحمل قطّة لعوبة مرحة مثل لولو وتضعها على صدرها المتهدل، سرعان ما تصبح عينا القطّة البرّيتان ثقيلتين، ويرتخي جسمها، وتطلق تلك الهمهمة الواطئة التي تعبّر عن المتعة عند القطط.

كانت مارج شديدة الطيبة لاسيما مع الكلاب من فصيلة البيتبول والكلاب الهجينة التي يستقبلها الملجأ بأعداد كبيرة. وكان معظم الناس يخافون منها، حتى لو قليلًا، وكانوا يعتبروننا، أنا وكايسي، صغيرتين لا يمكننا رعايتها؛ لكن مارج كانت تعامل كلّ واحد منها كأنه صديق فُقد منذ فترة طويلة، تهمهم بصوت خفيض، بحذر لكن بثقة. وكانوا يطلقون عليها اسم "هامسة البيتبول"، لكنّ الأمور لم تكن على ما يرام باستمرار. وكانت ندوب على جسمها تثبت ذلك.

عندما تدخل إلى ملجأ الحيوانات من الباب المعدني الثقيل بجانب مكتب الإدارة، يصادفك قسم القطط أولًا، الذي لا يزال مكيّف الهواء يعمل لكنه أقلّ برودة هنا: غرفة واسعة مليئة بأقفاص تمتد من الأرض حتى السقف بعرض أربعة أقدام وارتفاع أربعة أقدام، حيث تغفو قطط من جميع الأشكال والأحجام والألوان، أو يُعتنى بها، أو تتجول في جوّ يعبق برائحة الأمونيا الخانقة المنبعثة من فضلات القطط والمطهّرات. وفي بعض الأحيان، يثب أرنب في الطرف الآخر من الغرفة، وذات مرة، رأيت نمسًا اسمه فريد، ينسلّ حول قفصه كما لو أنه تأخر عن موعد له.

وحتى في هذا المكان، تتناهى إليك أصوات الكلاب المنبعثة من وراء الجدار – فهي لا تتوقّف عن النباح، أصداء متنافرة لا تنتهي.

وتُعتبر الكلاب أهم شيء في الملجأ. وعندما تنتقل إلى قسم الكلاب، فإنك تنتقل إلى عالم الصوت والحرارة والحركة. ويصفعك فجأة الهواء الصيفي الدبق المحموم. وفي الصيف، تُرفع جوانب حظائر الكلاب ليدخل منها النسيم. وبنقرة مزلاج، تستطيع الكلاب أن تنسلّ وتخرج إلى السياج الممتد على طول المبنى. ويوضع في كل قفص كلبان أو ثلاثة كلاب: معظمها كلاب ضالة أو كلاب هجرها أصحابها التُقطت أو أُحضرت إلى الملجأ لأنه لم يعد بمقدرة أصحابها رعايتها. وكانت تُجلب إلى الملجأ الكلاب الصغيرة الحجم المتقدمة في العمر لأن أصحابها المسنين ماتوا، أو مرضوا، أو انتقلوا للعيش في شقق لا تسمح بوجود حيوانات أليفة، ويصعب إيجاد بيوت لها – كان ستينكي واحدًا منها، وإلسي من فصيلة "شي تزو" التي تبلغ من العمر عشر سنوات وتعاني من مشكلة سلس البول؛ أو فريتزل، من فصيلة "دشهند" الذي لا يسمع وينحني ظهره ولا يكاد يتوقف عن النباح. وكانت هذه الكلاب تعيش بالقرب من الباب المعدني؛ ثمّ الكلاب الصغيرة السنّ الضخمة والمتوسطة الحجم، ثم تأتي الكلاب الهجينة ذات الوجوه الجميلة، كلاب تحبّ أن تتجول؛ وأخيرًا، أبعد مكان عن المدخل، كلاب البيتبول والأنواع القريبة منها، بفكوكها القويّة وفرائها الأملس القصير، التي تم تكميم واحد أو اثنين منها لأنهما ينبحان ويعويان كثيرًا.

بدأنا نذهب أنا وكايسي إلى ملجأ الحيوانات يومين في الأسبوع، من الساعة التاسعة صباحًا حتى الواحدة ظهرًا. وانحصر عملنا في إطعام الحيوانات وتنظيف أقفاصها. وكنّا نرتدي أحذية مطاطية طويلة وقفازات مطاطية. وبعد فترة قصيرة تعوّدنا على تلك الروائح. وكان ينتابنا شعور بالانتصار عندما يتعوّد علينا كلب خجول

خائف، فبدلًا من أن ينكمش ويخاف منك، يدنو منك ويدفن رأسه فيك أو يتدحرج على ظهره لتداعبه. كانت معظم الكلاب لطيفة. كانت تريد أن تحُبّ، وما إن تحبّها، حتى تبادلك هي الحبّ أيضًا.

وكان لدى كلّ واحدة منّا كلبه المفضّل – فالكلب الذي أفضّله كلب هجين من فصيلة لابرادور، مشذّب، لونه بني بلون الشوكولاتة يلمع، اسمه ديلسي، له وجه مربع منحوت، وعينان حزينتان داكنتان، تجاوز للتو مرحلة كونه جروًا، وكان يحرّك جسمه كما لو أنه لا يزال متفاجًا من حجمه. ومع أن عينيه حزينتان، فقد كان مزاجه بهيجًا، ولا يحبّ شيئًا أكثر من أن يلعب لعبة "اركض واجلب" في الباحة المخصصة لجري الكلاب، بكرة تنس قديمة أو عصا. وعندما يجلب القطعة التي رميتها لها، تستطيع أن ترى أنه كان يفكّر إن كان عليه أن يحتفظ بالجائزة التي حصل عليها أم يتركها ثم يجري وراءها من جديد. وفي بعض الأحيان، كان يقفز وهو لا يزال ممسكًا بها، رأسه مرفوع إلى الأعلى، وذيله منتصب إلى الأعلى، مثل عدّاء يؤدي دورة النصر حول باحة جري الكلاب.

أما كلبة كايسي المفضّلة، شيبا، فهي كلبة بيتبول هجينة. وكان يُسمح لنا بإطعامها لكن لم يكن يُسمح لنا بالدخول إلى قفصها إذا لم تكن مارج معنا أيضًا، لا بسبب شيبا ذات الوجه الأرقط الذي يكاد يكون مبتسمًا دائمًا، التي تهزّ ذيلها القصير الكثيف كلما رأتنا، وإنما بسبب الكلب البولدوغ الذي يشاركها القفص، الأسود اللون، الحاد الطباع، والذي يطلق عليه اسم ليو. ولم يكن ليو يجري وراء العصا التي تُلقى وإنما كان يمضغها ويكسرها إلى قطع صغيرة إذا استطاع ذلك.

وأحبّت كايسي شيبا لأنها جميلة، ولأنها نجت بأعجوبة. ويُحكى أنه عُثر عليها وهي ضامرة تتضور جوعًا في حظيرة في العراء في بقعة مهجورة كانت تقام فيها بيوت متنقلة على مسافة عشرة أميال، هجرها أصحابها – واختلقنا أنا وكايسي عدة قصص حول ما جرى لها – فقد سمع صيّادان نباحها واتصلا بإدارة مراقبة الحيوانات وطلبا منهم إنقاذها. وسألت كايسي أمّها إن كان باستطاعتها أن تتبنّى شيبا، فرفضت بيف رفضًا قاطعًا، لأن وجود أيّ كلب معهما يشكّل عبئًا عليهما، وسيكون إحضار شيبا إلى البيت خطًا كبيرًا، لأنها بعد كل ما مرت به من ظروف قاسية فإنها بحاجة إلى أسرة يمكن أن تأويها وتمضي معها وقتًا طويلًا، وتدللها، وتُشعرها بأنها محبوبة.

كانت كايسي تحبّ الادّعاء بأن شيبا كلبتها هي. ولم يكن هناك أي ضير في ذلك. وفي صباح أحد الأيام، عندما كان ليو خارج القفص، أزلقت كايسي مزلاج القفص ودخلت إليه. ارتعشت شيبا وانتفضت، وعندما جلست كايسي القرفصاء على الأرضية الخرسانية، جاءت شيبا إليها لتلاعبها، ووسّعت عينيها وانقلبت على ظهرها، كاشفة عن بطنها المرقّطة بحلماتها الصغيرة التي لم تُستعمل، فراحت كايسي تفركها بقوة، وانبعثت منهما تأوهات خفيفة تشي بالبهجة.

تسللت إلى المدخل وعيناي مصوبتان نحو الباب المعدني: فإذا رأوها تفعل ذلك، فلا بد أنهم سيرسلوننا إلى البيت في حالة من الخزي والخجل؟

لكن عندما ناديتها، بصوت خفيض، "بسرعة... كايسي... هيا اخرجي... أظن أنني أسمع أحدًا قادمًا" –في البداية لم تعرني أي انتباه، ثم أبدت انزعاجها مني.

"ما مشكلتك، يا جوجو؟ ألسنا هنا لنجعل حياتهم أفضل؟ إنها تحبّ ذلك – أليس كذلك، حبيبتي شيبا؟ أليس كذلك، يا عزيزتي؟"

لم يشاهدها أحد - لم يشاهدنا أحد – فعندما دخلت نانسي وجو من المكتب الأمامي مع بعض المتبنّين المتوقّعين، كنا قد ذهبنا إلى الجانب الآخر، وراحت كايسي تزيل الماء من قفص ستينكي وأنا أمسك بجسمه الخشن الصغير بين ذراعي. لكن كايسي كانت تبحث دائمًا عن فرصة لكي تدخل إلى قفص شيبا، كما لو كانت شيبا صديقها الشقي.

في يوم خميس في أوائل شهر آب بعد أن مضى على عملنا في الملجأ قرابة شهرين، وقد أصبحنا نشعر، وأصبحوا يشعرون، بأنّنا مألوفتَين مثل قطع الأثاث، كان ليو يجري في الباحة، يتنشق بعض الهواء، إذا كان ذلك المستنقع الرطب في ذلك اليوم يمكن أن يُدعى "هواء". كان وحده – لم تكن هناك كلاب أخرى، ولم يكن هناك أحد يشرف عليه – وكانت مارج قد خرجت لتتحدّث على الهاتف مع مورّد أطعمة الحيوانات الأليفة حول شحنة كان قد سلّمها البارحة.

"يا بنات واصلن عملكن"، قالت، "سأعود بعد قليل".

ما إن أغلقت مارج الباب خلفها حتى هرعت كايسي وتسللت إلى داخل قفص شيبا. كانت تضع في جيبها قطعة جلدية تلوكها الكلاب جلبتها من البيت – في الحقيقة، اشترتها من مصروفها- علمًا أنه لم يكن يُسمح بإحضار هذه الأشياء إلى حظيرة الكلاب، لأنها قد تعلق في حنجرة الكلب ويختنق بها على أقل تقدير. لكن كايسي لم تأبه بذلك كثيرًا. فقد كانت قد أحضرت لشيبا قطعتين منها سابقًا، وكانت تعرف أن شيبا تحبّها كثيرًا، وأنها تستطيع أن تقضم واحدة

منها في أقل من ثلاث دقائق. وكما فعلت في المرات السابقة، أنزلت كايسي المزلاج وانسلّت إلى داخل القفص، وقد رفعت القطعة الجلدية بيدها، وبدأت تلاعبها. كانت قد فعلت ذلك من قبل. وعندما كانت شيبا تلعب بمرح لأنها لم تكن في طبعها كلبة عدوانية، فلم يخطر لنا أن أمرًا سيئًا يمكن أن يحدث.

لم أر كلّ ما حدث بعد ذلك. فقد كانت عيناي موجهتين إلى الباب المعدني، خشية أن تدخل مارج، ولم أكن أفكّر بكايسي وشيبا.

ويقينًا لم أكن أفكّر بالكلب ليو، لأن الباب المفضي من الحظيرة إلى الأبواب الخارجية بدا مغلقًا، ولم يخطر ببال أيّ منّا أن نتأكد من أن المزلاج مغلق جيدًا. من كان يظن أن ليو سيتعب، في تلك اللحظة، من اللعب وحيدًا في باحة لعب الكلاب، وأنّ يتشممّ طريقه عائدًا إلى قفصه، ويفتح باب القفص بخطمه؟ لكنّه فعل ذلك، بطريقة ما، في تلك اللحظة القصيرة التي كانت كايسي تحمل في يدها القطعة الجلديّة تلك.

فوثب ليو على القطعة الجلدية. فكّاه مفتوحان، وقائمتاه مرفوعتان. وانقضّ على يد كايسي اليسرى وأحدث جرحًا غائرًا في باطن ساعدها. أحمد الله أنها تركتها من يدها. شكرًا لله. لم تكد تصرخ – زمجرة ليو وعواء شيبا العالي اليائس جعلني أقفز وأنظر. لم أسمع أيّ صوت من كايسي نفسها – ولو لم أجرّها خارج القفص وظهري إلى الخلف وأغلق الباب وراءنا بركلة من قدمي، لما عرفت ماذا كان يمكن أن يحدث.

كان ساعدها يبدو أنه علق في آلة لتقطيع الخشب، فتسلّخ جلدها بدءًا من رسغها، وتدفق الدم منها بسرعة وبقوة وسال على الأرض.

"هل تستطيعين أن تلوي أصابعك؟" سألتها. هذا ما كانت أمّي تسألني إياه عندما أجرح نفسي. "هل تستطيعين تحريك رسغك؟ هل هي سيئة؟ هل تؤلمك؟"

"لا أعرف"، وتهالكت فوق أسلاك القفص المقابل الذي يقبع خلفه كلب بيتبول، مصاب بالروماتيزم، أبيض اللون، مكمّم، اسمه أوبي، كان يحدّق بفضول شديد، ثم أضافت، "حتى أني لا أعرف إن كانت تؤلمني".

"اللعنة، اللعنة، اللعنة"، لم أعرف ماذا يمكن أن يقال في حالة كهذه. فقد كانت أمّي تقول إن اللعنة تدلّ على أن المرء لا يمتلك عبارات كافية ومخيلته ضعيفة؛ أما في هذه الحالة، فقد كان يبدو لي أنها الكلمة المناسبة. انحنيت أكثر فوق يد كايسي المشوّهة، كما لو أنني كنت أريد أن ألمسها، لكن الدم كان يتدفق منها، فلم أستطع ذلك. ولم أدرك أن ليو وشيبا كانا ينبحان بقوة على أحدهما الآخر في قفصهما بجانبنا تمامًا الذي لم يكن مغلقًا بإحكام، لكن كايسي كانت تدرك ذلك. أغمضت عينيها وبدأت ترتعش.

"كل شيء على ما يرام. ستصبح يدك على ما يرام. من الأفضل أن أنادي مارج"، وقفت على قدميّ وتأكدت من المزلاج على القفص. سرت بهدوء غريب، أراقب، كما لو أن ذلك يحدث لأشخاص آخرين. ثمّ، في الصمت القابع داخل رأسي، سمعتُ فجأة أصوات عواء الكلاب المتنافرة. فقد راحت تنبح وتعوي كلها في وقت واحد، أصوات متوحشة، وأتعجب كيف أننا غرقنا، في تلك اللحظات القليلة، في فقاعة من الصمت الرهيب.

عندما سرت باتجاه الباب المعدني، مولية ظهري لكايسي، كان

وجهي بعيدًا عنها، لكني شعرت بأنها جزء منّي. وفي هذا الصخب من النباح والعواء، والروائح العفنة المنبعثة من الكلاب والهواء الرطب الحار الخانق الذي يهبّ من الخارج، ورائحة التبن المثيرة للغثيان، كان يربطنا، أنا وهي، خيط غير مرئي، وكان هذا الخيط حقيقي لا يقلّ عن أي شيء آخر، وبسبب هذا الخيط، فإن كلّ شيء سيكون على ما يرام، وستصبح كايسي على ما يرام، بل حتى أنها لم تكن وحدها عندما اجتازت ذلك الباب باتجاه المبنى الرئيس، لأن حبلًا سريًا كان يربطنا، لذلك لم يكن بإمكان أحدنا أن ينفصل عن الآخر.

دخلت مارج من الباب حتى قبل أن أصل إليه. ورأت للتو ما حدث، أو ما يكفي لأن تراه. وعندما هرعت نحو كايسي، نادت جو لكي يُحضر حقيبة الإسعافات الأولية، ولفّت بطانية حول كتفيْ كايسي بسبب الصدمة، وطلبت منها أن ترفع ذراعها حتى يتوقف النزيف، وعندما تحقّقت من تسلسل الأحداث، تقريبًا، كانت الكلمات الوحيدة التي قالتها لي هي: "لماذا تركتيها وحدها؟" كما لو أنني أتحمّل مسؤولية ما حدث، من البداية حتى النهاية، بسبب إهمالي وعدم انتباهي.

بعد أن عقمّت مارج جرحها، رأت أنه يجب أن ننقل كايسي إلى المستشفى في هافيرهيل لفحصها هناك. حاولت مارج الاتصال بييف، لكن هاتفها كان يذهب مباشرة لتسجيل رسالة صوتية، فاتصلت بأمّي وشرحت لها ما حدث، فوافقت أمّي على أن نأخذ كايسي إلى المستشفى. كان أمرًا منطقيًّا. في تلك اللحظة لم يقل أحد شيئًا عمّا إذا كانوا سيسمحون لنا بالعودة لنعمل في الملجأ على الرغم من كلّ ما حدث – فقد خالفنا أهمّ القواعد، ومع أننا لم نقرّ بذلك، فلا بد أن مارج عرفت أنها لم تكن المرة الأولى - لكنّنا شعرنا بوطأة شجب

الكبار واستهجانهم، ذلك الشعور بأنهم يقدمون لك المساعدة لكنهم يعاقبونك في الوقت نفسه.

عندما عدنا إلى الملجأ، كانوا قد تخلّصوا من ليو. كان ميتًا. فلم يكن يُسمح لأي كلب، ولاسيّما كلبًا غير محبوب، أن يهاجم طفلًا ولا يُحاسب على فعلته. لكن بالطبع كنّا نعرف، ومن دون أن تقول ذلك، أكدت مارج علنًا بأنّنا نعرف أنّ ليو لم يرتكب أي خطأ: بل نحن من دخل إلى حيّز فضائه، ومعنا تلك القطعة الجلدية المغوية، وأنه تصرّف كما تملي على هذا الكلب آلاف الموروثات بأن يتصرّف، في حدود معايير طبيعة الكلاب الضجرة والشرّيرة نوعًا ما. وأننا يجب ألاّ ننسى أن تصرّف كايسي – وتصرّفي أنا أيضًا، كما أظن، لأنني كنت متواطئة معها مثل سارق المصرف الذي يقود سيارة الهروب – بأننا نحن من تسبّب في موت ليو كما لو كنّا قد لوينا رقبته بأيدينا العارية.

لكن ذلك حدث لاحقًا. ففي البداية، جاءت أمّي بسيارتها الستيشن لتقلّنا إلى قسم الطوارئ. بوجه متجهم، أدارت إبرة المذياع إلى محطة إن بي آر بصوت عال طوال الطريق حتى لا يدور أي حديث. قطعنا الطريَق إلى هافيرهيل ونحن نستمع إلى برنامج بالهاتف يتحدّث عن أنماط هجرة البوم، حتى قال أحد المتّصلين بالبرنامج أنه صدم بسيارته بومة عملاقة عندما كان يصعد إحدى التلال في طريق فرعي عند الغروب. كان ذلك أكثر مما يُحتمل في ذلك اليوم، فأغلقت أمّي المذياع. ثمّ رحنا نستمع إلى صوت مكيّف الهواء. جلستُ متسمّرة في مكاني لا آتي بأي حركة، فعل انعكاسي لطفل يشعر بأنه ارتكب ذنبًا، وهو شيء كان من الواضح أن كايسي لم تستطع أن تفعله حينذاك.

في المستشفى، لوت الممرضة التي فكّت ضماد كايسي قسمات

وجهها عندما رأت ما رأته عيناها. كانت أطراف كايسي رهيفة جدًا، وحتى بعد تعرضّها للشمس، كانت بشرتها لا تزال فاتحة جدًا. وكان لون يدها المتورمة أحمر وأسود من الدم المتخثّر، وكانت تعلو ذراعها خدوش عميقة، تكاد تكون ممزقة. فلم يعد بإمكانها أن تفرد أصابعها باستقامة تامة. ولم تعد تستطع ثنيها، أو أنها كانت تستطيع لكن بصعوبة. نظّفتها الممرضة وعقمتها بعناية كبيرة – مع أنّ مارج كانت قد فعلت ذلك، لأنها نزفت أكثر – وأطلقت كايسي صيحة عندما لسعها المطهّر. صيحات صغيرة تشبه العواء. لكنها في معظم الأحيان، لبثت هادئة، تراقب ذراعها بعينيها الزرقاوين المفتوحتين على وسعيهما، كما لو كانت منفصلة عنها.

كانت تلك المرة الأولى التي نلتقي فيها أندرز، أو الدكتور شوت، كما كان بالنسبة لنا آنذاك. فقد كان أندرز شوت الطبيب المناوب في غرفة الطوارئ في عصر ذلك اليوم. وقد سخرت منه عندما كنّا في السيارة في طريقنا إلى البيت لإضحاك كايسي - "هل تظنين أنّهم يُحضرون ضحايا إطلاق النار لكي يعالجهم الدكتور شوت؟" و "يبدو أن أحدًا قد أطلق النار عليه. أو ربما هو من أطلق النار على أحدهم وقتله. دكتور، أرجوك لا تطلق النار عليّ! أوه، هيا أطلق النار، فهو الدكتور شوت!"

كان طويل القامة ونحيفًا جدًا، بشرته شاحبة وعظام خدّه ناتئة مثل رأس شخص ميت. شفتاه رقيقتان، وأنفه رفيع، وأصابعه الطويلة رفيعة، وفي عينيه نوع من الحول جعلهما تبدوان رقيقتين أيضًا. وشعره طويل مثل شعر فتاة، يصل حتى ذقنه الرفيعة أيضًا، مثل صحون بنية اللون لا تزال زلقة ومدهنة على الرغم من أنها

نظيفة. ولم يكن الدكتور شوت يتمتع بقدر كبير من آداب رعاية المرضى في قسم الطوارئ، لكنّه لم يكن سيئًا، أو شيئًا من هذا القبيل، وعندما أمسك بيد كايسي المشوّهة بيده ليفحصها بعناية، أستطيع أن أقول إن رقته فاجأتها: فقد نظرت إليه كايسي بمزيج من التوسّل والدهشة، وسألت للمرة الأولى، "هل ستتحسن يدي؟"

كانت ابتسامته طفيفة – وحتمًا- رقيقة، لكنّه بذل جهدًا خاصًا ليبثّ الدفء في عينيه الباردتين. "ستصبح يدك، أيتها الشابّة، على ما يرام. طالما كنت مريضة جيدة، لا مريضة غير صبورة – مريضة ضجرة كما نقول هنا – عندها ستتحسن يدك وستصبح على ما يرام".

فاجأني بعد ذلك أنّ طريقته في قول ذلك كانت غريبة بعض الشيء، كما لو كان يقول إن الأمر برمته يتوقف عليها. فإذا تصرفت بشكل ملائم، فإن يدها ستشفى، وبالطبع فإن هذا ينطوي على الحقيقة (لا يمكن نكران ذلك) بأنها لو لم ترتكب خطأ، منذ البداية، لما جاءت إلى هنا. هكذا كان، أندرز شوت: فمنذ اللقاء الأول ذاك، كان يبدو أنه يضع الكرة، في كل شيء، في ملعب كايسي: إذا تصرفتِ كما ينبغي، فإن كلّ شيء سيكون على ما يرام. وإذا لم تفعلي - حسنًا، عندئذ.

حقن الدكتور شوت يد كايسي بمخدّر موضعي، وخرز حافات جلدها المهترئة، ودهن ذراعها بمراهم خاصّة ولفّها بضمادات جديدة نظيفة، ووصف لها مضادات حيوية لكي لا تصاب بأيّ التهاب. لا أكثر ولا أقل مما كان سيفعله أيّ طبيب آخر.

اندفعت بيف إلى غرفتنا التي يوجد فيها جهاز التلفاز بعد

ظهر ذلك اليوم وسماعة الفحص لا تزال معلقة حول رقبتها، تلهث، عيناها الزرقاوان ممزقتان بين الشعور بالاكتئاب والغضب. ومع أنّ أول ما فعلته عندما رأت كايسي هو أنها ضمتها بين ذراعيها، استطعت أن أرى، الشيء الذي لم تستطع كايسي أن تراه، أنها عندما ضمت ابنتها إليها واعتصرتها، تكدرت قسمات وجهها مثل سماء تجري السحب عبرها بسرعة.

"حبيبتي، حبيبتي"، دمدمت، "بماذا تفكرين؟ بماذا تفكرين؟" ثمّ، "كلّ شيء على ما يرام. ها هنا نحن معك، كلّ شيء على ما يرام الآن".

وقفت أمّي عند الباب تراقبهما، تجفّف يديها بمنشفة الصحون، وقد فاجأتني قسمات وجهها أيضًا: لم تكن قسمات تشي بالمسامحة. كما لو أنها رسمت في مخيلتها دائرة حول بيف وكايسي، ومع أنهما كانتا تقفان في وسط بيتنا، فلم يكن ذلك يعني أنهما تنتميان إلى هذا المكان. نظرة بدا أنها تقول، أنتما لستما مثلنا. ليس تمامًا.

بعد ذلك، لم نعد نسبح في مسبح أسرة ساغافي لأنه يجب على كايسي ألاّ تتبلّل ذراعها بالماء. وطوال أسبوعين، لم نكن متأكّدتين إن كانوا سيسمحون لنا بالعودة إلى الملجأ. كانت لدينا أيام فارغة طويلة علينا أن نملأها. وفي صباح أحد الأيام، أوصلت بيف كايسي إلى بيتنا قبل التاسعة. ولم تكن أمّي تريد أن نزعجها حتى تقوم بعملها. فانهمكت في أداء بضعة أعمال منزلية – إزالة الأعشاب في الحديقة، ترتيب الكتب على الرفوف في غرفة التلفاز أبجديًا بحسب اسم المؤلف - لكنّها لم تكن جادّة في ما كانت تفعله، ولا نحن، لأسباب ليس أقلّها، لأن يد كايسي اليمنى – اليد التي تكتب بها – لم تكن قادرة

على الكتابة. حتى أننا لم نعد نستطيع ركوب دراجتينا، ولم يعد بوسعنا أن نلعب التنس أو كرة السلة في المدرسة الثانوية، لأن هذه الأشياء أيضًا تحتاج إلى استخدام كلتا اليدين.

"إن هذا يريكِ"، قالت كايسي، وهي ترفع شعرها الأشقر - الأبيض بيدها المكسوة بضماد أبيض، "كم هو صعب أن يكون المرء بذراع واحدة فقط".

"هل نعرف أشخاصًا كثيرين بذراع واحدة فقط؟"

"العمّ ويندي"، قالت، مشيرة إلى إحدى الفتيات في صفّنا، "التي فقدها في العراق. لقد رأيته. إنه يعمل في محلات لويز في هافيرهيل".

"وهناك جدّ بِني". كان بِني أكبر منّا سنًا ببضع سنوات. "فقد أصيب بشلل الأطفال عندما كان صغيرًا. يده موجودة، لكنّها ذوت كلها ولا يستطيع أن يؤدي أي عمل بواسطتها. إنه يحملها هكذا". وقلّدت الطريقة التي يضع فيها جدّ بِني ذراعه على وسطه، واليد تتدلى مثل قفاز فارغ.

"يا إلهي"، قالت كايسي، "لن أكون هكذا، أليس كذلك؟"

"لا تكوني سخيفة. لقد سمعت ما قاله الطبيب. طالما كنتِ مريضة جيدة..."

"لكنني المريضة الضجرة. فأنا ملولة جدًا. وسيظل الحال هكذا لعدة أسابيع".

"ليس لعدة أسابيع".

"مهما كان. لمدة طويلة جدًا. لم أعد أريد أن أخبز بسكويت برقائق الشوكولاتة. هذه هي حياتنا، هنا. وبعد فترة قصيرة سنعود

إلى المدرسة، ونجلس في الصفوف الرهيبة ننتظر حتى يمضي الوقت مرة أخرى من البداية. يجب أن نفكّر بعمل شيء".

وهكذا خرجنا. يقع بيتنا في البلدة، أو بالأحرى، في الطريق إلى البلدة، في الطرف الجنوبي. وتتألف البلدة نفسها من أربعة شوارع طويلة تسير باتجاه واحد، وخمسة شوارع تسير في الاتجاه الآخر، ثم تأتي مراكز التسوّق الكائنة على الطريق السريع 29، حيث توجد محلات "ماركت باسكت"، و "دولار ستور" و "فاشن بغ" و "فرندلي". وهناك أكثر من أربع أحياء مربّعة باتجاه رويستون، أما ما تبقى من البلدة فهي شوارع سكنية مليئة بالمنعطفات، ثم تتلاشى كلها من جميع الاتجاهات حتى تفضي إلى الغابة، ماعدا الطريق 29 في كلا الاتجاهين، والمحلات التجارية المتناثرة جنوبًا ثم شمالًا حتى نيوبريبورت. والوصول إلى تلك الأماكن الموجودة على الطريق السريع الذي يصل بين الولايات أسرع، لكنك، في ذلك الطريق، ستفوّت عليك رؤية المحلات القديمة، مثل "مطعم قصر اللوتس الذهبي"، وهو معبد قرمزي اللون بسيط يعود إلى الستّينات له بوابة ضخمة مذهّبة رسم عليها في الخارج تنينات سود من الجص، حيث يمزجون الطعام بمادة إم إس جي فتشعر بأنك تعيش في كوكب آخر. أو نزل "النجوم المحظوظة" الذي أفلس منذ بضع سنوات: وتهاوت عدة ألواح من لافتة النيون القديمة – كانت تبدو أشبه بشيء خارج من مسلسل الرسوم المتحركة "ذا جتسونز" عندما كان في حالة سليمة – وغطّوا النوافذ بألواح خشبية كي لا يتسلل إليها المشرّدون والحيوانات

ويمكثون في الغرف القديمة. ويمكن سماع أصداء رويستون القديمة على طول الطريق 29، كيف كانت قبل وصول المنفيين البرجوازيين والفنانين إليها من بوسطن، بل حتى قبل إقامة منشأة هينكل.

ذهبنا أنا وكايسي نستكشف المكان سيرًا على الأقدام، وهذا يعني، غالبًا، الذهاب إلى وسط البلدة. ثم اتجهنا إلى مقلع الحجارة والمصحة العقلية القديمة. يوجد في وسط البلدة صفّ من المباني القديمة الضخمة من الطراز الفيكتوري المبنية بالآجر الأحمر حيث توجد شقق فوق الدكاكين. وطالما تساءلتُ من يعيش في هذه الشقق. فلا تستمر عدة محلات طويلًا – لأن رويستون بلدة صغيرة يلجأ إليها الناس من بوسطن أو من بورتلاند، ويجلبون معهم أطفالهم الصغار وتخيلاتهم، ليكتشفوا أن الحياة في القرية ليست بسيطة كما كانوا يتوقّعون. وأقاموا محل مجوهرات متلألئة، أو مقهى رُسمت على جدرانه أبقار وأُسدلت على نوافذه ستائر سميكة، وتظل تعمل لمدة سنة أو سنتين، خلال فصول شتاء عجفاء شديدة البرودة لا يُرى خلالها أحد في الشارع، لكنهم سرعان ما يغلقون محلاتهم ويعودون إلى المكان الذي جاؤوا منه. وهناك المحلات القديمة أيضًا، صيدلية أداميان، والحانة الآيرلندية ماهوني، ومحل بيل للأقمشة الذي تديره ميلدرد بيل ذات الطباع السيئة، التي تكبر جدتي سنًا والتي توجد على ذقنها ثؤلولة مثل ساحرة. وتباع في محل بيل المجنون الذي تتناثر بضائعه، من بين أشياء أخرى، بلوزات لعيد الميلاد مطرّزة برسوم غزلان الرنّة أو جنيّات. ويحمون واجهة المحل التي لم تتغيّر قط بورق سيلوفان ملوّن بالأصفر. وعندما كنت صغيرة، كنت أحبّ قسم الألعاب الذي يوجد فيه صفّ من صناديق بلاستيكية

فيها أشياء يمكنني أن أشتريها من مصروف جيبي – محايات يابانية ودفاتر ملاحظات عليها عبارة هالو كيتي، وكرات ارتدادية تتوهّج في العتمة ومشابك شعر في شكل سندويشة هامبرغر أو كعك من الجص. ومن الواضح أنه كان يبدو أن لدى السيّدة بيل نقطة ضعف إزاء الحيوانات المحشوة أيضًا، لأنه يوجد صندوق كبير من الخيزران مليء بأكثر تلك الحيوانات نعومة وطراوة، لا دببًا فحسب وإنما أيضًا بوم وزرافات، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة متنوعة من الخنازير. كنا نحبّ أنا وكايسي أن نذهب إلى محل بيل في شهر أغسطس ذاك لرؤية الحيوانات المحشوة، ولأنني كنت أشعر بالذنب بسبب يدها والوقت الصعب الذي تمرّ به، عدت خلسة وحدي واشتريتُ لها أصغر خنزير، الخنزير الوردي الشاحب الذي أطلقت عليه اسم هربرت، وخبأته لأفاجئها به، لكن ليوم واحد فقط، لأننا عندما عدنا إلى المحل في اليوم التالي ولم تره، بدأت تنتحب.

بعد محل السّيدة بيل، ومحل رايت إيد الذي كنا نحبّ أن نتجوّل فيه كثيرًا وخاصة في قسم المواد الصغيرة الحجم المعدّة للسفر وطلاء الأظافر (مع أن أمّ كايسي لم تكن تسمح لها أن تستعمل طلاء الأظافر ولم أكن أحبّ أن استخدمها)، لم تكن هناك أماكن عديدة في رويستون يمكن أن يرتادها الأطفال. كنّا نتمشى حتى ملعب الأطفال في شارع ماركت ستريت الذي يقع بعد مبنى المدرسة الثانوية، الذي توجد فيه القلابات والأراجيح، لكنهم، في ذلك الصيف، كانوا يرممون الزلاقة وألعاب التسلّق، فلم يبق سوى جذوع الأشجار، فضلًا عن أن الأطفال الآخرين في الحديقة كانوا صغارًا، دون الخامسة من العمر، تصحبهم أمهاتهم أو جدّاتهم، وكان ذلك يجعلنا نشعر بالاكتئاب أكثر

مما لو بقينا في البيت.

وبما أنه لم يكن بإمكاننا أن نلعب التنس أو كرة السلة، فلم تكن المدرسة الثانوية مكانًا مسليًا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك تلميذ شقي، في الصف الثامن، اسمه بيكيت، يتسكع مع أصدقائه، من بينهم الصبي الذي أُغرمت به منذ سنة، بيتر أوندل، الذي كان يتردّد على مدرستنا باستمرار. وعندما كنّا أصغر سنًا، كنّا نلعب معًا في فترات الاستراحة – لعبة الجري واللمس، ولعبة المربعات الأربعة، ولعبة لمس الكرة. أما الآن، فقد بدأ يتسكع مع بيكيت الذي يتقدمنا بسنتين ويترأس عصابة: فتيان لهم أيد طويلة وأقدام سريعة وأفواه بذيئة. وكان بيتر أوندل الذي يتقدمنا، أنا وكايسي، بسنة واحدة فقط، مختلفًا، من ذلك النوع من الفتيان الذي يمدّ يده لمساعدتك عندما تكون بحاجة إلى المساعدة. كان نحيفًا، له أنف مدبب، لكنه وسيم: له ضفائر بنية مائلة إلى اللون الأحمر، ورموش طويلة.

كان الصبية يلعبون كرة السلة لساعات طويلة. وكان واحد أو اثنان منهما يصفّران لنا كلما مررنا. وفي عصر أحد الأيام، صاح بيكيت قائلًا لي: "هيه، يا ذات الشعر الأجعد، ما هذه البثرات الضخمة على جبينك؟" فضحك الصبية الآخرون بصوت عال فتضرّج وجهي خجلًا. فصاحت كايسي تردّ عليه بصوت عال، "لماذا أنت حسود يا بيكيت؟' لأنني أرى أنّك أطلت شعرك مثل فتاة".

"أوه، اللعنة عليك أنتِ أيضًا"، صاح بيكيت، وأدار ظهره، كما لو أنه أحسّ بالحرج، كما خيّل إليّ.

"أريد أن أضمك إليّ"، قلت لكايسي، "لكنه سيظن أننا مثليّتان".

"ومن يبالي بذلك؟" قالت كايسي، وواصلنا سيرنا. كنّا نجتاز

الملعب عندما لحق بنا بيتر أوندل. كانت ضفائره تلمع من العرق، وصدره ذو العظام البارزة يعلو ويهبط تحت بلوزته الشبكية (سيلتيك رقم 19). لمسني على كتفي، فاحترق. كنت متأكدة بأن وجهي أحمر.

"هيه أنتِ". وقف لثانية.

"ماذا تريد؟" بدا الاشمئزاز في صوت كايسي.

"أردت أن أعتذر فقط".

"ماذا؟" قالت مرة أخرى.

"قد يبدو بيكيت غبيًا في بعض الأحيان".

"بلا مزاح".

"لكنه ليس سيئًا إلى هذه الدرجة. كانت مزحة".

"هذا ليس شيئًا مضحكًا"، حدّقت كايسي في بيتر كما لو كان هو من قال ذلك.

"حسنًا" ابتسمتُ، "لا بأس. شكرًا لمجيئك".

هزّ بيتر رأسه، واستدار ليركض عائدًا إلى رفاقه، لكنّه التفت من وراء كتفه وابتسم لي. خُيّل إليّ أنه جاء من أجلي.

"من المؤسف أنه أصبح واحدًا منهم"، قالت كايسي عندما تابعنا سيرنا.

"ليس إلى هذه الدرجة من السوء".

أطلقت صوتًا كما لو أنها تريد أن تقول، إنك تتمنّين ذلك. كانت تعرف أنني أحبّه. كان مقلع الحجارة المكان الذي يلتقي فيه الصبية في الصيف، المكان الذي كنّا نرتاده أحيانًا مع أبائنا وأصدقائهم لكي نسبح. وكان يبعد حوالي ميل غربي رويستون، ويتفرع من طريق صغير إلى درب ترابي بين بيتين خاصّين. وكان في

مقلع الحجارة القديم المهجور منذ أكثر من مائة سنة، مياه رمادية اللون مشوبة باللون الأخضر بشكل نادر، لون كأنه منبثق من لوحة زيتية قديمة. وفي بعض الأضواء، كانت الصخور الضخمة تلمع كأنها ذهب، لكن العبارة التي تخطر على البال هي "بني مائل إلى اللون الأصفر" مثل لون الأسد. ولون المقلع نفسه بلون الأسد، لذلك كان لون مبنى بلدية رويستون - الذي بُني في سبعينات القرن التاسع عشر بالحجارة - بلون الأسد أيضًا.

وفي مقلع الحجارة بركة خاصّة تملكها جمعية الأراضي المحليّة، وهي مجموعة من الأوصياء الذين اشتروا عدة هكتارات من الأراضي تقع بين حدود كايب آن ونيوهامشير، وتديرها كنوع من عمل خيري لصالح الطبيعة. ولكي يُسمح لك بالسباحة يجب أن تكون عضوًا فيها. وفي وسط الدرب الترابي، يمتد جنزير، لكن لا يوجد له قفل. فإذا كنت تقود دراجة هوائية أو تتمشّى هناك، فإنك تستطيع أن تنسلّ من حوله. ولا يوجد منقذ أو مشرف سوى رودي الذي يشرف على المقبرة أيضًا: وفي أوقات غير متوقّعة، يقود شاحنته الصغيرة البرتقالية الغامقة مع كلبته من فصيلة جيرمان شبرد، ذات العين الواحدة، بيسي، ليتأكد من أن شيئًا غير معتاد لا يجري في الجوار. لم يكن رودي رجلًا سيئًا مع أنه يبدو مخيفًا. وبما أن فمه يخلو من الأسنان، فقد كان خداه غائرين حتى يكاد أحدهما يلتصق بالآخر. أما بيسي - حسنًا، يخاف الناس عادة من كلاب جيرمان شبرد – فإن منظرها يثير الفزع لأن لون إحدى عينيها حليبي وتعكس الضوء.

في عصر ذلك اليوم، رأيناه لأول مرة على الطريق الرئيس،

كان في طريقه إلى البلدة عندما كنّا خارجتين منها. كنّا نمشي على حافة الدرب المكسو بالحصى، واستدار بشكل استعراضي إلى الجانب الآخر من الطريق عندما مرّ بجانبنا، ورفع يده ملوّحًا بالأسلوب الريفي القديم وأومأ إلينا. كان يبرز من فمه عود أسنان، أو سيجارة مطفأة، ويضع قبعته المبقعة بالدهون إلى الوراء، تتدلى بضع خصلات من شعره إلى الأسفل. وكانت الكلبة بيسي تمدّ نصف رأسها من النافذة من الجانب الآخر، لسانها يتدلّى، تأكل الهواء. جعلنا مشهدها نضحك: "الكلبة مبتهجة"، قالت كايسي، "أرجو أن ترسل لنا بعضًا من تلك البهجة".

أردنا أن نسير باتجاه مقلع الحجارة لتزجية الوقت. لم يكن بوسعنا أن نسبح، أو أن كايسي لا تستطيع بسبب يدها. لكننا شعرنا بالرغبة في أن نستكشف المكان، لأننا نعرف على الأقل أن دربًا عبر الغابة من مقلع الحجارة يؤدي إلى المصحة العقلية القديمة. كانت كايسي ترى أن هذا أفضل شيء يمكن أن نفعله: فإذا تمكنا من العثور على طريقنا إلى المصحة، فمن يعرف أي شيء يمكن أن نكتشف؟ كانت تظن أنه يوجد كنز هناك – شيء مخبأ أو شيء قد يكون أحدهم قد تركه هناك، شيء لا يمكن أن نتخيّله إلاّ بعد أن نكتشفه.

"بل ربما يعيش أحدهم هناك"، قالت، رافعة حاجبيها وهي تبتسم، "أحد يظن الجميع أنه هرب".

" هذا سبب يدعونا لعدم الذهاب إلى هناك".

"أنتِ جبانة".

"لستُ جبانة. ولو كان هناك أحد يعيش هناك، لكنّا قد عرفنا ذلك".

"كيف؟"

"لأنها قريبة جدًا من البلدة؟ ولا يمكن لأحد ألاّ يعرف أمرًا كهذا".

"إذًا، يمكننا أن نتظاهر بأننا نعيش هناك، حتى لفترة بعد الظهر، مثلًا".

بعد أن كبرنا بضع سنوات، لم نعد نلعب ألعاب التظاهر، مع أننا كنّا نتوق إلى اللعب بها. وتهيأ لنا أن مسرحًا كبيرًا مثل المصحة العقلية مكان مثالي لممارسة ذلك: إذ يمكننا أن نختبئ في الغابة في مخابئ سرية، وانتابتنا فجأة الرغبة في أن نتصرف كما لو أننا عدنا إلى العاشرة من عمرنا، حيث تقوم هي بدور مقاتلة في صفوف المقاومة في الحرب العالمية الثانية، وأهبط أنا بالمظلّة قادمة من إنكلترا في مهمّة سرية؛ أو نتظاهر بأننا الناجيتان الوحيدتان في نهاية العالم ونقتات على البندق والتوت ونشرب ماء المطر.

إن الغابة المحيطة ببلدة رويستون رائعة لممارسة ألعاب كهذه بسبب وجود بقعة خالية من الأشجار فيها، وكتل صخرية ضخمة مسطحة تشبه المناضد، وفيها جذوع أشجار مقتلعة يمكن استخدامها كمقاعد، وفيها صخور معلّقة يمكنك أن تجلس تحتها تقيك من الأمطار إلاّ إذا هطلت بغزارة. وهي ليست غابة كثيفة مثل غابتي هانسيل وغريتيل، وإنما غابة يستحيل لونها عندما يهبط عليها نور الشمس إلى لون أخضر ويرسم أشكالًا مبرقشة عندما يلامس الأرض الصنوبرية الناعمة التي ينمو فيها فطر الغاريقون بطريقة مدهشة في شكل مجموعات وكتل – صحون حمراء مسطحة أو أكوام متموجة بيضاء تميل إلى اللون الأصفر، وبصيلات براقة صفراء

صغيرة، تكاد تكون ملساء - وطيور غير مرئية يخاطب أحدها الآخر فوق الأغصان العالية. وترى أحيانًا وميضًا براقًا لشحرور له جناحان حمراوان أو طائر الكاردينال، وفي أحيان أخرى، ترى في مقلع الحجارة نفسه طائر مالك الحزين ضلّ طريقه يتمايل على قائمتيه الرفيعتين المقلقلتين، ثم يفرش جناحيه العظيمين، ويقوّس رقبته التي تعود إلى ما قبل التاريخ ويحدّق بك من عين براقة.

في اليوم الأول الذي ذهبنا فيه إلى مقلع الحجارة، رأينا طائر الحزين ذاك. أطلقنا عليها اسم نانسي، لأن الاسم جعلنا نضحك، وأصبحنا كلما رأينا طائرًا آخر بعد ذلك، حيثما كان، نلوّح له ونصيح، "هيه، نانسي، لقد سررنا برؤيتك!" كنا نشعر بأن رؤيته فأل حسن، يجلب لنا الخير.

خلعت كايسي حذاءها الرياضي وجوربها وغمرت قدميها في الماء، وألححت عليها بأن تحرص على ألّا تتبلّل يدها المضمّدة بالماء عند حافة البركة، لكنها طلبت مني أن أتوقف عن الإلحاح عليها. كان الطقس حارًا، حتى عندما كنا نسير تحت الأشجار، وانتابتني رغبة في أن أخلع ثيابي وأغوص في الماء، حتى لدقيقة واحدة، كي أخفف من تورم أصابعي وكاحلي (بعض الناس تتورم أصابعهم في الحرارة، وبعضهم لا تتورم. ولا داعي للقول إن كايسي لم يكن يحدث لها ذلك). لكنّي أردت أن أخفف من حدة الورم فيها فجلست كذلك فوق الحجارة وغطست قدمي المتورمتين في الماء، ورحت أنصت إلى أزيز الحشرات، وأرادت المزيد. لقد استغرقت الرحلة من بيتي إلى هنا حوالي ساعة، وسيستغرق طريق العودة المدة نفسها تقريبًا، ولم نجلب معنا شيئًا، حتى قنينة ماء.

عندما نشرت نانسي جناحيها وثنت ساقيها، وارتفعت مثل طائرة من دون أن تنثر قطرة واحدة من الماء، ألقت كايسي برأسها إلى الخلف، وضيّقت عينيها، وقالت: "المكان جيد هنا".

"بل سيكون أفضل لو سبحنا".

"البحيرة عميقة جدًا، أليس كذلك؟"

كانت المياه، باخضرارها المائل إلى اللون الرمادي صافية جدًا، ومع ذلك، لم يكن بوسعك أن ترى القاع. "ماذا تظنين أنه يوجد هناك؟"

" حجارة طبعًا. فهو مقلع حجارة".

"أشباح؟ هل تظنين أنه توجد أشباح في الأسفل؟" فكلتانا نعرف قصّة المراهق الذي غرق هنا، قبل أن نولد بزمن طويل. في الثمانينات. فقد جاءت شلة من الفتيان ليسبحوا عراة في الليل. كانوا إما سكارى وإما تعاطوا مخدرات، أو كليهما، وألقى هذا الفتى بنفسه في الماء ورأسه إلى الأمام فارتطم رأسه بصخرة ولم يصعد بعدها قط. وكان الأطفال منهمكين في لعبهم ولهوهم فلم يلاحظوا غيابه إلا عندما حان موعد عودتهم إلى بيوتهم. ولم تتمكن الشرطة من العثور على جثته إلاّ في اليوم التالي. وفي رويستون، نعرف جميعًا هذه القصّة منذ صغرنا، مع أنّنا كنّا نعرف أنها أسطورة أكثر من كونها حقيقة. ولم نكن نعرف اسم الصبي أو أيّ شيء عنه. لذلك كانت توجد لافتة كبيرة معلّقة عند موقف السيارات كُتب عليها عبارة "ممنوع الغوص".

"أشباح؟" حدّقت كايسي بي في أشعة الشمس المضيئة، "لا تقولي لي إنك تؤمنين بالأشباح".

"لا تقولي لي إنك لا تؤمنين بها".

"طبعًا لا أؤمن بها".

"وماذا عن أبيك، إذًا؟"

هزّت كايسي رأسها وصمتت لدقيقة. "إنها ليست أشباح. إنها ملائكة. إنها مختلفة تمامًا. وهي ليست نكتة سمجة". سحبت قدميها من الماء وأدارت لي ظهرها. جلست القرفصاء وأطرقت برأسها مثل سلحفاة وانكمشت على نفسها.

"لم أكن - لم أقصد... ياكاس... أنا آسفه، أوكي؟"

لم تستدر فورًا. وعندما استدارت، بدا أنها ستقول شيئًا. ظننت أنها غضبت مني، ثم لاحظت أنّها كانت تحاول أن تمسك نفسها عن البكاء. وقالت: "لقد حان الوقت لنعود، ألا تظنين ذلك؟" ثم أضافت، "ألم تعدنا أمّك بأنها ستعدّ لنا بعض الجبن المشوي؟"

"وكوكتيل حليب بالشوكولاتة".

كان والد كايسي يُعتبر أسطورة مثل الصبي الذي غرق. لا لأنه قد لا يكون حقيقيًا، وإنما لأنها لم تعرفه في الواقع قط. أو بالأحرى، لم يكن بوسعها أن تتذكّر شيئًا عنه، سوى وجهه: تقول إنها تتذكّره وهو ينحني فوق سريرها، عيناه زرقاوان، وشعورها بالأمان وهو يحملها بين ذراعيه - ذكريات طفلة صغيرة جدًا، مظلمة حول الحافات مثل صورة قديمة، لكنها لا يمكن أن تُمحى. وهو الذي اختار اسمها، كساندرا، لأنه كان يعتقد بأنّه أجمل اسم. وأنها ورثت منه عظامها التي تشبه عظام طير، وكذلك ميولها إلى الرياضيات، أو هذا ما قالته لها بيف. وحبّها لشرائح البصل، وأذنيها البارزتين.

أما أبي فهو حاضر في حياتي إلى درجة أنني لم أكن أنظر إليه. ليس كما ينبغي لي أن أفعل. فأنا أحبّه كثيرًا، لكني قلما أراه، على نحو ما. وهو يتلاعب بالألفاظ فيجعلنا نتذمر، أنا وأمّي. وكان يغضب عندما يرى ثيابي مبعثرة في الغرفة الأمامية. وأنا أعرف وجهه جيّدًا إلى حدّ أنني لا أستطيع أن أعرف متى يطرأ عليه أي تغيير – وقالت أمّي منذ أيام إنّ أكثر من نصف شعره قد شاب: متى حدث ذلك؟ كيف لم ألاحظ؟ فقال لهذا السبب توجد العائلة: فالأشخاص الذين يحبّونك يرونك في أفضل صورة، كما تريد أنت أن تُرى. وقال إن ذلك ليس لأنني لم أكن أنظر إليه فقط.

أما بالنسبة إلى كايسي، فقد بدا الأمر كما لو أنّ والدها كان يقف وراء ستارة سوداء سميكة فيها بضعة ثقوب صغيرة، وكان عليها أن تقرّب رأسها كثيرًا من تلك الثقوب وتنظر من خلالها، لتحاول تركيب شكل والدها وهيئته من الشيء القليل الذي تستطيع أن تراه.

حكت لها بيف القصّة ألف مرة، قصّة موته. فقد كانوا يعيشون في بيت ريفي يبعد حوالي أربعين دقيقة شمال غرب بوسطن عندما ولدت كايسي، ومع أن بيف كانت قد أنهت منهاج دراستها، لم تكن قد تأهلت بعد لتصبح ممرضة رسمية. وكان والد كايسي الذي اسمه كلارك - "كلارك بورنيس، يا له من اسم جميل، أليس كذلك؟" كانت كايسي تهمس عندما تحدّثني عنه، كما لو كان نجمًا سينمائيًا، مثل كلارك غابل أو هاريسون فورد – يعمل في وظيفتين ليوفّر نقودًا تُعيلهم إلى أن تبدأ بيف في العمل أيضًا. كان يدرّس مادة البيولوجيا في المدرسة المتوسطة في بيلمونت، بولاية مساشوستس (بحثنا عنها في غوغل الأرض لنرى المبنى فقط)، وبعد ذلك كان يعمل لمدة ثلاث

ليال في الأسبوع في حانة في برايتون، تقع أساسًا، كما قالت بيف لكايسي، وكما قالت كايسي لي، في بوسطن: أيام الخميس والجمعة والسبت – حتى أن كايسي كانت تعرف الأيام التي كان يعمل فيها. وفي وقت متأخر من إحدى ليالي الجمعة، عندما كان عائدًا بالسيارة إلى البيت من بوسطن وكان الطقس سيئًا جدًا، في شهر فبراير عندما كانت كايسي تبلغ من العمر أحد عشر شهرًا، تجاوزت سيارة قادمة من الجانب المقابل الخط الذي يشطر الطريق إلى نصفين وارتطمت بسيارته وجهًا لوجه. كان السائق ثملًا. وتحكي بيف كيف أنها نامت ثم استيقظت في الرابعة صباحًا، ورأت كايسي نائمة بجانبها في السرير، وليس كلارك الذي لم يكن قد عاد إلى البيت، ولم يكن يردّ على هاتفه الخلوي. لم تكن من ذلك النوع من الأشخاص الذين يشعرون بالقلق، لذلك كانت أول فكرة خطرت لها أنه مكث في بوسطن في بيت أحد الأصدقاء، وهذا ما كان يفعله أحيانًا، فانزعجت لأن يوم السبت سيأتي ولديهما خطط، أما الآن فقد تأخر كلّ شيء. فعادت ونامت وهي منزعجة من كلارك، ثم استيقظت مرة أخرى في حوالي السابعة وكانت لا تزال منزعجة. وفي الساعة السابعة والنصف، اتصلت بها الشرطة وأخبروها أنّ كلارك قد مات. وطوال تلك السنوات، منذ ذلك الحين، أخبرت بيف أمّي، وأمّي أخبرتني، بأنها تشعر بالذنب لأنها كانت منزعجة منه، ولأنها لم تفكر به بشكل إيجابي، عندما كان، بالطبع، سيأتي إلى البيت لو استطاع ذلك.

كان كلارك بورنيس بمثابة ملاك بالنسبة إلى كايسي. وهي تؤمن بأنّه يراقبها ويحيطها بحمايته. وترى أحلامًا بأنهما معًا. أحلام سعيدة دائمًا، وهما يتبادلان شراب المارشمالو أو يركبان دراجات

هوائية، أو وهو يضعها في سريرها في الليل ويغطيها باللحاف، وهي تحفظ قسمات وجهه عن ظهر قلب، الوجه الذي تتذكّره منذ أن كانت رضيعة في مهدها. وعندما بلغت الثامنة من عمرها، كان صوته يتردد في رأسها – كانت تعرف أنه صوته، بشكل ما – فقد طلب منها أن لا تخرج وتسير على الجليد في لونغ بوند في يناير. فقد كانت تسير مع أمّها عند بحيرة أودبون، لكنها ركضت أمامها وأرادت أن تتزلج، وعندما كانت تهمّ بأن تقفز من فوق الضفة، قال لها الصوت، ابقي معي يا دميتي. ابقي هنا على الضفة. هذا ما قالته كايسي: فقد دعاها "يا دميتي"، وما إن سمعت هذه الكلمات حتى أحسّت بالأمان. كان معها. لم تكن وحدها قط. الأمر الذي كان مختلفًا تمامًا عن الأشباح التي تخيّم فوق مقلع الحجارة. "في بعض الأحيان"، قالت لي ذات مرة، "إني متأكدة تمامًا بأنه حيّ يرزق. لا في عقلي فحسب، وإنما في الواقع أيضًا. كما لو أنه يقف عند ناصية الشارع، ينتظرني، في الحقيقة. لأنني أستطيع أن أشعر بأنه قريب جدًا مني، كما تعرفين؟ كما لو أنه معي. فالملائكة"، همست بقوة، "حقيقية".

لقد رأيتُ صورته: كانت كايسي تحتفظ بها في كيس بلاستيكي تضعه في درج ملابسها الداخلية، وكانت تنام معها أحيانًا أخرى وتضعها تحت وسادتها. والغريب أنه لم تكن له صور في بيتهم، صور له مع بيف، أو صورة له وهو يحمل الطفلة كايسي، لكن كايسي فسرت لي ذلك بأنّ حزن أمّها كان شديدًا جدًا وعميقًا جدًا إلى حد أنها لم تكن تحتمل أن تنظر إلى صور كلارك، فأخفتها كلّها. حتى أنه لا يوجد له قبر تزورانه، لأن جثمانه كان قد أُحرق، وحكت بيف لكايسي عن رحلتها الشتوية إلى شاطئ البحر، عندما لم تكن كايسي تستطيع

أن تمشي بعد، لتنثر رماد جثمانه في مياه المحيط الأطلسي. وهبّ نثار من رماده على وجهيهما، قالت بيف لكايسي، وربما ابتلعتا قليلًا منه. وقالت إنهما لم تشمئزا منه. إن وجوده في داخلهما معجزة من معجزات الطبيعة.

بمعجزة، بقيت تلك الصورة حتى الآن، الصورة التي كانت مخبأة في الغلاف الخلفي لإنجيل الأسرة حيث وجدتها كايسي عندما كانت في السابعة تقريبًا: فقد كانت تستخدم الإنجيل في بناء مسار لسباق سيارات من علب الثقاب فسقطت الصورة من مكانها. ولم تثر إحداهما موضوع الصورة قط، مع أن أمّها لا بد أنها رأتها في الدرج الذي تضع فيه كايسي ثيابها الداخلية – ولم تحاول كايسي إخفاءها.

في الحقيقة، من الصعب معرفة كيف كان شكل كلارك بورنيس بدقة: فقد التُقطت الصورة منذ زمن بعيد وهي مغبشة، غير واضحة، التُقطت أمام ما يبدو أنها حظيرة في يوم خريفي غائم. وكان وجه الرجل الذي يظهر في الصورة مربّعًا وقد تهدلت خصلة شعر شقراء فوق إحدى عينيه، ويضع يديه في جيبي بنطاله الجينز. لا بد أنه تحرّك قليلًا عندما التُقطت الصورة، لذلك لا تستطيع أن تتأكد إن كانت عيناه زرقاوين أم لا (قالت بيف لكايسي إنهما زرقاوان)؛ ولا تستطيع أن تصف قسمات وجهه: كأنه كان يهمّ بأن يفعل شيئًا في تلك اللحظة. كان يرتدي قميصًا قصير الكُمّين أزرق رُسمت عليه شارة السلام، فوق قميص صوفي موشى باللونين الأحمر والأسود. وبدا لي أن القميص هو أكثر الأشياء اليقينية في الصورة، الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تكون متأكدًا بأنك تستطيع إدراكه، وهذا أمر غريب لأنه يشبه مليون قميص صوفي آخر. ففي الخريف، في رويستون الصغيرة،

يمكنك أن ترى نصف دزينة من تلك القمصان كلّ يوم. بالطبع لم أقل ذلك لكايسي - لماذا عليّ أن أفعل ذلك؟ فلم يكن هذا ما تريد أن تسمعه. لذلك، عندما كنا ننظر إلى الصورة معًا، كنّا نحاول أن نحدد القسمات والسمات التي ورثتها عنه، أشياء غير واضحة تحملها في جسدها.

بما أنني كنت أعرف كلّ ذلك وشعورها تجاهه، فلم يكن ينبغي لي أن أثير الأمر كما فعلت، كما لو أنني لم أكن أدرك ماذا يعني بالنسبة لها. ولم تثر هذا الأمر مرة أخرى، لكنّه كان أحد تلك الأحداث الصغيرة والكبيرة في آن معًا.

عدنا إلى البيت وتناولنا الجبن المشوي وشربنا كوكتيل الشوكولاتة والحليب، ثمّ ملأنا وعاء بلاستيكيًا وقامت كلّ منّا بتقليم وتشذيب أظافر قدميّ الأخرى، إلى أن جاءت بيف لتأخذ كايسي. كنت قد رسمتُ ألوان العلم البريطاني على أصابع قدميها – كنت قد شاهدت فيديو على اليوتيوب حول طريقة عمل ذلك – لكنها لم تنجح لأن أظافر قدميها كانت صغيرة جدًا.

وبسبب يدها المصابة لم تستطع أن تقلّم أظافر قدمي جيدًا، فصبغت أصابع قدمي بلون أزرق غامق، وألصقت عليها لاصقات فضّية صغيرة براقة. بدت قدماي كما تبدو السماء في الليل.

في اليوم التالي، عدنا إلى مقلع الحجارة. جهزّنا طعام الغداء للنزهة لنبقى هناك فترة أطول، ربما اليوم كله. أمّي التي كانت منهمكة في كتابة مقالة، لم تعرني انتباهًا كبيرًا، لكني قلت لها إننا سنذهب إلى

الغابة وقد نمضي فيها بعض الوقت.

"لا تقتربا من الطريق السريع"، قالت، وكان من السخافة أن تقول ذلك لأن مقلع الحجارة يقع على الجانب الآخر من البلدة على الطريق السريع، "وخذا هاتفيكما معكما في حال احتجتما إليّ".

"حسنًا".

"كما تعرفين، يمكنك الاعتماد علينا، يا سيدة روبنسن"، قالت كايسي.

لم نتوقّف عند محل بيل، ولا عند محل رايت إيد. وعندما مررنا من أمام مبنى المدرسة الثانوية، رفعت كايسي إصبعها الوسطى لبيكيت من مسافة بعيدة يتعذر عليه رؤيتها منها. ثم قالت: "للتحذير فقط".

فقلت: "مثل درء مصاصي الدماء بالثوم".

كان انعطافنا عن الطريق إلى الغابة، وسيرنا في الدرب المفضي إلى مقلع الحجارة، أشبه بدخولنا إلى حلم. وسال العرق فوق عمودي الفقري بين حقيبة ظهري الحارة وبين جلدي، وبرزت على أصابعي علامات خطوط حمراء وبيضاء، وأصبح حجمها ضعف حجمها الطبيعي، لكن الظلّ وأوراق الأشجار التي تُصدر حفيفًا جعلت الحرارة محتملة، وألقى ضوء الشمس المتموّج بقعًا متموجة فوق بقع غير متوقّعة على اللحاء أو تلال أوراق الشجر. وفغمت رائحة النباتات، الخضراء والبنية في آن معًا، أنفينا. وبغتة، تصبح الغابة هادئة جدًا وغير هادئة في آن معًا: فقد كانت هناك أشياء تفرقع أو تتحرّك أو ترتطم، والطيور تزقزق وتغرد، والنسيم يتكلّم من خلال أوراق الأشجار. توقّفنا لنصيخ السمع، وأشارت كايسي إلى أنه عندما

تمرّ سيارة على الطريق العام، فإن صوتها يشبه صوت موجة هائلة على الشاطئ.

عندما اقتربنا من مقلع الحجارة، تناهت إلينا أصوات أناس وصوت رشّ بالماء. لا رشّ أطفال مبتهجين، ولا فتيان يرشّون الماء بواسطة مدفع ماء، وإنما رشّ رزين، هادئ، وكانت الأصوات أصوات أشخاص بالغين. عندما اقتربنا من حافة الماء رأينا السّيد كيرشباوم العجوز وزوجته. وهما من أصل نمساوي أو شيء من هذا القبيل، وهما شخصان جادان. وكانت للسّيد كيرشباوم لحية مدببة وخطها الشيب، وكان يدخّن الغليون – لم يكن يدخّن الغليون في ذلك اليوم – ويرتدي سترة حتى في فصل الصيف، لذلك كانت رؤيته وهو يرتدي لباس السباحة شيئًا مفاجئًا، وكان الشعر الأبيض يملأ صدره المترهل. وكانت زوجته الأنيقة، أديل كيرشباوم التي تعلّم العزف على البيانو للأطفال الموهوبين مثل ماي هوانغ، ترتدي مايوه سباحة أسود من قطعة واحدة وتغطي شعرها بقلنسوة سباحة قديمة الطراز بلون الكاسترد لها شريط يتدلى تحت ذقنها. عندما وصلنا، كانت تسبح ذهابًا وإيابًا على صدرها وكانت تحرص على ألاّ يلامس رأسها الماء (قالت كايسي لاحقًا، "لماذا تضع هذه القبعة المجنونة إذن؟ أهو عرض للأزياء؟").

تسلقنا، أنا وكايسي، الأشجار مرة أخرى. بدأت أهمس لكايسي لكنها وضعت إصبعها على شفتيها. فنحن نعرف أن السّيد كيرشباوم شخص يلتزم بالقواعد بدقة – فهو رجل عجوز، أليس كذلك، ونمساوي في الصميم – وسيعرف أننا غير منتسبتين إلى نادي مقلع الحجارة. وكانت أمّي قد كتبت مقالة منذ سنتين نددت فيها

بأعضاء النادي وقالت إنه ينبغي أن يكون مكانًا يرتاده عامة الناس، فهو مكان يقبع في الطبيعة؛ وبما أن الجميع يعرفون من أنا (كما أن السيّد والسيّدة كيرشباوم هما من مرضى أبي) فإنهما سيعرفان أنّ أسرة روبنسن لا تنتسب إلى عضوية النادي. أما بالنسبة إلى كايسي، فلم تكن أيضًا، وسيعرفان ذلك من مجرد رؤيتها. واحدة من تلك الأشياء التي كنا صغيرتين جدًا حتى نعرف أننا نعرفها، لكنّنا مع ذلك كنا نعرفها.

تسمّرنا في مكاننا لما بدا بضع دقائق، ثمّ ربتت كايسي على ذراعي وبدأت، بخطوات مبالغ فيها، تتراجع إلى الوراء حيث توجد شجيرات صغيرة.

"التفتي"، قالت دون أن تصدر صوتًا. "نحو المصحة".

في البدء لم أسمع سوى كلمة "التفتي"، حاولت أن أبقي عينيّ في الوقت نفسه عليها، ورائي، وعلى كيرشباومس أمامي الذي قد يسمع وقع خطواتنا، أو همهمة ضحكتنا المكبوتة. لكن كما قالت كايسي فيما بعد، "ألم تدركي من مجرد رؤيته بأنه لا يسمع؟ وهي تضع تلك القبعة فوق أذنيها – لذلك، لعلها لا تسمعه. ويمكنك أن تعرفي من مجرد النظر إليه بأنه أحمق أيضًا".

ما قالته كان دنيئًا، لكنّي على الرغم من ذلك ضحكت. كان الضحك شيئًا نفعله معًا على أشياء عديدة. كانت كايسي تحوّل كلّ شيء إلى شيء مضحك، مثل أن تسير على رؤوس أصابعها، وطريقة نظراتها المضحكة، ورفع ساعديها إلى الأعلى مثل كنغر، وكانت يدها الملفوفة بالضماد تبدو مثل قطرة بيضاء ناصعة في وسط ألوان الغابة الصامتة.

"يجب أن نكون حذرتين"، همست عندما ظنت أننا ابتعدنا إلى مسافة كافية لا يمكن لأحد أن يسمعنا فيها، "لأن كلّ ما نعرفه، هو أنه صيّاد، وقد يظنّ أن كفّي هي ذيل غزال فيطلق النار عليها".

فقلت لها: "ربما، أو حتى شعرك". كانت بارزة جدًا. لم تكن تستطيع أن تمتزج في الطبيعة المحيطة بنا، ثم أضافت، "لكنه لن يفعل ذلك. على الأرجح إنه سيسلمنا إلى رودي ويدع ذلك الكلب يأكلنا على وجبة العشاء".

"لقد أكلني كلب للتو لوجبة الغداء"، قالت كايسي، "ولا أريد أن أكون طعامًا للعشاء أيضًا".

وقفنا لوهلة، لا نزال نستطيع تمييز الأصوات الصامتة للحديث الذي يدور بين السيّد والسيّدة كيرشباومس – لم تكن اللغة الإنكليزية هي اللغة التي يتحدّثان بها، يمكنك أن تعرف ذلك حتى من دون أن تسمع كلماتهما – وهما ينزلقان بسلاسة في الماء.

"وماذا الآن؟ "سألتها. كانت حقيبة ظهري التي يوجد فيها طعام الغداء قد التصقت بقميصي المبلل بالعرق.

"الأمر واضح، أليس كذلك؟ جولة في المصحة".

"المصحة؟"

"أيوه"

"لكن الحرارة تكاد تحرقني".

"كلّ شيء يحدث لسبب، تقول أمّي دائمًا. المصحة أولًا، ثم السباحة. لا أظن أنهما سيبقيان هنا طوال فترة بعد الظهر. هل تظنين أنّ السيدة ستتشمّس؟"

"لكن لا نعرف أين هي المصحة. لا أعرف إن كان الذهاب إليها

فكرة جيدة".

"كلام فارغ، يا جوجو. هراء. أنتِ جبانة. روبنسن الملتوية، تتلوّين لتهربي من الأشياء المبهجة، وتخافين أن تحدث لك مشكلة".

"أنا لستُ كذلك".

"إنك تخافين من الأشباح، أليس كذلك؟ بووووا!" وارتسمت على وجهها قسمات سخرية. "أأنت مستعدة للقيام بذلك، أيتها الجبانة، أم تريدين أن تعودي جريًا إلى البيت؟"

فقلت لها: "مهما كان، فأنا لست جبانة. لنذهب".

لم تكن هناك أية إشارات على الدرب. وبإلحاح مني رحنا نسير في الدروب الضيقة بدلًا من أن نسير على غير هدى بين الأشجار. واكتشفنا أن الدرب المنقط بالأحمر طريق ملتو وأوصلنا إلى مقلع الحجارة على الجانب الآخر من موقف السيارات بعد عشرين دقيقة من انطلاقنا. كانت سيارة كيرشباوم القرمزية اللون من نوع بريوس لا تزال مركونة بين أشجار القيقب النرويجي. ثم تتبعنا آثار المثلث الأزرق لفترة إلى أن أبدت كايسي احتجاجها وقالت: "هذا الدرب يتجه صعودًا. فكّري في الأمر. فإذا عدنا إلى الطريق الرئيس وتتبعناه حتى المنعطف الذي ينحدر إلى المصحة، فلا يوجد تلّ بين هنا وهناك. هذا غير ممكن".

شعرت بالتعب وبالجوع. وبدأت أشعر بثقل حقيبة ظهري. قلت لها: "لا نعرف عن أي شيء نبحث. ربما علينا أن نسأل أحد الصبية الأكبر سنًّا ونعود في يوم آخر".

"من تعرفين من الصبية جاء إلى هذا المكان؟ لا تبجحًا، وإنما جاء إلى هنا فعلًا؟"

هززت رأسي. كان ذلك شيئًا يشبه أسطورة، مثل الصبي الذي غرق في مقلع الحجارة. فإذا مررت أمام المصحة بالسيارة من الطريق العام، فلن ترى شيئًا سوى الامتداد الطويل لجدار حجري مرتفع، والبوابة موصدة بالأقفال وعُلِّقت عليها لافتة كُتب عليها: ممنوع التجاوز. والشيء الذي تستطيع رؤيته من وراء البوابة أغصان مبعثرة ومنحنية من أزهار الملكة آن التي تنبثق من بين الحصى وتصل حتى الخصر. ولن أفاجَأ لو علمت أن أحدًا ممن نعرفه كان قد رأى المبنى: فهو من تلك الأشياء التي تتمنى أن تكون قد فعلتها، دون أن تتمنى أن تكون قد تفعلها فعلًا.

"لم يبق إلاّ الدرب الأخضر"، قالت كايسي، "أرى أن نعود إلى موقف السيارات، وأن نسلك الدرب الأخضر، عندها سنتأكد".

"أنا أرى أن نأكل".

"أنا لا أقول لا تتناولي طعام غدائك، وإنما أقترح أن تبذلي جهدًا أكبر حتى نصل".

قد تكون كايسي عاطفية وساخرة في آن معًا، وكنت أشعر دائمًا أنني إذا لم أكن حذرة معها، فقد ينتصر جانب السخرية فيها. فعدنا إلى موقف السيارات وسرنا في الدرب الأخضر المربع. كانت سيارة البريوس لا تزال مركونة هناك.

تبين لنا أن **الدرب الأخضر** أكثر تشويشًا من الدربين الآخرين – ففيه كميات أضخم من الصخور المتشابهة، وعدد أكبر من النباتات المتنوّعة، وأوساخ أكثر أيضًا. وسرعان ما أصبحنا نسير

بجانب ساقية. لم تكن الساقية كبيرة، لكنها كانت تصدر خريرًا جميلًا. شريط من الماء الرقراق في مجرى صغير، يمرّ فوق أكوام من المخلّفات والأوساخ ويلتفّ بابتهاج حول أكوام أخرى. كان يبدو كما لو كان، مثل الآنسة بوونو، معلّمتنا في مادة الدراسات الاجتماعية، يتفاوت في حجمه وذلك بحسب الفصل. أثرت هذه النقطة لكايسي، ثم قلت: "الآن، نحن في شهر أغسطس، والجدول والآنسة بوونو كلاهما في موسم البيكيني: هزيلين". فضحكت كايسي – كان ثمة شيء ممتع في كلمة "هزيلين"، إذا كرّرتها كثيرًا. لكنّها لم تتمالك نفسها عن القول، "مهما كان الفصل، فإن مؤخرة بوونو كبيرة". وكنّا نسخر من مؤخرة الآنسة بوونو عندما أشارت كايسي إلى لوح خشبي مسطّح عبر الجدول، وضع أحدهم فوقه ثلاث أحجار كبيرة مسطحة.

"ما هذا إذًا؟"

"ليس الدرب. المربع الأخضر التالي فوق الشجرة هناك".

"ليس هذا هو الدرب الصحيح، لكنّه درب في جميع الأحوال". فإذا نظرتِ إلى الطرف الآخر من الجدول ستلاحظين آثار درب يتلّوى عبر الغابة. لا توجد فيه إشارات أو لافتات لكن عليه آثار أقدام. ويبدو أن أحدًا لم يطأ هذا الدرب منذ زمن، لكني أستطيع القول إن آثار الأقدام هذه هي آثار أقدام كايسي.

"أنا متيقنة من أنه هو"، قالت.

كانت الغابة تسبح في صمت عميق.

"من برأيك وضع هذه الأحجار؟"

"ومن يهمه ذلك؟" أجابت كايسي، "فهي هنا منذ زمن. انظري - طحالب". كانت تكسو كومة الأحجار الصغيرة آثار طحالب براقة.

"حسنًا. لنذهب". دستُ فوق لوح الخشب فانزاح قليلًا تحت قدمي. كان ناعمًا ومتعفّنًا من الرطوبة، لكنه لم ينكسر. "هل هو حقيقي؟"

التمعت عينا كايسي، وتهيأ لي أنها كانت تتوقّع أن أتوقّف. كانت تستفزني طوال الوقت وتحرضني، وتقول إنني جبانة، لكنّها كانت تعتمد عليّ أيضًا لكي نبقى في مأمن. "حقيقي"، قلت.

بدا أن الدرب طريق للذهاب والإياب، وازدادت كثافة الخضرة فوقنا، وحُجبت الشمس أكثر، كما لو كنا نسير في أعماق الأدغال. حاولت أن أسير على خطى خريطة عقلية – انعطفنا يمينًا عند جذع شجرة متعفّنة عريضة، ثم اتجهنا يسارًا حيث تشابك جذعا شجرة القيقب معًا، وتركنا الماء وراء آذاننا اليسرى واقترب صوت خرير الماء، ثم تراجع، ثم عاد ثانية. كنت أعرف أنه يجب عليّ أن أسير بعكس هذه الإشارات عندما سنعود (انعطفي يسارًا عند جذع الشجرة المتعفّنة)، وخشيت أن أتشوش وأضلّ الطريق. حتى أنني استللت بضع صفحات من دفتر الملاحظات الصغير في حقيبتي وثبتّها على أغصان على طول الطريق - مثل قفاز كايسي الأبيض، كانت بارزة، قلت في نفسي، في الأخضر العائم.

لاح **المبنى الحزين** ضخمًا. ارتقينا الرابية، وسرنا باتجاه الضوء، وفي البداية لم نستطع أن نرى إلاّ مزيدًا من السماء في الجانب الآخر. وعلى بعد مئة ياردة أسفل المنحدر، خرجنا من المنطقة المكسوة بالأشجار، وانفرجت الأرض إلى ما يبدو أنه مرج فسيح، استحال إلى

حقل الآن، أعشابه الطويلة تتمايل تحت أشعة الشمس الحارة، وأصوات صراصير الحقل اليائسة تملأ المكان. وتناثرت الأزهار البرية بين الأعشاب - ومضات وردية، وأرجوانية، وبرتقالية في تموّجات بيضاء: أزهار مخروطية، وأعشاب القسموس، ونبات عين العفريت، والأقحوان. والهواء الرطب يتخلل الأشجار، له رائحة جافّة، رائحة أمان آخر الصيف.

امتداد الأعشاب الطويلة - تتخللها هنا وهناك نباتات رفيعة – تنتهي عند درجات تفضي إلى باحة حجرية. جئنا من الخلف. وبدلًا من الممر الدائري، والصالة المفتوحة والكراج، برز أمامنا عدد من النوافذ المعتمة، مثل عيون في المبنى المؤلف من ثلاثة طوابق بواجهته المشيّدة من الآجر على شكل حرف U، كما لو كان المبنى أشبه بوحش بشري. وفي الطابق الأرضي، على الأجنحة في كلا الجانبين، رأينا أبوابًا معدنية مطلية باللون البني. وفي وسط شكل حرف U – حوضها، إذا شئت – تمتد مجموعة من الأبواب الزجاجية المفضية إلى شرفة، وهناك، لوهلة فقط، يمكنك أن تتصوّر مسكن الرجل الغني الذي كان مسكنًا له في الأصل: يمكنك أن تتخيّل النوافذ الفرنسية المواربة، والستائر التي تتمايل وترفرف مع هبات النسيم، وكانت على الشرفة بضع طاولات مظلّلة بمظلات كبيرة، وحفلة منزلية فيها رجال أنيقون يدخنون السيجار ونساء يرحن ويغدين يحملن في أيديهن أكواب شاي خزفية. ثمّ تلاحظ سلسلة القفل الثقيلة التي تنسلّ عبر قضبان الأبواب، صدئة لكنها لا تزال أحدث من ذلك الخراب الذي يبدو منذ البداية. رسومات غرافيتي زرقاء مرسومة بشكل سيء تمتد على طول أحد الجدران. يمكننا أن نقرأ عبارة "Go Cavaliers" – أعضاء

فريق هوكي الجليد في مدرستنا الثانوية – و *MotherFuckers*.

"حان وقت الغداء"، قلت. عندما وصلنا إلى الباحة – التي لم تتناثر فيها أوراق الأشجار فحسب، وإنما شظايا وقطع زجاج وألواح من السقف، وعلب بيرة وسجائر مسحوقة أيضًا – تهاويت على أعلى درجة، البيت ورائي والغابة الخضراء أمامي. فتحت حقيبة الظهر فوق حافة الصخرة المتفحمة. ومددت منشفة الصحون التي جلبتها من مطبخ أمّي النظيف، وصففت فوقها أصناف الطعام، الواحدة بعد الأخرى: شرائح الخيار والجزر؛ البيض المسلوق مع أكياس الملح الصغيرة المغلقة المسروقة من بعض المطاعم؛ والسندويتشات الملفوفة في ورق القصدير، وقنينة شراب الليمون، والشاي المبّرد، لكن قطع الثلج كانت قد ذابت خلال سيرنا لمسافة طويلة.

عندما بدأنا نأكل، راحت كايسي تتجول في أرجاء الشرفة، تنظر من النوافذ، وهي تمسك بسندويتشها بكلتا يديها بطريقتها المتميّزة، وكان المشهد مضحكًا قليلًا لأن إحدى يديها ملفوفة بالشاش.

ماذا كنا نعرف عن المصحة العقلية؟ ليس كثيرًا. ففي مطلع القرن الماضي بناها تاجر أقمشة يدعى إبينزير أوتيس ليجمع فيها مجموعته الفنية الآسيوية. وكان مصنعه يقع في لويل، وبيته في المدينة يقع في شارع كومنولث أفنيو في بوسطن. أما هذا المكان الذي يقع خارج رويستون، فكان منزله الريفي. ثم خسر ثروته خلال فترة الانهيار الاقتصادي عام 1929، وبيع البيت مع القطع الفنية الموجودة فيه. وحصل متحف بيبودي إسيكس على بعض المزهريات العملاقة

والتماثيل العاجية في شكل تنين، وصناديق مطلية بالمينا يعرض بعضها الآن.

واشترت الولاية أخيرًا البيت بسعر منخفض - أين هم أحفاد أوتيس اليوم؟ يعيشون في شقق خاصّة في ضواحي غلوستر؟ - وبعد أن ظل فارغًا لبضع سنوات، حوّلوه إلى مصحة عقلية للنساء، بونيبروك. أظن أنه كانت توجد ساقية، على أقل تقدير. وكان يضم قرابة خمس وأربعين امرأة في وقت واحد، يشتكين من أمراض مختلفة – اكتئاب، هوس، داء الفصام، إدمان. وبحسب السجلات الرسمية، فقد تحسن حال الكثير منهن وعدن لممارسة حياتهن الطبيعية.

مع مرور الزمن، تغيّرت الآراء وكذلك القوانين. وفي أواخر الثمانينات اعتُبر أنه غير قابل للإصلاح، وفي سنة 1993، أُغلق بونيبروك وأصبح في طي النسيان. وكان مقلع الحجارة يشكل جزءًا من العقار، ثم بيع إلى مجموعة من التجار لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق حول مصيره - لتحويله إلى شقق سكنية، أو تجديده وجعله فندقًا كبيرًا. وأشيع أنه كانت هناك دعوى قضائية. ثم أُقفل المكان وظل فارغًا لفترة أطول من الحياة التي عشتها.

تخيّلت المبنى مثقلًا بأحزان النساء اللاتي حُبسن فيه، المراهقات المصابات بفقدان الشهية، والأمهات الشابات اللاتي كان يتهيأ لهن أنهن يسمعن أصواتًا، والنساء المسنّات اللاتي حطمتهن المآسي التي تعرضن لها ولم يعد بالإمكان شفاؤهن. لم أشاهدهن – فلم تكن هناك كتلة مرئية من الأشباح تنظر إلينا من النوافذ المجوفة - لكنّي لم أتمالك نفسي من أن أشعر بأنّهن تركن آثارهن على الأرض.

لم تكن كايسي تشعر هكذا – بل على العكس تمامًا. فلم

تكن تهدأ. ورحت أسير وراءها نجوب المكان، ثم تسلّقت سلم نجاة مقلقل، نحاول تحريك إطارات النوافذ عند كلّ طابق نصل إليه.

عندما وصلنا إلى واجهة البيت، بممرّه الدائري العريض وإسطبلاته المتداعية على أحد جانبيه، أحصت كايسي عدد المداخل – ستّ نوافذ في الطابق الأرضي، وثلاثة أبواب مرئية – وقسّمتها بيننا. وعندما رحت أشدّ بفتور مقبض باب موصد، سمعت صوت زجاج يتهشم. عندما التفت رأيت كايسي تنحني بفضول، أذنها ملصقة على إحدى النوافذ وقد وضعت كفّها فوق إطار النافذة، وأدخلت ذراعها السليمة عبر لوح الزجاج المهشم كما لو أنها تولّد عجلًا.

"هل أنت مجنونة؟"

لم تلتفت إليّ. كان لسانها ممدودًا بين شفتيها المزمومتين، كما تفعل عادة عندما تكون مركّزة في درس الرياضيات، لكنّها لم تنبس بكلمة واحدة لفترة طويلة، ثم قالت: "سننجح يا جوجو. سأصل إليها". وبعد دقيقة أخرى من المحاولة، قالت: "لم أكسر النافذة، فقد كانت مكسورة من قبل. لم أفعل شيئًا سوى أنني أزلت القطع الزجاجية من على جوانب النافذة".

"قولي ذلك لهيئة المحلفين".

"يا إلهي، ما خطبك؟" مدّت لسانها مرة أخرى، ولوته. ثم عادت إلى صمتها. "ألا ترين أنّ هذا قد يصبح ملكًا لنا؟ عالمنا نحن، العالم الحقيقي، الذي وجدناه، وصنعناه نحن، وحافظنا عليه؟ سرّنا الحقيقي؟"

عندما قالت ذلك، فهمتُ فجأة. فقد أصبح البيت الضخم يبدو مختلفًا. فلم يعد بيت الأحزان، أو مكانًا يلوذ إليه أفراد فريق

الهوكي الثملين من المدرسة الثانوية، أو مكانًا سيئًا محتملًا يلوذ إليه الهاربون من سجن الإصلاحية الذي يقع على الطريق العام. أستطيع أن أرى ذلك: بونيبروك ذلك المكان السحري الذي يمكننا أن نخترعه، كلانا، ويصبح لنا، كما كنّا نفكّر به قبل أن أراه، مسرحًا نمارس فيه أجمل مغامراتنا المتخيّلة. كما نرى الشمس اللاهبة ونسمع أزيز صراصير الحقل، ومثل الأزهار البرية البراقة، بدلًا من أن تكون خطرًا مستطيرًا. كما لو كانت لدينا المقدرة – أنا وكايسي، كلانا، في الثانية عشرة من عمرنا – أن نفعل أيّ شيء ليصبح كما نريد أن يكون.

قلت لها: "دعيني أحاول. فذراعي أطول من ذراعك". نظرت كايسي إليّ، تكاد البسمة ترتسم على شفتيها، لكنها لم تبتسم، بل كانت نظرة تشبه نظرة موناليزا. سحبت ذراعها السليمة، حريصة على ألاّ تلمس أي قطعة زجاج ناتئة، واعتدلت في وقفتها ثم سارت مبتعدة، تسحق الزجاج المكسور فوق الحصى تحت قدميها وهي تمشي.

أخذتُ مكان كايسي وثنيت نفسي مثل قصاصة ورق أورغامي غريبة، أضغط بخدّي على لوح زجاج سليم ثم مددت رقبتي على طول ضلع النافذة، وذراعي اليسرى، ذراعي التي أكتب بها – التي كنت أقول لنفسي دائمًا، بشيء من الشعور بالذنب، ذراعي الأفضل – ممدودة، تتلوّى حتى تصل.

أحسست بالهواء داخل البيت باردًا ونقيًا أكثر على بشرتي. وصلت يدي إلى القفل، لكنّي لم أستطع أن أرفع يدي إلى الأعلى بما يكفي لأحركّه من جهة إلى أخرى.

بدأت كايسي تضحك.

"ماذا؟"

"هل كنت أبدو هكذا؟" ولوت وجهها مثل مجنونة.

"إنه صعب".

"ليس من الضروري أن تقولي لي ذلك". ضحكت مرة أخرى، خفيفة بعظامها التي تشبه عظام الطير كما الريح على العشب.

"لا جدوى من ذلك". تركت قطرات من العرق أثرًا على النافذة عندما رجعت إلى الوراء.

"سنفعلها"، قالت كايسي، "سندخل".

نظرت من خلال النافذة. كنا نقف خارج غرفة استراحة كبيرة، وكانت هناك قوالب جميلة تزيّن السقف وحاجز خشبي يصل ارتفاعه إلى الخصر. وكان الجص يتقشّر ويتساقط، وفي بقع أخرى نما عفن، ورسمت على امتداد الجدران أزهار عملاقة. وكُدِّس اثنا عشر كرسيًا قابلًا للطيّ في صفوف إزاء الجدار على الجانب الآخر، وكُوِّمت علب طلاء قديمة صدئة بجانب باب دوار. وفي الظلام كان الهواء مضببًا بالغبار، وقد تناثرت أشياء محطمة على الأرضية – التي كانت ذات يوم أرضية خشبية أنيقة، من ذلك النوع الذي قد تجده في صالات الرقص – وفتات من الجصّ وقناني بلاستيكية وما بدا أنه طبقة جافة من الطين. وتتدلّى من السقف ثريتان، قبيحتا المنظر، ثقيلتان لا بد أنه تم شراؤهما بثمن رخيص لتحلّا محلّ الثريتين اللتين كانتا موجودتين أصلًا في البيت. ومنضدة مائدة مفتوحة تمتد على طول الحائط في الجانب الآخر بجانب الكراسي: صالة الطعام.

كوّرت يدي حول عيني على النافذة، وكدتُ أرى الغرفة الرئيسة المليئة بأكداس من الصواني الرطبة المصنوعة من الخشب الصناعي، وفتيات مفتولات الشعر بليدات يكدن يكبرنني سنًّا

يصطففن أمام قدور يتصاعد منها البخار مليئة بالفاصولياء المطهية والقرنبيط المنقوع في الماء، صورة مشوهة لمعسكر صيفي، حيث لا تحصل على أيّ قدر من العناية ولا يأتي أحد ليأخذك إلى البيت.

واستطعت أن أرى أيضًا الأرضية الخشبية تلمع تحت ثريات الكريستال التي كانت ذات يوم معلّقة من قوالب مزخرفة مضيئة كالشمس، والشمعدانات الجدارية التي تومض على امتداد الجدران، هذا الضوء الخفيف الوامض الذي يضيء، مرة أخرى، وجوه الفتيات – والفتيان – الذين لا يكبرونني في السنّ كثيرًا، لكن في حياة مختلفة، حياة مليئة بالحليّ المتلألئة والفساتين المخملية، والشبان يرتدون سترات العشاء، ويجلس أفراد فرقة جاز في الزاوية اليمنى في الغرفة الخلفية، حيث، يمكنني أن أقسم، بأن منصة قد نُصبت من أجلهم فقط. وبدلًا من منضدة المائدة المفتوحة المحاطة بألواح بلاستيكية وعليها مصابيح حمراء للتدفئة، توجد طاولات مغطاة بمفارش عليها أوعية فضّية مليئة بشراب البنش، وأهرامات من كعك البتي فور وشوكولاتة الفراولة، ويقف وراء كل ذلك صفّ هادئ من الشبان والشابات في بدلات رسمية غامقة - الندل الذي يهبّون لتلبية كلّ نزوة من نزوات شباب وشابات نورث شور الذين يكسوهم الذهب.

غرفة مهجورة كبيرة فقط، تكاد تكون فارغة، لكن مثل كايسي، فهمتُ الآن أنّ علينا أن ندخل. اقترحت أن نكسر لوح زجاج النافذة الذي يعلو لوح الزجاج المكسور. وهذا ما سيضع مزلاج النافذة بقوة بين أصابعي.

كنّا نعرف أنّنا نجتاز الخطّ. وقد يتجاوز ذلك بكثير محاولة تدخين سيجارة مخدر مع ديفون ماسينتير في المقبرة أثناء حفلة لونا

احتفالًا بانتهاء السنة الدراسية في شهر يونيه؛ أو قيام كايسي بسرقة عشرين دولارًا من محفظة أمّها لتشتري كيسًا كبيرًا فيه حلويات سكيتلس وجرعات كبيرة من الكوك في سينما ملتي بلكس، عندما لم تسمح لنا بيف بالذهاب. فهذا مخالف للقانون: لأن لافتة معلقة على البوابة في الطريق تقول: ممنوع التجاوز: ستتم مقاضاة المخالفين، ونحن نفعل ذلك الآن، ولم ندخل فقط وإنما كسرنا ودخلنا أيضًا. لكنّ ما فعلناه بدا أمرًا ضروريًا، كما لو أنه لم يكن لدينا خيار آخر.

طلبتُ من كايسي أن تقف بعيدًا في الخلف عندما رحت أكسرت زجاج النافذة، لأنني لم أشأ أن تتطاير أيّ شظية من الزجاج وتصيبها، أو تدخل في ضمادها. وقفت جانبًا بتلك النظرة الأخروية التي ارتسمت على وجهها عندما كنا نعبر الحقل. نظرة، إذا أردت، قدرية.

عندما دخلنا من خلال النافذة المفتوحة، أطلقت كايسي صيحة – ذلك النوع من صيحات الاختبار التي تكون أعلى في نهايتها، وتردّد صداها في أرجاء الغرفة الفارغة. ثمّ راحت تدور حول نفسها، ذراعاها ممدودتان، مخلّفة آثار دورانها على الأرضية المتربة، لا تتوقف عن الصياح. أثرتُ جلبة حول الجرح الذي أحدثته شظية زجاج على مرفقي – لم يكن جرحًا عميقًا، لكنّي عصرتُ منه نهيرًا صغيرًا من الدم، ومسحته بإصبعي ومصصته. كانت أمّي تقول لي دائمًا إذا لم يكن لديك مطهر، فعليك أن تحرصي على أن ينزف الجرح بشكل نظيف، ليغسل الجراثيم. وهذا ما فعلته أول كل شيء.

دفعنا الباب الدوار لنفتش المطابخ: غرفتان مستطيلتان كبيرتان مكسوتان من بدايتهما حتى نهايتهما، بأرضية شطرنجية بالأسود والأبيض كما هي الأرضية في بيتي، لكنه يبعد أميالًا عديدة، مثل شيء خارج من قصة أليس في بلاد العجائب؛ وصفوف من النضد الحديدية المقاومة للصدأ بهت لونها وخشن سطحها بسبب الأوساخ التي تراكمت عليها خلال تلك السنوات. جربّت كايسي الحنفيات الموجودة فوق إحدى تلك المغاسل، لكن لم تخرج منها نقطة ماء واحدة، وهو شيء جيّد، لأنه لو تدفق منها الماء لزالت شبكة العنكبوت المتشابكة التي تغطي المغسلة نفسها. فتحنا بعض أبواب الخزائن – ليست معدنية بل مكسوة بالخشب، أو أنها كانت مكسوة بالخشب ذات يوم، وعندما تركناها مفتوحة، تدلّت الأبواب وترنحت فوق مفصلاتها كأنها سكارى – لكننا لم نجد شيئًا سوى فراشي دهان متيبسة وقنينة كوك بلاستيكية قديمة فارغة سعة غالون.

"كان يوجد أشخاص هنا"، قالت كايسي وأشارت إلى بعض حلقات الغبار الدبقة فوق أحد النضد، "قبلنا".

"ليس منذ فترة طويلة".

"أتظنين أن قنينة الكوك موجودة هنا منذ أن نقلوا كلّ شيء إلى الخارج، قبل عشرين سنة؟ أم من السنة الماضية، عندما، لنقل، كان ديلويس رانيون مختبئًا هنا؟" وديلويس رانيون طالب في المدرسة الثانوية من ووستر، اشتُهر لأنه ضرب معلّم الرياضيات، وكذلك مدرب الهوكي، وهرب قبل أن تقبض عليه الشرطة. وظل متواريًا عن الأنظار طوال اثنتين وسبعين ساعة ثم سلّم نفسه. لم يعرف أحد أين اختبأ بالتحديد، أم أنهم لم يفصحوا عن ذلك. لكنّه لم يكن في بونيبروك

– فقد كنّا بعيدين كثيرًا عن ووستر. يرجح أنه اختبأ في كراج بيت صديقته.

"السنة الماضية؟ أشكّ في ذلك. لكن ربما ليس منذ عشرين سنة. تذكّري السلاسل على الأبواب في الخلف؟ فهي أحدث من هذه. لذلك، ربما كانت لديهم مشكلة مع أشخاص كانوا يأتون منذ مدة، لنقل خمس أو عشر سنوات، وأوصدوها بالأقفال".

فكّرنا أنا وكايسي بالعدد المجنون للأيام التي مكث فيها هذا المبنى خاويًا، كيف في أي يوم منها - أيام يزيد عددها بكثير على عدد الأيام التي عاشتها كل واحدة منا، لكن ليس بعدد الأيام التي عشناها مجتمعتين - ففي هذا البيت أيّ شيء يمكن أن يكون قد حدث – والأغرب من كلّ شيء، كيف أنه في معظم تلك الأيام، حتى كلّ تلك الأيام تقريبًا، لم يحدث شيء. لا بد أن فتيانًا مثلنا كانوا قد اقتحموا هذا المكان، وجاؤوا ليشربوا في الفناء، وربما أمضى أحد المجانين ليلة هنا. بل حتى عدة ليال. تخيّلي أن أحدًا قد عاش في بونيبروك لمدّة شهر: هذا يعني أكثر من سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرًا، أي أكثر من ستّة آلاف يوم وليلة من الصمت المطبق، كان ذات يوم مسكنًا يقيم فيه بشر ولم يعد مأهولًا الآن، وأصبح موئلًا للعناكب والسناجب والطيور، التي ربما كانت تأتي بالصدفة. إنه يغمرك، كما تغمرك سماء الليل عندما تستلقين على ظهرك فوق العشب وتحدّقين فيها، في جميع نقاط الضوء الصغيرة جدًا، وتتخيّلين المسافات التي لا يمكن تخيّلها بين تلك النجوم والأرض، وما هي المدة التي استغرقها الضوء حتى يصل إلى عينيك، فترة طويلة جدًا يمكن أن يكون النجم الذي بعث ذلك الضوء، في الواقع، قد تلاشى منذ أمد بعيد.

"أصوّت لأن نصعد ونلقي نظرة على الطابق العلوي أولًا"، قالت كايسي.

عند المدخل الأمامي، نظرنا إلى أعلى الدرج عند النافذة الزجاجية الكبيرة المزدانة بتلك الزنابق الموجودة داخل المزهرية وتلك الخطوط المزخرفة القرمزية المتشابكة، ولم تكن إلاّ بضعة ألواح زجاجية مكسورة، وقد تناثرت شظاياها اللامعة فوق الأرضية الخشبية. وكان أحدهم قد اقتلع الألواح الخشبية، وترك فجوات تحت الأقدام، لكن دعامة الدرابزين عند أسفل الدرج كانت متينة فلم يتمكن منها اللصوص – كان يبلغ حجم قمتها المحفورة بحجم رأسي، التي كانت ذات يوم كرة مصقولة عظيمة مزخرفة بالأزهار والكرمة، ويمتد خط الكرمة على امتداد الدرج وعلى طول الدرابزين أيضًا.

"ألا تستطيعين أن تري السيدات الأنيقات وهن يهبطن الدرج؟" همست كايسي في أذني، "وهن يرتدين فساتين السهرة؟"

"طبعًا أستطيع"، قلت، وكان هذا صحيحًا، "وخلفهن تمامًا، هل ترين الفتيات المجنونات في جلابيب زرقاء، وشعرهن مرفوع إلى الأعلى، وعيونهن البرّية الجاحظة؟ هل ترينهن أيضًا؟" فأطلقت ضحكة مجلجلة دوّت في أرجاء الدرج، ضحكة امرأة مجنونة شرّيرة. "هكذا كنّ يضحكن ويحدثن ضوضاء – هل يمكنك أن تسمعينها؟ ضحكة مجلجلة شرّيرة".

"لا تفعلي ذلك"، قالت كايسي وضغطت على ذراعي. نظرنا إلى أعلى الدرج إلى ذرات الغبار وهي تتحرك في عمود من الشمس عبر بئر الدرج. كان بإمكاننا أن نشعر بهن معنا – كنت أعرف أنّها تشعر كما

أشعر، وأنهن أخواتنا أيضًا. "لا تفعلي ذلك".

من خلال وجودي في وسط هذا المكان الخرب مع كايسي – انتابني إحساس خاص لم أشعر به في أي مكان آخر. وإذا اعتراني مرة أخرى، فإني سأميّزه، مثل رائحة فُقدت منذ زمن بعيد، وفي بعد ظهر ذلك اليوم، وفي الأيام التي ستعقبها، فإنها ستعود إليّ، بكامل كثافتها العميقة. وأصبحت بونيبروك على الفور أكثر التجارب غير المحتملة، المشرقة في حياتنا حتى ذلك الحين، ومثل حلم - حلم، بشكل أعجوبي، حلمنا، أنا وكايسي معًا، ولمسنا وسمعنا، وشعرنا معًا. أصبحت المصحة العقلية مظلمة بالآثار التي خلفها ماضيها؛ ومن صمتها أصبحت أكثر إثارة، بل حتى مخيفة، لكنها أضحت أكثر أمانًا أيضًا بسبب مشاركتنا لها. إن وجودي في بونيبروك، أشبه بوجودي في داخل رأس كايسي وفي رأسي، كأننا نملك عقلًا واحدًا ونستطيع أن نطوف حدودها معًا، نختلق قصصًا، ونجعل أنفسنا كما نريد أن تكون.

استغرقنا قرابة نصف ساعة حتى نعود إلى موقف السيارات التابع لمقلع الحجارة. كنا نغذّ الخطى، وتفصد العرق منّا مرة أخرى. ولم يكن السيّد والسيّدة كيرشباومس موجودين في أي مكان، وكان الوقت مبكرًا لمجيء السابحين بعد انتهاء أعمالهم. كان الصمت يخيّم على مقلع الحجارة مثل صحن، الماء أسود في الظّل. اقترحتُ مرة أخرى أن نسبح، ومع أن كايسي لن تسبح – لأنها يجب ألاّ تبلل يدها المصابة بالماء؟ - فقد وافقت على أن تنتظرني على مضض، ودعتني

أغوص لدقيقة واحدة فقط.

خلعت ثيابي وبقيت بسروالي الداخلي وحمالة صدري – التي أحبّها كثيرًا، المنقطة باللونين الأخضر والبني – وقفزت من فوق الصخرة إلى الماء بدون أي تردد. وفاجأتني برودة الماء اللطيفة على جسدي. كانت بمثابة صدمة، ووخزتني ضربات يدي السريعة في الماء وجعلت أعصابي ترتعش كأنها تطلق شرارات.

غطست كايسي قدميها في الماء، ورفعت وجهها إلى السماء وأغمضت عينيها، كما لو أنها تصلّي، وعندما توقّفتُ عن السباحة، ورحت أخوض في الماء، في الضفة البعيدة، ثم نظرت إليها. كانت متوهّجة، هشّة، ضئيلة الحجم، في ضوء آخر عصر ذلك اليوم المبرقش.

بعد ذلك، أصبحنا، أنا وكايسي، نذهب كلّ يوم إلى المصحة. كنا نجهزّ الطعام من أجل رحلتنا، ونجتاز البلدة، ثم نسير عبر الغابة على طول الدرب الأخضر فوق الساقية، ونجتاز معلَم الحجارة المكسو بالطحالب، ونصعد التلّة ومنها نمضي إلى حقل الأزهار، ثم إلى المزرعة. وكان أصعب شيء عليّ هو أنني لم أكن أخبر أمّي بذلك. فلم أكن أفعل شيئًا غير عادي وأبقيت ذلك سرًا. فقد كنت قد أخبرتها عندما حاول جايك برينير أن يقبّلني ويضغط بجسده على جسدي عندما كنا نرقص معًا في حفلة هيستر لي عندما كنت في الصفّ السادس. وأخبرتها عندما جلب أندرو دراي لكايسي قطعة حشيش في مخيم جمعية شباب الكنيسة. وأخبرتها عن تعلقي ببيتر أوندل تلك السنة. كانت تعرف كيف تقول الشيء المناسب ولم تكن تلحّ في

السؤال، وكانت تنتظر حتى أشعر بالرغبة في أن أتكلّم وتدعني أوضح لها الأمور التي تهمني دون أن تصدر أحكامًا.

ولم يكن ذلك صعبًا على كايسي التي لم تكن تخبر أمّها بشيء. فلم تكن بيف بورنيس محل ثقة. فهي امرأة مزاجية غريبة الأطوار على الرغم من ابتسامتها الدائمة، وحتى عندما كان يبدو أنها تتقبل شيئًا، فإن ذلك لا يعني أنها ستتقبل ذلك الشيء دائمًا، فقد تلقيه في وجه كايسي بعد عدة أسابيع أو حتى بعد شهور، أو تتحدّث عنه كما لو أنه ليس شيئًا مهمًا. فتعلّمت كايسي بصعوبة ألاّ تثق بأمّها.

كنا نجازف كلّ يوم ونصعد الدرج الضخم المفضي إلى الممرات والدهاليز الطويلة التي تحفّها من جانبيها غرف تكاد تكون متشابهة، لا تزال الستائر المعدنية الممزّقة فيها تتدلّى من النوافذ المتصدّعة والملطخة بالأوساخ، أو التي اكتست فيها المغاسل المدلّاة من الجدران بطبقة من الوحل الأسود، ولم تعد صنابيرها ذات فائدة. ولا يزال في عدد قليل من الحجرات الصغيرة التي تشبه الزنازين هياكل أسرّة معدنية، نُزعت عنها المفارش منذ مدة طويلة، ألواحها تشبه مفاتيح مكسورة، وقوائمها مثنية، وقد علاها الصدأ وأصبحت نوعًا من الأعمال الفنية من عصر الديناصورات. وكنا نُعجب عندما نرى عفنًا لامعًا على جدار إحدى غرف النوم – برتقالي، أو بلون البطيخ الأحمر، أو بلون الليمون الأخضر - حيث تشجّع الرطوبة المتسرّبة على نشوء شكل جديد من الحياة. أردنا أن نلتقط صورًا – يستطيع هاتفي الخلوي الجديد، هدية عيد ميلادي، أن يلتقط صورًا جيدة - لكنّنا

كنا نعرف أكثر.

"يجب ألاّ نترك دليلًا"، قلت لها محذّرة ونحن نحدق في العفن الفطري الذي تشكّل في هيئة أزهار، وأمسكت كايسي بحقيبة ظهري لتريني أنها تريد أن تخرج منها هاتفي. "لا نستطيع أن نترك أيّ دليل، في أي مكان".

توقّفت، رمشت بعينيها، تهمّ بأن تحتجّ، ثم هزّت رأسها. "يجب ألاّ نترك أي دليل"، ردت بجدية، ثمّ ضحكت. "لا غرو أنك تحصلين على علامات ممتازة في جميع المواد، يا جوجو، صديقتي. فالفتاة تفكّر بالمستقبل". فإذا وجدت أمّي صور المصحة في هاتفي، فلن تسمح لي بالخروج لأسابيع. يجب أن نتصرف وفق الطريقة القديمة. الطريقة التي كانت سائدة منذ قرون قبل زمننا: يجب ألاّ يعرف أحد.

استكشفنا ما يُعرف بجناح "الحجز أو الحبس" – الذي سميناه جناح الانفرادي - الجناح الذي يمتد فوق غرفة الطعام، خلف بابين معدنيين قويين لم يعد بالإمكان إغلاقهما جيدًا، ويوجد لكل غرفة على امتداد الممر بابها الخاص المدعم وفيه نافذة انزلاقية صغيرة، كما في السجن، وفي داخل كلّ غرفة نوم، كانت النوافذ صغيرة وعالية وعليها قضبان حديدية، ووراء القضبان، يوجد شبك سلكي معدني داخل الزجاج.

"كانوا يضعون المجانين الحقيقيين هنا"، قالت كايسي.

"إلى أي درجة يجب أن يكون المرء مجنونًا، أتساءل. أيّ نوع من الجنون؟"

"وإذا كان هناك هذا العدد من المصابين بهذا الضرب من

الجنون حتى يملؤوا كلّ هذه الحجرات"، - فهناك خمس عشرة حجرة على طول هذا الممر المهجور - "فإلى أين ذهبوا إذن؟"

لا أعرف. فخلال عشرين سنة، لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا جميعًا - لكن حتى لو ماتوا، فلم يقلّ عدد المجانين في العالم. لأن مجانين جدد سيحلّون محل جيل المجانين الذين ماتوا، وهكذا يستمرون مثل المدّ. إلاّ إذا لم يكن الأفراد هم الذين تغيّروا، وإنما المجتمع نفسه: فقد غيّروا القوانين، وأغلقوا المصحات العقلية، وبغتة، لم يعد المجانين مجانين. ربما عندما تغيّر المجتمع، قرّر، بطريقة ما، أنهم لم يكونوا مجانين قط؛ وإنما وضعوا في هذه الفئة بالخطأ.

كيف سيكون شعورك لو أنك احتُجزت في إحدى تلك الحجرات طوال أسابيع أو شهور أو حتى سنوات، ثم تبين أنك لم تكوني مجنونة، وبنفس السهولة - لو كان العالم مختلفًا قليلًا – كنت ستمضين هذا الوقت في غرفة نومك في بيتك؟

هذا يعني أنه لا يمكن أن تكوني متيقنة من الأشياء التي من حولك. لذلك من الأفضل أن تؤمني بأن الأشخاص العقلاء هم عقلاء، وأن المجانين هم مجانين، ويمكنك أن تضعي هذين النوعين من البشر على طرفين متقابلين من الجدار، وتبقيهم منفصلين. وإلاّ فإلى أين ذهب هؤلاء المجانين؟ إلى أين ذهبوا؟ هل كانوا يعيشون بيننا؟ هل كانوا نحن؟

المطابخ، المخازن، غرف الطعام، غرف النوم، غرف الجلوس، الحمّامات - تلك الصفوف من مقصورات الدوش المفتوحة

الكئيبة، ببلاطها الأحمر الداكن الملوّث ورؤوس الدوش الملتوية مثل عيون سيكلوبس – القاعات التي يتردد الصدى فيها، غرف العاملين التي تتوفر فيها أسباب راحة أكثر، بشكل ما، من باقي الحجرات حتى بعد مضي عشرين عامًا تقريبًا على هذا التعفن والبلى، غرف لا يزال العفن ينمو فيها، والرفوف داخل الجدران والخشب الأصلي للقصر، لا تزال الأرضيات مكسوة بالخشب وغير مبلطة - كلّ هذه الزوايا التي رأيناها معًا، نصيح أحيانًا بصوت مرتفع لنخفي خوفنا، وفي بعض الأحيان، تمسك إحدانا ذراع الأخرى ونمشي على أطراف أصابعنا، كما يحدث عندما سمعنا السنجاب يأكل وظننا أنه شخص، أو شبح شخص.

أنا وكايسي، واجهنا معًا المصحة العقلية وخوفنا منها. وبعد ظهر اليوم الثالث، أصبحت تبدو مألوفة بالنسبة لنا، ورحنا نركض في الممرات، أقدامنا تخبط على الأرض، ونضحك وتنادي إحدانا الأخرى، بل حتى كنّا نفترق عن بعضنا – أصبح بوسعنا أن نفعل ذلك، وقد فعلنا ذلك، في عصر اليوم الثالث ذاك، نلعب، كما كنا قد خطّطنا في البداية، وتظاهرت بأنها السيّدة الشابّة، صاحبة القصر، وأنا الشاب الذي يخطب ودّها ويتودد إليها، ثم توارت في الطابق العلوي ورحت ألاحقها بشهامة وأردد على مسامعها أبياتًا من الشعر، عازب مؤهّل يتودد إليها، حتى تدنو بخفر وخجل وتنحني فوق الدرابزين، فأغويها بعباراتي اللطيفة حتى تأتي إلى الرواق. أو في مرة أخرى: كنت مصابة بمرض نفسي، وفقدت عقلي تمامًا، لا أستطيع أن أتذكّر من أنا، أو من أين أتيت، منسلخة عن نفسي، حبيسة في الغرفة 7 في جناح العزل الانفرادي (حيث، كما خيّل إليّ، كنتُ أمثّل ذلك الدور بطريقة

مقنعة) تكوّرت على الأرض في شكل كرة ورحت أرتعش وأهتز وأولول بصوت مرتفع حتى تعثر عليّ كايسي، منطلقة من الرواق في نسخة متقنة من لعبة الغميضة، وعندما وجدتني، أصبحت أختي التي فقدتني منذ زمن طويل، فجلست بجانبي وأمسكت بيدي، وبغناء أغانينا المفضّلة أعادتني إلى نفسي، وذكّرتني بذكرياتنا المشتركة في طفولتنا وبكلبتنا، وبشيبا، وبوالدينا، وبعملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذين قُتلوا بطريقة مأساوية في المهمّة التي كانوا على وشك أن يقضوا عليّ فيها، والتي سلبت الصدمة التي أحدثها ذلك ذاكرتي تمامًا، وتركتني أطوف وحيدة وأهذي فوق طوافة قبالة ساحل ماين، فوصلت إلى هذا المكان في بونيبروك، الذي لا يبعد سوى بضعة أميال عن بيت طفولتي المحبوب، الذي ستعيدني إليه كايسي الآن بسلامة.

كنا قد درسنا الأساطير اليونانية في المدرسة في تلك السنة، لذلك كنا نعرف الأساسيات، وقد مثّلنا بعضها أيضًا. فقد كانت تقوم بدور جوكاستا؛ وأقوم أنا بدور أوديب. ثم أقوم بدور أغاممنون؛ وهي بدور كليتيمنيسترا. هي هرقل وأنا ديانيراي.

وجاء الوقت الذي أحسسنا فيه بأننا حرّتان، نركض ونصيح كما لو كان المكان قد أصبح ملكًا لنا. لذلك كنّا محظوظتين لأننا كنّا في ردهات المصحة عندما ركن رودي شاحنته الصغيرة عند المدخل في وقت مبكّر من بعد ظهر أحد الأيام، وكانت بيسي تقعي في مؤخرة الشاحنة، قائمتاها الأماميتان مرفوعتين تسندهما إلى أحد الجانبين، وأنفها إلى الأعلى تتشمم الريح، وتنبح. نبّهنا نباحها. فنهضنا ووقفنا ونظرنا من كلا جانبي النافذة في الغرفة التي اخترناها (رقم 7 التي توجد فيها مغسلة سوداء عديمة الفائدة التي كدّسنا فيها أزهارًا برية كنا قد

قطفناها من الحقل)، نظرنا إلى الأسفل ورأينا قمة رأسيهما. لقد عرفت بيسي بأنّنا موجودتان هنا. بل لعلها عرفت مكاننا. ويمكنني أن أقسم بأنّها شنّفت أذنيها ورفعت عينيها، ورمقتني، ثم توقّفت لوهلة في خضم نباحها المجنون. لكن رودي كان كسولًا، أو متعبًا – فقد كان الهواء حارًا جدًا ورطبًا – ولم يفعل شيئًا سوى أن أغلق زجاج النافذة حتى تسمعه بيسي يصيح بها ويطلب منها "أن تخرس": "فلا أحد يهتمّ بسناجيبك اللعينة".

بالإضافة إلى صياحه وإلى نباح بيسي، سمعنا أيضًا هدير موسيقى الثمانينات - بروس سبرينغتين، ربما؟ موسيقى كان أبي يحبّها – وعرفت أن رودي كان يعيش آنذاك في عالمه الخاص، لا في العالم الحقيقي، فربما كان يتخيّل بأنه ما زال شابًا وأسنانه كلها لا تزال تملأ فمه، عندما كان يأخذ فتاة في جولة، ربما، إن كان قد فعل ذلك يومًا بالفعل، وتلك الموسيقى نفسها تصدح. وبما أنه كان يستطيع أن يرى الفتاة، ويرى نفسه الشابة، ويستمع إلى شبابه في ذاك اللحن، لذلك لم يكن يرى الخراب والفضلات المتناثرة أمام عينيه في الواقع.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بقينا نرتجف لمدة طويلة حتى بعد أن غادر واختفى مثيرًا وراءه سحابة من التراب من تحت الحصى، ولم تتوقف بيسي عن النباح في الخلف. بعد ذلك، توقّفنا عن الصياح ولم نعد نحدث أي ضجة. فإذا كان بإمكان رودي أن يظهر فجأة – لم نسمع صوت قدومه – فبوسع أي شخص آخر أن يأتي أيضًا. وشيئًا فشيئًا، بدأت أشباح النزيلات السابقات والمحكوم عليهم الذين هربوا من السجن والأشرار أعضاء فريق هوكي كافاليير يعودون إلى عقولنا. وفي الساعة التالية، عادت بونيبروك وأصبحت مخيفة، كما كانت

عندما جئنا إليها أول مرة. ولم نعد نجد بهجة في الألعاب التي نلعبها، وحزمنا أغراضنا في وقت مبكر لنغادر، مستسلمتين، تتمتم إحدانا للأخرى عن العواصف الرعدية المتوقّع هبوبها في وقت لاحق.

وفي اليوم التالي، يوم الجمعة، هطلت أمطار غزيرة. وأوصلت بيف كايسي بصخبها المعتاد "يجب أن أسرع. عليّ أن أذهب لزيارة آبي بيترسون الذي لن يتمكن من الحصول على إبرة المورفين حتى أذهب إليه. فلم تأت الممرضة الليلية المناوبة، ولم يحصل على الحقنة منذ منتصف الليل. إنه مصاب بسرطان العظم. أيمكنك أن تتخيّلي ذلك؟"

"أفضّل ألاّ أتخيّل ذلك"، أجابت أمّي، وهي تقود كايسي إلى داخل البيت وتدفع بيف إلى خارج الباب. بعد ذلك، قالت على مائدة العشاء: "إذا كانت مستعجلة هكذا، فلماذا نزلت من السيارة أصلًا؟ ألتجلب المطر إلى مدخل بيتنا؟"

ابتسم أبي، مثبتًا قطعة الكينوا والتوت البري على شوكته، وقال: "بيف تحبّ التشاوف. فهي لا تظن أنها فعلت شيئًا إذا لم يكن هناك أحد ليراها".

بدا ذلك صحيحًا، وجعلني أتساءل ما هي السمات الأخرى التي يمكن أن يتسم بها شخص من هذا النوع. جعلني ذلك أتساءل عمّا إذا كنت أنتمي أنا نفسي إلى هذا النوع من الأشخاص: فأنا أحبّ دائمًا أن أتخيّل جمهورًا يراقبني. وعندما دوّنت في مفكرتي، لم أستطع أن أتخيّل أنّ الشخص الوحيد الذي سيقرأها هو أنا؛ لكن الفكرة من كتابة مفكرة هي أن تدوّن الأشياء التي لا تريد أن يطّلع عليها أحد آخر. ربما، كنت أقول لنفسي أحيانًا، إن القارئ الآخر هو ذاتك الأقدم، أنتِ نفسك، التي تغيّرت مع مرور الزمن. وكان هذا يزعجني

أيضًا، لأن ما هي النفس، الشخص، إذا كان من الممكن أن يتغيّر كثيرًا - يتغيّر مثل بناية مهجورة، لنقل؟ على أي شيء يمكن أن نعتمد إذًا، بالإضافة إلى الصخور في مقلع الحجارة؟

لكن عندما وصلت كايسي، وشعرها الذي يكاد يكون أبيض اللون ينسدل على كتفيها من المسافة القصيرة بين سيارة الهوندا والبيت، يدها المضمّدة البيضاء مرفوعة إلى الأعلى، كنت أفكّر إن كان علينا أن نخبز خبز الموز أو كوكيز برقاقات الشوكولاتة، أم أن نشاهد فيلمًا كوميديًا أم فيلمًا بوليسيًا، وهل سننسج لاحقًا أساور صداقتنا أم نكتب مسرحيّة.

في وقت مبكر من صباح يوم الإثنين التالي، اتصلت بنا مارج التي تستطيع أن تجعل من اللطافة أن تبدو كأنها شيئًا جديًا، وقالت إنّها فكّرت بالأمر وأنها تعرف أننا لابدّ نشعر بالأسف حول ما حدث، وإن كنّا نحبّ، أنا وكايسي، أن نعود لنعمل خلال الفترة المتبقية من الشهر لتقديم المساعدة في قسم القطط – القطط فقط، ليكن في علمكما - لأن ذلك قد يمنح الجميع الفرصة لنسيان القصّة الحزينة برمتها. وكانت قد اتصلت بيف وكايسي أولًا، كما اكتشفتُ لاحقًا، ووافقت بيف، ما جعل الأمر أسهل، بل حتى ضروريًا، لكي توافق أمّي أيضًا. وهكذا، بعد ظهر يوم الإثنين، في ذلك اليوم بالتحديد، ارتدينا سترتينا ودخلنا إلى جناح القطط المبرّد الذي يعبق برائحة نتنة في ملجأ الحيوانات، وقفازاتنا حتى مرفقينا، وأحببنا القطط الصغيرة، وقد أخذت كلّ واحدة منّا قطة إلى بيتنا.

من هناك، كرّ الشطر الأخير من الصيف كما يكرّ خيط من بكرة الخيطان. وظللنا نفكّر بالعودة مرة أخرى إلى بونيبروك، لكن كان هناك دائمًا سبب لنحجم عن ذلك. ونزعت كايسي الضماد. وكانت هناك ندبة في يدها لكن يدها شفيت وأصبحت تعمل جيدًا. وعدنا لنسبح في بركة أسرة ساهغافي بمائها الأزرق الاصطناعي كما لو أنّ مقلع الحجارة لم ينادنا قط، أو أنه لم يكن موجودًا قط. ووضعنا خططًا للخريف؛ وعدنا لشراء أغراضنا المدرسية. ونمنا بهدوء وبعمق في أسرّتنا، وواصلنا حياتنا.

بعد أشهر فقط، سمعنا أن العقار قد بيع، وأن المتعهد الذي اشتراه يمارس الضغط في قصر البلدية في بوسطن لبناء شقق خاصّة حول القصر الأصلي. وسمعنا أيضًا أنّ أصحاب العقار الجدد وضعوا سياجًا بأسلاك شائكة، بما في ذلك على الدرب المؤدي إلى الغابة من مقلع الحجارة.

ثمّ، ولأسباب مختلفة، بدأت أيامنا في بونيبروك، حلمنا المشترك، تبدو كأنها لم تحدث قط. وعندما افترقنا، أنا وكايسي، لم يكن هناك أحد ليذكّرنا بأن ما حدث قد حدث في الواقع.

الجزء الثاني

أكدّت لي أمّي أنّ هذا يحدث لكلّ الناس، إن آجلًا أم عاجلًا، لأسباب تكاد تكون مجهولة، وهو أن كلّ واحد منّا يفقد أعزّ صديق له في وقت ما. لا بمعنى أنها "انتقلت إلى تكسون"، وإنما بمعنى أننا "بدأنا نفترق".

أنا، التي أتفاخر بأنني أرى حقيقة الأشياء، لا أستطيع أن أعرف الآن حقيقة ما جرى. فقد كانت لدى كايسي روايتها الخاصة بها من القصة، مع أنّها لم تحكها لي. وعندما، بعد مرور فترة طويلة، سألتها مباشرة ("ماذا جرى لنا؟" هكذا كان سؤالي الذي بدا حياديًا أكثر مما بدا لي) نظرت إليّ مليًا - نظرة يمكنني أن أصفها بأنها نظرة "مجروحة"، مع أنني أنا التي أُسيء إليها، بالتأكيد؟ - فهزّت رأسها هزة طفيفة. وعندما منحتها فرصة لتفسّر الأمر، كان ذلك أفضل شيء بإمكاننا أن نفعله.

بالنسبة للكثيرين، يُعتبر الصفّ السابع مرحلة صعبة. وكان أبي وأمّي يقولان أنها فترة من الحياة لا يريدان أن يعيشانها مرة أخرى، لكن قولهما هذا لم يساعدني كثيرًا لأنه لم يكن لديّ خيار سوى أن أعيش هذه الفترة. لكن ما يلاقيه أحدنا من صعوبات في الصفّ السابع تختلف من واحد إلى آخر. فقد كانت فترة صعبة بالنسبة لزاك فيلكينز، لأنه لم يكن عندهم في المدرسة المتوسطة فصل يدرّس مادة الرياضيات فيه قدر كاف من التحدي، فاضطر لأن ينتقل إلى المدرسة

الثانوية وانضم إلى الطلاب المتقدّمين الجدد. ومن الناحية الأخرى، لم يكن زاك مهتمًا بحضور الحفلة الراقصة التي تقام بمناسبة التخرج من المدرسة المتوسطة، فلم يسأل أحدًا، ولم يفكّر بأنه قد يطرد منها. أما برينت أوكونور – فتى لطيف، لكن بالرغم من أنه كان في الصفّ السابع، لم يكن طوله يتجاوز 152 سنتمترًا – فاضطر إلى ابتلاع المهانة بعد أن رفضت ثلاث فتيات طلبه لمراقصتهن، وكنت أنا واحدة منهن (كان طولي 167 سم - كان ذلك شيئًا مستحيلًا بالنسبة لي). وكان كذلك التحدّي المختلف بعض الشيء لوجود أليسيا هومانس، الفتاة الرابعة التي طلب منها مراقصته، التي قبلت والفرحة بادية على وجهها ورفعت رأسها بشموخ كما لو أنها كانت أول فتاة يختارها.

وهناك الصراعات الاجتماعية، وآلام وإحراجات سنّ المراهقة (فلن أنسى أبدًا ذلك الشعور المختلط بالنصر والشفقة الذي تملكني عندما اندفعت بريجيت مولفاني في الممر، وضفائر شعرها الكستنائي المعروف تتأرجح يمنة ويسرة، وقد ظهرت على تنورتها الغجرية الأرجوانيّة بقعة دم بحجم طبق فنجان بسبب دورتها الشهرية)، وكان ثقل العالم الذي يهبط على كلّ واحدة منّا بدرجات متفاوتة، ونحن نودع أخيرًا سحب مجد الطفولة لكي نعيش، بعد ذلك، في عالمنا الدنيوي.

في الصفّ السابع، أُلقي القبض على روبين لأنه سرق آلة تصوير من محلات وول مارت؛ وتلقى أندرو تحذيرًا من عمّه الذي يعمل في إدارة إنفاذ القانون لتعاطيه المخدرات. وانتشرت إشاعة بأن ستايسي بيليك مارست الجنس الفموي مع ستة صبية في ليلة واحدة في الحفلة التي أقامتها تيسا روبن في أواخر مايو من تلك السنة.

والمشكلة هي أن ستايسي لم تكترث إن كانت هذه الإشاعة صحيحة أم لا، ولم يكن إنكارها بصوت عال مفيدًا، لأن الحقيقة أو الكذب ليسا أكثر أهمية من القصّة الأصلية نفسها: لقد انتقلنا إلى الصفّ السابع فجأة إلى عالم سلوك البالغين وحدس البالغين.

وكان كذلك عالم وعي البالغين، بكلّ الغرابة التي ينطوي عليها. ومثال على ذلك: قصّة أمّي عن كايسي وعني التي تقول إنه مُقدّرٌ لدربينا أن يفترقا دائمًا، وأن كل واحدة منّا ستسير في دربها المرسوم لها. فقد كان مقدرًا لي مثلًا أن أذهب إلى الجامعة عندما أتخرج من المدرسة الثانوية، لأن أبي وأمّي يفترضان أنني يجب أن أدخل إلى الجامعة، لكن أيضًا لأنني أريد ذلك، لأنني كنت ناجحة دائمًا في المدرسة وكنت أتفاخر بذلك، ولم أكن أتخيّل ألاّ أواصل دراستي بعد انتهاء المدرسة الثانوية. وحتى عندما كنت أحلم بأن أصبح نجمة أغانٍ شعبية، كنت أتصوّر أنني سأذهب إلى جامعة نيويورك أو إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس في أثناء الحفلات التي أحييها.

أما والدة كايسي فلم تذهب إلى الجامعة من أجل متعة التعلّم. فقد درست التمريض لاحقًا، وهي في منتصف العشرينات من عمرها، قبل أن تنجب كايسي مباشرة. وكانت قد تركت المدرسة وهي في الثامنة عشرة من عمرها وعملت نادلة في مطعم، ثمّ عملت في محلات ميسيز (Macy's) في قسم بيع القفازات والقبعات، وكان يبدو – أن ذلك يدهشني باستمرار - لأنني كنت أتصوّر أن الذين يعملون في محلات كبيرة يجب أن يكونوا ذوي مظهر جيد وأنيقين.

لم تكن كايسي تلميذة متفوقة في المدرسة، ولم يكن حبّها للمدرسة يدفعها إلى أن تبذل جهدًا كبيرًا. لذلك كان وصولها إلى

الصفّ السابع ينطوي على بعض العواقب. فقد انتقلنا من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة المتوسطة التي تقع على الطريق 29، والتي لا تبعد كثيرًا عن ملجأ الحيوانات. وكانت مدة الدراسة في المدرسة المتوسطة لنا، نحن سكان رويستون، سنتين فقط، بسبب وجود الصفّ السادس في مدرسة رويستون الابتدائية، بينما كان فيها عدد كبير من التلاميذ الآخرين الذين جاؤوا من البلدات المجاورة لها منذ سنة. ويقع مبنى المدرسة، المشيّد من خرسانة رمادية بخلاف مدرستنا الابتدائية المشيّدة وفق الطراز الفيكتوري القديم في وسط البلدة، وسط موقف سيارات واسع يفصل بين مركزيْ تسوّق. وكانت مروجها المكسوة بالعشب الاصطناعي تلمع بلون أخضر زاه في جميع الفصول، لكننا كنا نمضي معظم وقتنا في الممرات والأروقة التي تخلو من النوافذ والتي تحفّها خزائن من كلا الجانبين، نتكدّس فوق بعضنا وتلمع وجوهنا كأنها مدهونة بالزيت تحت أشعة الضوء. وكان الفتيان من بلدات أخرى يبدون أكثر ضخامة وأكبر سنًا من الفتيان الذين نعرفهم. وبينما كنّا نشعر في المدرسة الابتدائية كأننا أفراد عائلة واحدة بهيجة كسولة – فقد كنّا نعرف معظم زملائنا في الصفّ طوال حياتنا – أصبحت تبدو الآن مثل ساحة استعراض، مسرح تُعرض فيه عروض غريبة. وفجأة، لم نعد نشارك في البرامج ذاتها، أو لم يعد يعلّمنا المدرسون ذاتهم، ولم نعد نحضر الصفوف نفسها، وإنما تفرّقنا، حتى لم نعد نصل إلى المدرسة أو نغادرها معًا. وهكذا فرقتّ البيروقراطية بيني وبين كايسي.

وضعوني في صفّ رياضيات متقدّم ولغة إنكليزية متقدّم، وبما أنه لا يوجد صفّ تاريخ متقدّم في المدرسة، أصبحتُ أنا وكايسي في

قسمين مختلفين، وبشكل لا يمكن تفسيره، وضعوا كايسي في الصفّ الذي يوجد فيه تلاميذ مثيرون للشغب، مثل ستايسي بيليك وأندرو دراي، في حين كان في صفي ماي هوانغ وزاك فيلكينز وأنجي بيتس، ابنة السيد بيتس، مدرّس مادة التاريخ في المدرسة الثانوية. وكنت أشارك كايسي صفّ الرياضة والموسيقى. فقد كانت تعزف على الفلوت وكنتُ أعزف على التشيلو. وفي جميع الأحوال، كنا نجلس في جانبين متقابلين من الغرفة. لقد وقع ما كانت أمّي تتوقعه، وربما كانت محقّة في ذلك بعض الشيء. لكنّي لمتُ الفتاة الجديدة، داليا فوسول، التي سرعان ما بدأت أطلق عليها اسم "مورسيل الشرّيرة" بسبب ما حدث.

في البداية كانت كايسي تسخر من داليا وكنا نسخر منها معًا – فقد كان شعرها أشقر يميل إلى البرتقالي تجفّفه بمجفف الشعر، وترتدي حمالة صدر واسعة تنهض بصدرها إلى الأعلى، وتدهن شفتيها بملمّع شفاه براق، وكانت لها طريقة خاصة في اختلاس النظر إلى الصبية من طرف عينها اللوزية الناعسة كما لو كانت صوفيا فيرغارا وهي تمثّل في مسلسل تلفازي لا يراه أحد غيرها.

أما داليا وكايسي فكانتا تحضران دروس التاريخ والرياضيات واللغة الإنكليزية معًا، وفي بداية أكتوبر، بدأتا تلتقيان لتدرسا معًا، وكان ذلك، كما قلت لأمّي، يعني في أغلب الأحيان الذهاب إلى محلات رايت إيد. وحاولت كايسي أن تقول لي إن داليا فتاة لطيفة جدًا – وأنها خفيفة الظّل، قالت إن دمها خفيف، في حين يعرف الجميع أن حسّ هذه الفتاة بالفكاهة يشبه الصخر. وتبيّن بعد ذلك أن داليا تحبّ الغناء، وأنّها تحبّ أيضًا أن تصبح نجمة غناء شعبي، وأنها ستتقدم إلى اختبار التمثيل في المسرحية الموسيقية التي ستقام في الربيع، مع

أنها عندما غنّت في الكافتيريا أغنية أديل، وأبدت كايسي إعجابها بصوتها وكشفت عن تلك الابتسامة التي تبرز أسنانها المتباعدة. كان صوتها رفيعًا يصرّ صريرًا، ذا نبرة مسطحة، ولم تدرك ذلك. ويبدو أن السيد مونتغمري، أستاذ الموسيقى، لم يدرك ذلك أيضًا، لأنه أعطى داليا الجزء المنفرد في الجوقة التي سنؤديها في حفلة العطلة في ديسمبر. ربما لم يكن ينبغي لي أن أقول لكايسي إن مونتغمري كان يريد أن يضاجع داليا فقط، لكني بالرغم من ذلك فقد قلت لها. في الماضي، كانت كايسي توافقني الرأي، أو أنها كانت تضحك على الأقل، أما في خنوعها لداليا، فلم تفعل شيئًا سوى أن عضّت على شفتها وأشاحت بوجهها.

لذلك فوجئت عندما سألت كايسي ماذا سنرتدي في عيد القديسين (هالوين)، وقالت إنها لن تخرج من البيت وتدور من باب إلى آخر وتقول: "خدعة أو حلوى"، بل إنها ستمضي المساء في مشاهدة أفلام رعب في منزل داليا. لكني اكتشفت في ما بعد أن الحفلة كانت تضم فتيانًا وفتيات، لعبوا فيها لعبة "الحقيقة أو التحدي" ولعبة "تدوير القنينة"، وكان فيها فتيان أكبر سنًّا. لقد نجحت مورسيل الشرّيرة في إقناع كايسي للذهاب إلى الحفلة، مع أن كايسي كانت تسخر دائمًا من هذه الحفلات. وكان يوجد في الحفلة، كما عرفت، عشرة أشخاص: خمس فتيات وخمسة فتيان، من بينهم بيتر أوندل الذي كان في السنة الأعلى، والذي بدأت كايسي تواعده منذ تلك الليلة، ثم افترقا قبل عيد الميلاد، مع أنها كانت تعرف أنني كنت أحبّه منذ زمن.

لم أتمالك نفسي عن الشعور بأنها بدأت تخرج مع بيتر أوندل لتجرح مشاعري. فقد دأبت على القول إنها لا تستطيع أن ترى جاذبية في أي شخص. قد تكون داليا الشرّيرة هي التي قالت لها إن أوندل فتى جذاب، وأن ليس للأمر علاقة بي أبدًا، أو ربما يتعلق بقوة مشاعره نحوها؛ لأنه كما قالت كايسي (مع أنني لم أعرف إن كنت سأصدّقها أم لا)، إن بيتر اعترف لها بأنّه يحبّها منذ أن كنا صغارًا. ومهما كان سبب قبولها عندما سألها إن بإمكانه أن يقبّلها، فقد آلمني ذلك كثيرًا. لم نتشاجر آنذاك – فلم أستطع أن أجازف بها – لكنّ إحدانا أصبحت متوترة تجاه الأخرى. لقد عبرنا عبر المرآة إلى عالم الصداقة الزائفة، فقد بدأت كايسي تبتسم لي ابتسامة عريضة كلما رأتني - لكنها ليست كبيرة جدًا، هل ترين؟ مثل ابتسامتها المتهكمة القديمة، فأبادلها الابتسامة أيضًا، مع أنها كانت أشبه بتكشيرة، وكنت على يقين من أن باستطاعة جميع من هم حولنا، خاصة كايسي، أن يرى أنها ابتسامة متكلفة ليست نابعة من القلب. لكنّها لم تكفّ عن ذلك، فقد كانت تبتسم وتبتسم مثل وغد، وأقف أنا، التي أشعر بأنني مثل تمثال صغير مضيء لمريم العذراء بقلب يقطر دمًا، هناك أنزف دمًا، أنزف دمًا لا يراه أحد، وأنا أحمل صينية طعام الغداء، وماي هوانغ تسير بجانبي، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهي.

لقد أُغرمت كايسي بمورسيل الشرّيرة. لو أنني لم أقل شيئًا، لو أنني بذلت جهدًا أكبر – حتى لو صادقت داليا، أو تركت كايسي تصبح صديقة لها – ربما عندئذ؟ لستُ مقتنعة، لكن ربما. لكني عبّرت عن مشاعري بصراحة منذ البداية. لقد أطلقت على الفتاة اسم مورسيل الشرّيرة، بحق الله. ولم يعد بالإمكان التراجع عن ذلك.

في شهر سبتمبر ذاك أحبّت بيف أيضًا. في البدء لم أعرف. بيف الغريبة الأطوار، البدينة، التي تفوح من شعرها العسلي رائحة حلوة، وترتدي تنانير واسعة فضفاضة، والتي يبدو أنها بعيدة كلّ البعد عن الحبّ والرومانسية أكثر من أمّي وأبي، والتي دخلت إلى عالم الحياد الجنسي مثل نينو زيبالا، أستاذ ورشة النجارة بصدريته الجلدية ولحيته التي تعود إلى العصر الفيكتوري- لقد وقعت بيف في حبّ رجل في "فريق دراسة الكتاب المقدّس" الذي تشارك فيه. لقد أحبّت بيف الدكتور أندرز شوت.

بالطبع أتساءل الآن هل التقيا أول مرة في المستشفى في دوفر عندما نُقلت كايسي إلى قسم الإسعاف لإزالة الضماد من ذراعها. لا أذكر أن كايسي قالت إنها رأت الدكتور شوت في ذلك اليوم في أواخر شهر أغسطس ذاك، لكن هذا لا يعني أن ذلك لم يحدث. لأن انضمامه إلى "فريق دراسة الكتاب المقدّس" في ذلك الخريف بدا مصادفة كبيرة جميلة، هكذا، بغتة، على حين غفلة. فقد كانت بيف عضوًا في ذلك الفريق منذ عدة سنوات - مجموعة من الأشخاص تقوم بدراسة وتحليل الكتاب المقدّس مع خوري كنيستهم، فيل، الذي يشكل جزءًا هامًا من حياة بيف، أما كايسي فلم تكن تكترث بكل ذلك بل حتى رفضت أن يكون لها أيّ علاقة بهذه المجموعة التي كانت تعقد مساء كلّ يوم ثلاثاء، وهو الوقت الذي تحضر فيه كايسي مع فريق الشباب على مضض، فقط لوجود شابين وسيمين فيه.

لا أعرف إلى متى استمر ذلك، بالتحديد، قبل أن تدرك كايسي وجود الدكتور شوت في أروقة الكنيسة - يمزج مسحوق البطاطا المهروسة، أو يقلي مقانق في مطبخ الكنيسة، أو يرتّب دائرة

الكراسي القابلة للطيّ ذات المقاعد المنتفخة في قاعة الكنيسة قبل انعقاد الاجتماع. منذ متى تعرف بوجود علاقة بينه وبين أمّها، ومنذ متى أدركت أن أمّها كانت تختلس إليه النظرات، فاستجاب لنظراتها، بالرغم من شحوبه؟ وما رأيكم أنني لم أعرف بذلك إلاّ في عيد الشكر، عندما اتصلت بيف بأمّي تدعونا إلى بيتهما لمشاركتهما في تناول الديك الرومي – لم يحدث ذلك من قبل، مع أنّهما كانتا تزوراننا في بيتنا خلال السنوات الهادئة، كلتاهما؟ فشكرتها أمّي، لكنها قالت لها إن جدي وجدتي لأبي وعمي سيأتون لزيارتنا، فقالت بيف، حسنًا ما رأيك في تناول فطيرة واحتساء القهوة فقط، لأن شخصًا خاصًا سيأتي لزيارتنا وأريد أن أعرفكم عليه. فوافقت أمّي شريطة أن نأتي لتناول فطيرة فقط، مع أنها قالت لي إنها تعرف أننا لا نريد أن نتناول شيئًا لأن جدّتي روبنسن تجيد صنع فطيرة - بالجوز والتوت البري والفراولة والراوند – وأننا سنكون متخمين في الساعة الخامسة.

أحسست أنني خرقاء – كان ذلك قبل أن أعرف أي شيء عن الدكتور شوت. فطوال تلك السنوات، لم يقم أبي بزيارة بيت السيدة بورنيس، أما أمّي فكانت تزورها بين حين وآخر، لتتجاذبا أطراف الحديث أو لاحتساء الشاي عندما كانت تأتي لتأخذني من بيتهم أو لتوصلني إليه. في ذلك الحين، لم نكن، أنا وكايسي، نغادر البيت – "انتظري، وسيتغيّر كلّ ذلك"، كانت أمّي تقول، أو أنها كانت تقول: "آلام النمو! آلام النمو!" كما لو كنّا، عندما سنبلغ مرحلة اكتمال الجسد وامتلاء الثديين ومجيء الحائض وعودة توازن الهورمونات، سنعود، أنا وكايسي، إلى إيقاعات صداقتنا السابقة كما لو لم تكن مورسيل الشرّيرة موجودة. ولم نعد نجلس في الحافلة معًا إلاّ نادرًا،

وإذا جاءت أمّي أو بيف لتأخذانا، كنا نجري إلى السيارة من جهتين مختلفتين من على درج المدرسة، وكانت المرأتان تواصلان حديثهما طوال الطريق إلى البيت. وقد ألمحت ذلك إلى أمّي لكن يبدو أنها لم تكن تصدقني. وبما أنها كانت تترك المذياع مفتوحًا دائمًا، لم يكن يسود صمت حقيقي، وربما لم تكن تعرف ماذا تقول.

بعد انتهاء دوام المدرسة، كانت كايسي تمضي معظم أوقاتها مع بيتر وداليا وصديق داليا، أرتورو، التلميذ في الصفّ الثامن مثل بيتر، موعد ثنائي لشابين جميلين يتعانقان أمام الحائط، بينما أقفُ على الدرج واضعة حقيبتي عند قدميّ وسماعاتي على أذنيّ، أنصت إلى أغانٍ قديمة، أديل أو دوفي، أراقب السيارات، كما لو كنتُ في عجلة من أمري. كان عندي أصدقاء آخرون، لكني فقدتُ الصديقة التي أحبيتها أكثر من أي شخص آخر، الصديقة التي أحببتها بدون تفكير منذ مدة لا أذكر منذ متى، وبدا من الجوهري أن أظهر لها أنني لا أبالي.

(ها هنا شيء آخر لم أفهمه تمامًا: فقد اكتملت معالم جسدي، وكذلك جسد داليا. لكني لم أكن أتباهى بذلك كما فعلت داليا، فقد أصبح لديّ ثديان ووركان، وفي أكتوبر جاءتني أول دورة شهرية أيضًا، بينما كانت كايسي لا تزال تبدو مثل طفلة، ضئيلة الجسم وكلّها عظام، وكانت لا تزال تشتري بناطيلها الجينز من قسم الأطفال. لم أفهم كيف يمكن لبيتر أن يختارها هي، أو يريد أن يقبّلها، ويفضّلها على أيّ فتاة أخرى – وعليّ أنا. هل فمها بأسنانها المتباعدة هو الذي يثيره، أم الإحساس بأنّها ربما لا تقول لا لأيّ شيء مهما كان؟ لكنّ الأمر لم يكن كذلك. فأنا أعرفها حق المعرفة. أعرف ذلك الجزء فيها الذي يريد شخصًا آخر يقول لا بالنيابة عنها،

لينقذها من نفسها – لعل هذا هو الشيء الذي جذبه فيها، يشمّ هذه الحاجة فيها مثل حيوان).

في يوم عيد الهالوين، ذلك اليوم الذي طالما ترقبته، تحوّل فجأة إلى يوم عادي، بل حتى أسوأ من يوم عادي، وذلك لأنه يحمل ذاكرة خصوصيته. كنا لا نزال نزيّن الحديقة الأمامية - أشباح قماش الموسلين تتدلّى من أغصان شجرة القيقب، شبكات العنكبوت الاصطناعية فوق شجيرات هولي البرية، وشواهد القبور المصنوعة من مادة ستيروفوام الرغوية المثبتة بين أكوام أوراق الأشجار – وكان لا يزال أبي يحفر قلب اليقطين ويضعها خارج البيت ويضع فيها الشموع. وكنّا لا نزال نرتاد محلات "سي في إس" لنشتري أكياس شكولا ميني سنيكرز وستار برستس الضخمة ولفائف توتسي. كنّا نفعل تلك الأشياء ذاتها، لكن بدلًا من أن أتسابق مع كايسي في تناول البيتزا وأحرق لساني من حرارة الجبنة الذائبة، ثمّ أشعر بحيوية فأرتدي ثيابي بسرعة وأنا أقهقه في غرفتي، ثم أجلس إلى المائدة في المطبخ مع أبي وأمي ونتناول شرائح لحم الخنزير ببطء، مع البطاطا المهروسة وصلصة التفاح – "نمضغ" هي الكلمة التي تتبادر إلى ذهني – يتخللها، بين الحين والآخر، وقع أقدام على الدرج الأمامي. كنت أؤدي دور أمّي، فأوزّع الحلوى على الأطفال الصغار الذين ينتظرهم آباؤهم في الظلّ عند بداية الشارع، كما كانت أمّي تفعل دائمًا، وأسأل بصوت مرح مصطنع، "ماذا تريد أن تصبح؟ لصًّا! يا لها من بدلة عظيمة" أكذب، "لذلك سأعطيك قطعة حلوى أخرى".

وجاء ابنا جيراننا ساغافي يرتديان زي تووديلدام وتوويدلدي. كانا يرتديان زيًا رائعًا خاطته لهما أمّهما، يتألف من قمصان بيسبول

وقبعات صغيرة وحشوات كثيرة لا يمكن أن تكون مأخوذة من وسادات فقط لأنها كانت موزعة بشكل جيد حول خصريهما. وكانا ينتعلان حذاء أبيهما الذي ربما كان محشوًا أيضًا، فبدت كأنها أقدام مهرّج. رفعت يدي أحيّي السيدة ساغافي التي صاحت قائلة: "ألن تخرجي هذه السنة يا جوليا؟"

هززت رأسي في حيرة مصطنعة، لكنها كانت حقيقية في الواقع: "كلّ الأشياء الجيّدة تنتهي، أليس كذلك؟" فضحكتُ، وهزّت رأسها ردًا على ذلك.

في آخر المساء، ساعدتُ أبي في غسل الأطباق وأخذت عني أمّي مهمة توزيع قطع الحلوى كي لا أتكلّم مع الصبية الأكبر سنًا الذين كنت أعرف معظمهم. وجاءت مجموعة من تلاميذ صفّي، معهم فتاة اسمها ريبا من فريق الهوكي الذي ألعب فيه، ورأوني في البيت وأخذوا ينادون، "جولي، ألم تخرجي بعد؟ هيا تعالي معنا!" فرسمتُ على وجهي تعابير "لا أبالي بذلك" ودنوت من الباب.

"الآن"، قلت، "أظن أن الوقت أصبح متأخرًا".

"لا تكوني مملة هكذا". كانت هناك مجموعة – لا ريبا فقط، وإنما برينت وجويل وسوزان أيضًا، يرتدون زيّ نحلة، بأجنحة نصف شفافة وعلى رؤوسهم عصابة شعر في شكل هوائيات.

"أنا على ما يرام هكذا، يا أصدقائي، كما أنه لا يوجد عندي لباس تنكري".

فانبرى برينت الذي كان يرتدي سترة أبيه الرياضيّة وقبعة، وقال: "لا يهم، تعالي في جميع الأحوال".

ضحكت، لكن كانت هناك دموع وراء ضحكتي. لوّحتُ

بمنشفة الصحون وأدرت ظهري ثمّ قلت: شكرًا لكم، أرجو أن تمضوا وقتًا ممتعًا. سأراكم في المدرسة".

عندما أغلقت أمّي الباب وراءهم، دخلت وتظاهرت بأنها تبحث عن مجلة النيويوركر، لكنها وضعت يدها على كتفي للحظة ولم تقل شيئًا. كان ذلك عندما طفرت دموع من عينيْ، دمعتان فقط. ومن حسن الحظ، كنت أوليها ظهري.

قلت لها: "سأصعد إلى غرفتي لأكتب واجبي المدرسي". كنت قد أنهيت واجبي المدرسي للتو، فرحت أتصفّح الفيسبوك، أتفرّج على الصور التي وضعتها كايسي الآن - في الوقت الحقيقي! – في حفلة مورسيل الشرّيرة: السيدة مورسيل ترفع صينية ممتلئة بقطع الحلوى المزدانة، وبيتر - بيتر الوسيم، الذي كان يجب أن يكون لي – بعينه اليسرى وبعض أسنانه التي اسوّدت، يرتدي بلوزة بروينس واسعة، ويلوّح بعصا هوكي رفيعة غُمست بطلاء أحمر. وكانت داليا ترتدي زيّ أرنب، أرنب من النوع اللعوب - كيف سمحت السيدة فوسول المحترمة بذلك؟ - أما كايسي، بالرغم من شعرها الأبيض الذي يشبه شعر الأرنب، فقد كانت ترتدي زيّ قطّة، في بلوزة مخملية سوداء كاملة بالشعر والأذنين والذيل. فاضطررت لأن أبتسم، لأنني استطعت أن أرى في زيّ كايسي، يد بيف الشديدة الحذر التي لم تعد تسمح لابنتها بأن تخرج مرتدية زيّ أرنب لعوب، فخرجت هكذا بنفسها.

"ثوب جميل!" علّقتُ عليها، "هل خاطته لك بيف؟"

فردّت كايسي برسالة نصيّة، "إنك تعرفين أمّي جيدًا. أليس كذلك؟ ستأتي لتأخذني عند الساعة التاسعة".

"سهرة مدرسية؟"

"تعرفين ذلك".

"آسفة من أجلك".

"أحبك يا جوجو"، كان ردّها. هذا يكفي ليشعرني بالمواساة، كما لو أننا عدنا فجأة وأصبحنا كما كنّا، وقد يثبت ذلك أن أمّي محقّة.

لم تكن تلك المرة الوحيدة التي كانت لطيفة معي. فلم يكن هناك شيء غاضب أو قاس حول ابتعاد إحدانا عن الأخرى، ليس بالنسبة لها. كان ذلك كما لو كنت حذاءً قديمًا واشترت حذاء جديدًا جميلًا، ولم تعد تفكّر بأن تنتعل الحذاء القديم، لكنها لم ترمه بعيدًا. وبرفقة مورسيل في ذاك الخريف، انتقلت كايسي بسرعة إلى عالم مختلف، عالم البالغين أكثر من عالمي، عالم تضع فيه وجوهًا مختلفة لأناس مختلفين. ربما جعلتها تشعر بأنها محاصرة، كما لو أنها أصبحت أكبر مني حجمًا. أما أنا، فقد بدا لي أنني أعرفها معرفة جيدة، وأنني أراها بوضوح شديد، في الوقت الذي لم تعد تريد فيه أن تُعرف: لقد أرادت أن تأخذ دورًا جديدًا، ولم تشأ أن يذكّرها أحد بأنه دور زائف.

كنت آمل أن تعيدنا زيارتنا العائلية في عيد الشكر إلى بعضنا. عندما كانت في السيارة مع أمّها في عصر أحد الأيام، سألتها هل سيأتي بيتر أيضًا.

"بيتر؟" نظرت بيف إلينا في المرآة الخلفية، وسألت "ولماذا يأتي؟"

"لا أعرف – ظننتُ فقط..."

"كايسي، هل هناك شيء يجب أن أعرفه؟"

"طبعًا لا يا أمّي". استخدمت كايسي ما تسميه أمّي "نبرة".

نظرت بيف ثانية في المرآة الخلفية، ووجهت نظراتها إليّ مباشرة، وقالت: "أعرف أن كايسي تشعر بالحرج لأنها تريد أن تكون محبوبة من الجميع. صدّقيني، أعرف كيف يكون المرء مراهقًا". كنت أعرف أن أمّ كايسي لم تكن قلقة وأن أعصابها باردة. "ألم تقولي لها يا كايسي؟"

"لقد قرّرت أمّي"، بدأت تقول - لكن بيف، صلبة لكن متيقظة، قاطعتها.

"لا، يا حبيبتي. لقد قرّرنا. تحادثنا طويلًا في هذا الأمر وقرّرنا".

"قرّرنا أنني لا أزال صغيرة لأن يكون لديّ صديق".

"لستِ صغيرة لأن يكون عندك أصدقاء فتيان" قالت بيف موضحة، "لكنك لا تزالين صغيرة لأن تكون لديك علاقات خاصة".

"لذلك قلت لبيتر ذلك".

"لذلك فهما الآن مجرد صديقين، لا صديقين خاصّين"، قالت بيف وابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم أضافت، "أليس كذلك يا حبيبتي؟"

لم تقل كايسي شيئًا.

"وهذا الأمر مناسب أكثر بكثير"، أنهت بيف كلامها، "وهذا يعني أن بإمكانهما أن يكونا صديقين دائمًا، وسيجعلهما ذلك سعيدين مع مرور الوقت".

بعد ذلك، أرسلتُ رسالة نصيّة إلى كايسي سألتها فيها ماذا حدث.

"هلاوين سيء" ردّت عليّ، "شجار ونحن في طريقنا إلى البيت". ثمّ كتبت، "عليها اللعنة". وهذا شيء لم تكن تقوله بسهولة

في السابق. فقد كانت كايسي وأمّها تشكلان دائمًا فريقًا، معًا، وكانت إحداهما تراعي مشاعر الأخرى. كانت كايسي تَتَندّر حول ثياب أمّها، أو كيف أن أمّها ترفض أن تأكل قطعة حلوى في بيتنا وتأكل نصف حوض من بوظة بن وجيري عندما نعود إلى البيت ("ماركة القرد الكبير من أجل القرد الكبير" كانت كايسي تقول)، لكنها لم تكن تسمح لأحد آخر أن يفعل ذلك. ولم يكن من المفترض أن تضحك كثيرًا عندما تفعل كايسي ذلك، مع أنه يُفترض أن تضحك قليلًا - هناك توازن يتوقّع منك أن تعرفه، وقد عرفته منذ زمن. لكن التوازن تغيّر، فقد أصبح هناك بيتر الآن، وأصبحت هناك مورسيل الشرّيرة الآن، وأصبح هناك أندرز شوت الآن. ولم تعد بيف وكايسي كما كانتا. ولم تعودا بالضرورة تشكلان فريقًا واحدًا.

اتضح ذلك أكثر عندما جئنا لزيارتهما في عيد الشكر– أنا وأبي وأمّي، مع أن أبي حاول في الدقيقة الأخيرة أن يمكث في البيت مع أبناء عمّي. لكن أمّي قالت له: ريتش، لا يمكنك أن لا تذهب، فأيّ شيء يمكن أن يُفهم من عدم ذهابك؟ بأن الصلة بين الأخ وأخته هي المهمة فقط". أزعجه كلامها لكنه ضحك.

كانت قد مضت على زيارة أسرة أبي إلى بيتنا أربع وعشرون ساعة: جدّي جالس على الأريكة والسماعات في أذنيه، يقود أوركسترا لا يسمعها أحد غيره، بينما كان التوأمان اللذان كانا في الثامنة من عمرهما، براد وجو، أصغر أبناء مايك وإيلين، يجريان وراء بعضهما ويثيران ضجة حوله. أما جدّتي، فكانت تمضي وقتًا طويلًا في المطبخ، "تساعد". تضيف التوابل إلى الصلصة التي تعدّها أمّي، وتعيد ترتيب الزهور، وتلمّع الأواني الفضيّة التي لا تُستخدم إلاّ في المناسبات الخاصّة

كما لو أن أمّي لم تكن قد أمضت يوم الأحد الماضي بعمل كلّ ذلك. ولم تكن نانا روبنسن تهدأ أبدًا، فقد كانت تحبّ أن تتكلم، تحبّ أن تضحك، تحبّ الحفلات واللقاءات.

"فقط لو كانت تحبّ أن تنصت" كانت أمّي تهمس، ثم تعتذر. كنا نحبّ نانا كثيرًا. يصعب أن تكون ضيفة. كان جدّي يعشقها أيضًا، لكنّه كان يجد صعوبة أحيانًا في أن تكون زوجته – ومن هنا جاءت السماعات: سماعات غالية الثمن تزيل الضوضاء من ماركة Bose تنقله في الحال وبشكل كامل إلى عالم آخر اختاره هو بنفسه. كان يحبّ ساتي وديبوسي، الموسيقى الشفّافة الخاصة. كانت نانا مثل فاغنر بالنسبة له.

أما مايك وإيلين وأطفالهما الأربعة: فقد اعتُبر التوأمان صبيًا واحدًا، مجنونًا. وكان جايك، الأكبر سنًا، يشبه الجدّ في انطوائه على نفسه. كان نحيفًا، في السابعة عشرة من عمره، يضع نظّارات كبيرة تضخّم عينيه الغامقتين، وتتناثر على جبينه الأبيض الخزفي بقع حمراء صغيرة، لم يكن مقدرًا له أن يكون لاعبًا جيدًا، بل اختار أن يكون ذلك. وكان من الممكن أن يكون حقًا – لكنه سرعان ما سيصبح لاحقًا – وسيمًا بعض الشيء. ولم يكن يتلعثم في كلامه، ولم تكن له رائحة فم كريهة. وكان شعره الأسود مجعّدًا، ولفمه شفتان غليظتان مثيرتان. لكن في ذلك الخريف، أمضى معظم أوقات زيارته معتكفًا في غرفة الضيوف العلوية، منهمكًا في عالم لعبة بديلة – "مثل صرصور"، كانت أمّه تقول مازحة، "لا يخرج إلاّ بعد أن تُطفئ الأضواء".

وكانت أختهم، أونا، أقربهم إليّ في العمر – كانت في العاشرة في ذلك الخريف، في الصف الخامس، وكانت شديدة الإعجاب بي.

التقليد هو أعلى أشكال التملّق، كانت أمّي تقول. فعندما بدأت أحبّ هاري بوتر، قلّدتني، وعندما انتعلتُ حذاء من ماركة دوك مارتينز، أرادت أن تشتري حذاء مثله، وعندما قصصت شعري له غرّة مستوية على جبيني عندما كنت في الصف الخامس، وأرسلنا صوري المدرسية إلى بيت عمي، فقصّت شعرها بغرّة فوق نظّارتها عندما رأيناها في المرة التالية. لكن في تلك السنة، بدت المسافة بين الصف الخامس والصف السابع كبيرة جدًا لا يمكن رأبها. وعندما تنظر إلى عينيها البراقتين من وراء نظّارتها السميكة، وإلى الزينة الوردية اللون في شعرها، وإلى جسدها الذي يشبه غومبي الذي لا يزال يستطيع أداء حركات بهلوانية بسهولة، لا توجد فيه كتل زائدة، أو تنبعث منه إفرازات، ولم تكن تستخدم روائح عطرة لتغطيها - كان ذلك كما لو كنت تنظر إلى الوراء عبر قناة وعرة إلى شاطئ لن تطأه قدماك مرة أخرى. لذلك، كنت غالبًا أتجنّب أونا، وأحاديثها الحماسية عن الكتب أو العروض أو الأفلام أو نجوم الغناء الشعبي. كنت أريد أن أقول لها، ألا ترين أنني ملوثة؟ ألا ترين الأوساخ التي تملؤني؟

كانت أمّي منزعجة مني طوال فترة زيارتهم لنا- مُدّعية أنني لم أستقبل أبناء عمي بحفاوة، لكن السبب الحقيقي لانزعاجها عندما وجدت أن زيارة أقارب أبي إلى بيتنا كان مرهقًا لها، لكن بما أنهم كانوا دمثين، لم تستطع أن تبدي انزعاجها، ولو بقدر قليل. فقد جاء أبناء عمّي لزيارتنا بناء على دعوة أبي لهم، وكانت تحرص على الترحيب بهم وتحسن استقبالهم لكي لا ينزعج، لأن أبي نفسه رجل طيب، وقد تحمّل زيارات أقارب أمّي بهدوء أعصاب. وهكذا، كنت أنا الشخص الوحيد الذي تستطيع أن تهاجمه بضمير مرتاح. كانت تعرف ذلك،

وكنتُ أعرف ذلك، وحاولت ألاّ آخذ انفعالاتها نحوي بجدية.

توجهنا ثلاثتنا إلى بيت بورنيس بسيارة أمّي حوالي السادسة مساء – "أظن أن من الأفضل أن تقودي أنتِ السيارة يا حبيبتي"، قال أبي – الذي ترك أبناء عمي في البيت يشاهدون فيلم "ليلة في المتحف 2"، الفيلم الوحيد الذي أجمعوا على مشاهدته.

كانت الأضواء في بيت بورنيس تتلألأ مثل مسرح. جميع النوافذ مضاءة. وعندما توقفت سيارتنا نبحت كلاب أسرة أوكوينس. كان بإمكانك أن تشمّ رائحة مدفأتهم في هواء تلك الليلة الباردة، وسماع ضوضاء حفلات غامضة وترى ظلالًا متحرّكة من وراء الستائر في البيوت على كلا الجانبين. وعلى الرغم من كلّ الأضواء المشعّة في بيت بورنيس، كان الهدوء يخيم عليه. عندما قرعنا الجرس، فتحت كايسي الباب على الفور كما لو كانت تقف وراء الباب، تنتظرنا. كانت تمسك بيدها هاتفها ووضعته في جيبها بسرعة.

تصرّفت كايسي مع أبي وأمي كما لو كان كلّ شيء طبيعيًا - أفضل سلوك، تأدّب فائق - وفي أثناء هذا الارتباك، قالت لي بسرعة: "أهلًا جوجو"، وقادتنا إلى غرفة الجلوس - ثلاث خطوات تقريبًا إلى يسارنا - حيث كانت تقف بيف مرتدية ثوبها الحريري الأزرق الملكي، تبدو أشبه بمغنية أوبرا، بمهابة، ويقف إلى جانبها الدكتور أندرز شوت. عرفتُ على الفور من هو.

عرّفتنا بيف على بعضنا وجلسنا كما لو أن كلّ شيء كان معدًّا سلفًا. فقد جلبت كرسيًا من غرفة الطعام قبل وصولنا ليصبح العدد كافيًا. وانتصبت على المنضدة الزجاجية الصغيرة باقة من الأعشاب والفواكه جُلبت من بائع الزهور في رويستون – كنت أراها

في نافذة محله طوال الأسبوع – فيها أوراق أشجار خريفية ويقطينة صغيرة مليئة بالبثور لُفّ حولها شريط خمري برّاق. تساءلت عمّا إذا كانت بيف هي التي اشترتها أم أن أندرز شوت أحضرها كهدية. كانت اليقطينة تشبه وجه رجل قبيح، وخطر لي أننا، في لحظة مختلفة، كنا سنضحك عليها، أنا وكايسي.

"تبدو مألوفًا جدًا..." صفقت أمّي بيديها، ثم أضافت، "طبعًا! الدكتور شوت! لقد ضمّدت يد كايسي المسكينة في المستشفى في هذا الصيف".

"صحيح"، قال بصوت ناعم، وارتسمت على شفتيه الرقيقتين ابتسامة باهتة: "لقد ضمّدنا ذراعها".

وتابعت أمّي، "أهمية أن تكوني مريضة، هو ألاّ تكوني غير صبورة! يا لها من عبارة جميلة. طبعًا".

فأطرق برأسه، وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة الخفيفة.

"إذن، أهكذا التقيتما؟" انحنى أبي إلى الأمام على الكرسي من نوع ليزي بوي، واحتكّ بنطاله على الجلد الاصطناعي، "قولا لي".

"لا، لا"، لوّحت بيف بيديها الصغيرتين الرشيقتين – كانت قد طلت أظافرها بطلاء أظافر يلائم لون فستانها، لون أزرق مائل إلى الفضي – "لقد التقينا في الكنيسة".

"إذًا لم تكونا تعرفان..." أجالت أمّي بعينيها من أحدهما إلى الآخر.

"لقد فكّرنا بالأمر بسرعة. حتى قبل أن تدخل كايسي إلى الغرفة. أن نتحدّث عن المصادفات، أليس كذلك؟"

هزّ أندرز شوت رأسه أكثر. كانت الابتسامة الطفيفة لا تزال

مرتسمة على وجهه. بدا كأن سترته وقميصه وربطة عنقه قد ثُبتت عليه كما تُثبت الملابس على الدمى الورقية، وكانت كلّها مائلة قليلًا. كلّ شيء فيها معلّق بشكل غير مناسب بعض الشيء: الياقة، الأكمام. ربما كان شديد النحافة.

"نعم، مجنون، صحيح؟" قالت كايسي، "مثل، ما هي الاحتمالات؟"

"يجب أن تصدقي أن الله يرسم لنا قدرًا معًا"، قالت بيف، ثم أضافت، "أليس هذا شيئًا مدهشًا؟" ودفعت نفسها إلى الأعلى من فوق الأريكة بحركة سريعة، "والآن من هو مستعد لتناول فطيرة صغيرة؟"

انبعث منّا، أمّي وأبي وأنا صوت يشي بالقبول.

"لقد وضعتُ كلّ شيء على مائدة الطعام. لنذهب جميعًا ونتناولها، ثمّ نجلس لنتعرّف على بعضنا". توقّفتْ عند باب الغرفة، متورّدة وجميلة للحظة. "أنا مسرورة جدًا لأننا نلتقي هنا معًا. كنت أتطلّع إلى ذلك".

خطر لي أنّها لم تكن فخورة لأنه أصبح لديها صديق تواعده فحسب – فلم يكن لدى بيف خليل بعد كلارك، ليس في أثناء حياة كايسي كلها، فلم تكن ترغب ذلك – بل أيضًا لأنّها كانت تفتخر بأن تُري الدكتور شوت بأنّها صديقة أبي، طبيب الأسنان، وفخورة لتُري والدَيّ بأنّ حبيبها الذي طالما انتظرته، طبيب، يتفوق، بميزان خفي، على "طبيب الأسنان" دائمًا. وعندما قالت بيف إنّها سعيدة جدًا، فهي تعني ما تقوله تمامًا. لقد خطّطت لهذه اللحظة، وربما تصورّتها في مخيلتها عشرات المرات.

كنت أنتظر كايسي لأن تشير إليّ بأنّنا نستطيع أن نهرب ونصعد إلى غرفتها في الطابق العلوي. لم أصدّق أنّها لن تفعل ذلك، لكن بينما جلسنا في غرفة الجلوس الحارة جدًا ونحن نحترق، النار تطقطق، والكبار يهمهمون ("ثمّ سبع سنوات في بانغور" كان الدكتور شوت يقول، "في المستشفى هناك...") وفطيرة الجوز الشديدة الحلاوة – أشدّ حلاوة من الفطيرة التي تصنعها نانا، إذا كان ذلك ممكنًا - جعلت ضرسي الخلفي الأيمن يؤلمني وأدركت أنها أحدثت نخرًا جديدًا...وبينما استمّر ذلك بدون توقّف، ظننت فجأة، أنني أتخيّل بأن الأمور بيننا قد أصبحت أسوأ مما كنت أتصوّر، وأنّ عقوبتها لي في تخفيض مكانتي في سلم صداقتها مؤخرًا هي أن أظل جالسة فوق الكرسي المكسو بقماش قطني منفوش طوال فترة الزيارة. واعتراني شعور بأنّ كايسي تفضّل أن تعاني من الاستماع إلى حديث الكبار الممل على أن نكون وحدنا معًا.

لكن في النهاية، بصوت لطيف وبشكل طبيعي جدًا لا يعرفه أحد غيري بأن كايسي كانت تمثّل، عرضت كايسي أن تصنع المزيد من القهوة للجميع واقترحت أنّ أرافقها إلى المطبخ حيث بدت الأمور غريبة للحظة، لكن ألفتنا ومحبتنا المدفونتين في أعماق عظامنا، انتصرت. ولم تكن قد وضعت ملعقة من بن ستاربكس الكولمبي الغامق في جهاز صنع القهوة حتى قلت: "بحق الجحيم يا كايسي؟ أخبريني كيف حدث ذلك؟ هل أطلق شوت النار على أمّك! لماذا لم تقولي لي ذلك؟"

"إنها ليست نكتة سمجة يا جوجو".

"لكن منذ متى؟"

"زارنا في بيتنا لأول مرة منذ بضعة أسابيع مثل شبح مخيف

من أشباح الهالوين، في صباح اليوم الذي أعقب المشاجرة بيني وبين أمّي حول بيتر".

"وهل كان ذلك شيئًا سيئًا؟"

فقالت بتذمر وهي تعبث بحنفية الماء ووعاء القهوة، "هل كان شيئًا سيئًا؟ كان جنونًا حقيقيًا. لقد جرّتني أمّي على الدرج من شعري. إني مندهشة لأنها لم تُحدث جرحًا في فروة رأسي".

"صحيح؟"

"صحيح"، ثمّ أضافت، "كان كلّ ما فعلناه هو أن أحدنا قبّل الآخر. كنّا في حفلة. وكان والدا داليا في الغرفة المجاورة. لكن بيف جنّ جنونها. مثل موسيقى الرعب".

"خراء"، قلت.

"كانت تراه" - أومأت نحو غرفة الجلوس – "قبل أن تدعوه إلى البيت بشهر. رأيتهما يتحدثان في مجموعة الكنيسة في اليوم الذي أعقب يوم كولومبوس". لم تتردّد في ذكر التاريخ لأنها تعرفه بدقة. ففي عطلة نهاية أسبوع يوم كولومبوس، رافقت أمي وأبي إلى مدينة نيويورك ومكثنا في الفندق في غرفة واحدة، وكانت أمّي قد حصلت على تذاكر لمسرحية الشرّيرة. أندرز شوت – كنا قد رأيناه معًا، عمليا مثل أختين في قسم الطوارئ، لم يكد يمضي على ذلك أربعة شهور.

"كيف كان يبدو؟"

"كما يبدو الآن".

"نحيف؟" بأمل أن أضحك.

"لم يكن من الرجال الذين يرتادون الكنيسة. فهو لم يأت إلى كنيستنا قط، ثمّ بدأ يظهر فجأة بين أعضاء مجموعة دراسة

الإنجيل. ماذا يعني ذلك؟"

"هل دعاه أحد؟" في بيتنا، كنا نسخر من مجموعة دراسة الإنجيل التي تحضرها بيف ونعتبره موقعًا بديلًا للتواعد للأشخاص غير السويين اجتماعيًا، لكني لم أذكر ذلك لكايسي قط. "هل جاء مع أحد أصدقائه؟"

"إنه لا يعرف أحدًا. وقال ذلك. قال إنّه قرأ عن لقاء الكنيسة في لوحة الإعلانات في محل باسكيت ماركت. هل تصدقين ذلك؟"

"رجل وحيد".

فقالت: "سأحكي لك ما أظن أنه حدث. أعتقد أنه كان يبحث عنّا - عنّي. أظن أنه عرف عن مجموعة الشبان من صورنا في الألبوم على الإنترنت. ثمّ علم بمجموعة دراسة الإنجيل وبأمّي، ثمّ جاء إلى الكنيسة. حتى أنه لا يعيش في رويستون. إنه يعيش في هافرهيل، ويعمل في هافرهيل".

"يبدو أن هذا الأمر غير ممكن، أليس كذلك؟"

"لم لا؟"

"أليست هناك سبل أسهل لكي يجدك بدلًا من أن يتظاهر بطريقة استغرقت وقتًا طويلًا بأنه مسيحي ملتزم؟"

"قد تكون هناك سبل أسهل، لكن هذه الطريقة أكيدة للوصول إلى قلب أمّي. لقد أُغرمت به. يبدو الأمر سرياليًا".

فكّرتُ لدقيقة، ثمّ قلت: "لماذا تظنين أنّه كان يبحث عنك؟ هل هو، مثلًا، خائف منك؟ هل قال شيئًا؟ أو ...."

"لا"، مالت نحوي وهمست، وأدركتُ بامتنان صوته الثابت القادم من الغرفة الأخرى: كان لا يزال يتحدّث بإسهاب عن الفروق

في مهنة الطب بين ولايتي ماين وماساشوستس. "على العكس. إنه لا ينظر إليّ. لا يحدّثني، ولا يمكث في غرفة واحدة معي إذا خرجت أمّي من الغرفة، فيختلق عذرًا حتى يخرج".

"يبدو ذلك شيئًا جيدًا، أليس كذلك؟ فأنتِ لا تريدين أن تكلميه عندما تكونين وحدك".

"يا إلهي، لا. لكن ذلك شيء غريب. اعترفي بذلك. إنه شيء غريب تمامًا".

"لكنّه غريب الأطوار. هذا أكثر الأشياء وضوحًا عنه. ربما كان محرجًا".

"محرجًا؟"

"عندما أدرك أنّك ابنة بيف - ربما جعل ذلك الأمر يبدو غريبًا بعض الشيء، بأنّه كان قد التقى بك للتو، لا بها".

شهقت كايسي.

"أو لعله كان محرجًا" – عرفتُ الآن أنني أصبحت في موقف حرج –" لأنه نحيف، فهو يحبّ سيدة أكثر بدانة؟" ألقت كايسي منشفة الأطباق عليّ، لكنّي رأيت أنّ الفكرة كانت مبعث ارتياح - بأنّ انحرافه الخفي قد يكمن في انجذابه إلى البدانة. حتى أنها ابتسمت، وقالت: "إن قول هذا عن أمّي ليس شيئًا لطيفًا "، ثمّ أضافت، "لم تكن تستحقّ لطفي معها كثيرًا مؤخرًا".

"حدثيني عن بيتر إذًا".

"دعيني آخذ القهوة لهم، ثمّ نصعد إلى غرفتي".

في السيارة بعد ذلك، في طريقنا إلى البيت، كانت أمّي منزعجة مني. وقالت: "كنتما وقحتين كثيرًا". أطلق أبي تنهيدة. "أحسست بالخجل منكما. كايسي - حسنًا، لا يعنيني أمرها، لكن جوليا أصبحت في عمر يجعلك تعرفين الأمور بشكل أفضل".

"هيا، كارول"، قال أبي، متسمّرًا في المقعد بجانبها، "أنت قاسية بعض الشيء، ألا تظنين ذلك؟ إنهم أطفال".

"لقد سخرتا منه يا ريتش! بوضوح شديد، بوقاحة شديدة".

"لا أعرف عمَّ تتحدّثين".

"عندما دخلتِ وأنت تحملين القهوة ووقفتِ عند مدخل الغرفة وكانت عيناك تزوغان عندما كان يتكلّم..."

فقلت: "لم يرني، وكانت بيف مولية ظهرها لنا".

"ليست هذه هي الفكرة يا جوليا وأنت تعرفين ذلك".

"كان يبالغ بعض الشيء"، قال أبي، "لا أملك شيئًا ضدّ هذا الرجل، لكنّه كان يبدو... تقريبًا..."

"كان يبدو مثل شخص مصاب بمرض التوحّد أو شيء من هذا القبيل، صحيح؟"

في العادة، كانت أمّي تضحك على ذلك. كانت تؤيدني. "هل أصبحتِ طبيبة أعصاب أو طبيبة نفسانية الآن؟ تقومين بتشخيص الآخرين وأنت في الثانية عشرة من عمرك؟ من أين أتيت بكلّ ذلك؟"

"لكن، ماما..."

"وحتى لو كان مصابًا بالتوحّد، فهل هذا أمر يدعو إلى الضحك؟ لو كانت لديه ساق واحدة، أو لو كان لا يسمع، فهل كنت ستسخرين منه؟"

"طبعًا لا... لكن ماما...".

"يبدو لي أنك تفتقرين إلى السلوك الجيد. لا أحبّ أن أفكّر بأننا ربيناك هكذا. هذا عيب".

"كارول، هذا كثير". قال أبي ولمس ذراعها بيده، لكن يدها كانت على المقود عندما أبعدت يده بحدّة فانحرفت السيارة قليلًا عن الخطّ الذي يتوسط الطريق، ولحسن الحظ لم تكن هناك سيارة قادمة من الجهة الأخرى. "هيا يا حبيبتي، لا يستحق هذا الأمر أن يقع لنا حادث!" كان صوت أبي هادئًا، لكني أستطيع أن أقول إنه صُدم بما حدث. "ما الذي يغضبك؟"

"لا أعرف". أصبح صوت أمّي هادئًا فجأة أيضًا، كما لو أنها أخافت نفسها، "لا أعرف".

صمتنا للحظة، ثمّ اعتذرتُ، وقلتُ: "لم نكن نقصد أن يكون سلوكنا سيئًا. كان كلّ ما نريده هو أن نصعد إلى غرفتها، كما تعرفين؟"

أخذت أمّي نَفَسًا عميقًا، ثم قالت: "أعرف يا حبيبتي. لقد بالغتُ في ردة فعلي"، ثم أردفت بعد دقيقة، "لم يكن ذلك جيدًا".

"هذا لا يعني أنه كان خطأ جوليا، أو حتى كايسي" قال أبي وهو يعبث بفتحة هواء مكيّف الهواء، "إنه بطّة غريبة الأطوار، شوت ذاك".

"ولا يوجد شيء مميّز أيضًا في بيف" أقرّت أمّي، "وأنا سعيدة من أجلها. فهي تعيش وحيدة منذ زمن".

فقلت: "لا، إنها ليست كذلك، فهي تعيش مع كايسي".

"تعرفين أنني لا أقصد ذلك".

"تقصدين أن تتواعد مع أندرز شوت من ولاية ماين أفضل

من موعد سرّي آخر مع صديقها بن وجيري من فيرمونت؟"

"... ريتش!" هزّت أمّي رأسها، لكنّها لم تعد غاضبة، "عيب عليك. الآن أرى من أين جاءت ابنتنا بهذه الأفكار".

دلفنا إلى مدخل البيت ورأينا الجميع عبر نافذة غرفة الجلوس المضاءة بنور خافت، لكنه واضح. كان جدّي مستلقيًا، نائمًا على الأريكة، وأونا شاردة الفكر جالسة إلى جانبه، ركبتاها مرفوعتان إلى صدرها، بمنامتها بلون الحلوى، ونظّاراتها تعكس ضوء التلفاز. وكانت جدّتي منهمكة في الحياكة، بينما كان جايك متمددًا على أرضيّة الغرفة ممسكًا بهاتفه، يحدّق بالشاشة الصغيرة بدلًا من أن يحدّق بالشاشة الكبيرة. ولم يكن مايك وإيلين والتوأمان يظهرون في الصورة - يفترض أنهم نائمون الآن - لكن حتى بدونهم، بدا المشهد مريحًا وطبيعيًا جدًا. في أمان، هكذا قلت في نفسي.

يصعب إدراك جميع الأشياء المختلفة التي تجري في وقت واحد، أو الأشياء التي حدثت في وقت واحد. ففي ذلك الخريف عرفتُ في صفّ الفنّ عن الرسّام الإسباني غويا - كانت معلّمة الفنّ مهووسة به - وانتهى بي الأمر بأنني كتبتُ بحثًا عن حياته. وبعد ذلك بفترة طويلة، عندما بدأنا ندرس الثورة الفرنسية في دروس تاريخ العالم، أدركتُ أنّ غويا كان رسّام البلاط في مدريد في الوقت الذي كان رأس ماري أنطوانيت يُقطع. لن يخطر ذلك ببالك أبدًا. إذ تقع إسبانيا وفرنسا بجوار بعضهما، لكنه كما لو كان يعيش في كوكب آخر – بنفس الطريقة بأنه كان في الصفّ السابع في درس الفنّ بالنسبة لي،

بينما الثورة الفرنسية في الصفّ التاسع في درس التاريخ، ومن سيربط هذين الشيئين؟

هذا ما حدث لكايسي ولي تقريبًا. يخيّل إليّ أنني غويا، أقوم بما أفعله، وهي الثورة الفرنسية.

بعد عيد الشكر، انتحى السيد كارترايت الذي يدرّسني اللغة الإنكليزية بي جانبًا وسألني إن كنت أرغب في الانضمام إلى فريق الخطابة. هذا شرف لي: فقد كان ترتيب مدرستنا المتوسطة أفضل مدرسة أو أنها تبوأت المرتبة الثانية من حيث الأفضلية على مستوى الولاية على مدى ستّ سنوات متتالية، وحازت على جوائز، بل إنها تتنافس مع ولايات أخرى في المسابقات التي تقام في مدينة واشنطن العاصمة. لم أتردد في ذلك. لذلك بدأت أشارك في برنامج المسابقات بعد انتهاء دوام المدرسة، وأصبحت ألتقي بأناس جدد. ولم تعد العودة بالسيارة مع أمّ كايسي أمرًا سهلًا. وفي معظم الأحيان، كانت أمّي تأتي لتأخذني بعد حلول الظلام، فأخرج من المدرسة وأرى سيارة السوبارو الزرقاء مركونة وحدها في إحدى زاويا موقف السيارات وأضواؤها الأمامية مطفأة. وكنت أميّزها لأن أمّي كان تضيء الضوء في داخل السيارة، وتضع نظارات القراءة، مستغرقة في قراءة أحد أعداد مجلة هاربر أو النيويوركر. أما الآباء الآخرون فكانوا يبقون أضواء السيارة الأمامية مضاءة ويطفئون الضوء الداخلي، ربما كانوا يستمعون إلى المذياع.

أصبحت جودي وجينسين صديقيّ الجديدين في فريق

الخطابة. وهما من جورج تاون، أخت وأخ، تفصل بينهما سنة واحدة في العمر، لون بشرتهما بلون الرمل، نحيفان، وقويّان في الفريق. وكان جينسين، الأكبر سنًا، في الصفّ الثامن، يؤدي خطابات سياسية في الغالب والجانب المتعلق بالمناقشة في الخطابة. أما جودي التي كانت في صفّي في درس اللغة الإنكليزية، فكانت تفضّل الأشياء التي تبعث على الإلهام وتؤدي مشاهد مناجاة مستمدة من مسرحيّات. كانت ممثلة بارعة. في الصفّ، هي فتاة هادئة، وتكاد تكون خجولة، فلم ألاحظ وجودها من قبل. أما على المسرح، فإنها تصبح شخصًا مختلفًا تمامًا. وقد أبكتني طريقتها عندما ألقت خطاب "عندي حلم".

في عطل نهاية الأسبوع عندما لا تكون هناك مسابقة، كنت ألتقي مع جودي ونؤدي الأجزاء المخصصة لنا معًا، أو نؤدي واجبنا المدرسي، أو نمضي وقتًا معًا، نبحث في اليوتيوب عن المشاهد المسرحية التي يؤديها ممثل واحد. وكنّا نتحدّث عن الأشياء التي تستهوينا – غالبًا عن نجوم الموسيقا والسينما، لكن أحيانًا عن الأعضاء المشاركين في فرق الخطابة القادمين من مدارس أخرى، ننظر إليهم، نتنافس معهم، نقيم علاقات رومانسية معهم. أحيانًا مع جودي – وأحيانًا أخرى مع جودي وجينسين معًا - أجد أنني أفعل شيئًا أتذكّر أنني كنت أفعله مع كايسي، من قبيل إعداد خبز الموز، أو التفرج على مجموعة الحيوانات المحشوة في محل بيل. كنت ألتقط أنفاسي: هل لا تزال تنام مع هوبرت الخنزير؟ هل مورسيل الشرّيرة تحبّ أن تخبز؟ لكني كنت أراها في أحيان كثيرة عند الغداء – كانت فترات الغداء في أيام الأربعاء نفسها، وتكون داليا في صفّها، فأجلس مع كايسي، خاصة بعد أن انفصلت عن بيتر.

وفي أيام الجمعة، عندما لا أحضر فريق الخطابة، كنّا نعود معًا إلى البيت، وكانت أمّي عادة تأتي وتقلّنا بسيارتها. وكانت كايسي تقول دائمًا إن عليها أن تعود إلى البيت، على الرغم من أن بيف تغيب عن البيت ساعات طويلة. فكنا نوصلها إلى بيتها: فتاة صغيرة تقف على عتبة باب البيت الأبيض الصغير والغابة الزاحفة تلوح في الخلف. كان ذلك يجعلني متوترة الأعصاب - مثل شيء خارج من فيلم رعب مخيف، لاسيما في الشتاء عندما يهبط الليل بسرعة. لكن لم يكن يبدو أن كايسي تأبه بذلك. وعندما سألتها ألا تخافين عندما تكونين وحدك في ذلك البيت، رفعت حاجبها باستهجان.

"لم نعد أطفالًا لكي يقوم أحد برعايتنا، أليس كذلك؟ لذلك، أظن أنّ باستطاعتي العناية بنفسي، أليس كذلك؟"

أردت أن أقول لها إنك عندما تكونين جليسة أطفال، فعلى الأقل يكون معك شخص آخر في البيت، حتى لو كان صغيرًا لا يمكنه أن يقدّم لك أي مساعدة إذا حدث مكروه، لكنّي كنت أعرف أنها ستسخر مني. وإذا لم تكن تخاف - ألم تشاهد أيضًا برنامج تحقيقات في مواقع الجريمة؟ أو برنامج عقول إجرامية؟ - إذًا، لماذا عليّ أن أبثّ الخوف في نفسها؟ سيكون ذلك قاسيًا من جانبي.

لكنّي كنت أتساءل ماذا تفعل في فترات بعد الظهر تلك – لا في أيام الجمعة فقط، لأنني أحضر في تلك الأيام فريق الخطابة عندما كانت والدة أو والد تلميذ آخر يوصلها إلى باب بيتها. يبدو أنها كانت تمضي وقتًا طويلًا في البيت وحدها. عندما أكون وحدي – كنت أحبّ أن أكون في غرفتي وحدي، أقرأ وأنا ممددة على السرير أو أستمع إلى الموسيقى وأحدّق في النجوم المتلألئة في الظلام التي ألصقها أبي في

السقف عندما كنت صغيرة - كنت أسمع أمّي وهي تتحرّك في أرجاء البيت. ألواح الأرضيّة الخشبية في الطابق العلوي تصدر صريرًا أو أسمع صوت دندنة خفيفة منبعثة من المذياع في المطبخ، وكان بوسعي أن أشمّ رائحة طعام العشاء: رائحة البصل في المقلاة، أو نفحة من رائحة اللحم أثناء طبخه أو رائحة الفطيرة اللذيذة التي تخبزها أمي. وعندما أكون في الغرفة وحدي، كنت أحبّ أن أعرف أنّني لم أكن وحيدة تمامًا، لكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لكايسي.

خلال السنوات التي كنّا فيها صديقتين، منذ الأزل، كنّا نستخدم نفس الكلمات، وربما كنّا نقصد منها أشياء مختلفة - أحيانًا مختلفة بعض الشيء، لكن، في أحيان أخرى، كنّا نقف على نقيض تام ولم نكن ندرك ذلك، كما لو أنني كنت أحمل تفاحة وأظنّ أنها كرة تنس، طوال ذلك الوقت. مثل "البيت": الذي كان يعني بالنسبة لي بيتنا القديم بصريره المزعج وجهاز التسخين الذي ينفث الهواء بقوة صاخبة ونوافذه التي تصدر خشخشة، ذلك البيت الذي أصبح بيتًا صغيرًا ومألوفًا من الأكوام اللا نهائية من المجلات والغسيل المطوي الذي كانت أمّي تضعه في أرجاء البيت، والموسيقى الكلاسيكية أو الأصوات التي تنبعث من المذياع، ومجيء الأصدقاء والأقارب وذهابهم، وحتى عندما كنت أعرف أن أبي "يعمل" كنت أستطيع أن أفتح نافذتي وأرمي كرة (أو تفاحة) فتصيبه. وكانت أمّي وأبي يعانقاني كلّ يوم تقريبًا، وعندما كنت أقرأ وأنا مستلقية على السرير في الليل، كان أحدهما يأتي دائمًا ويقبّلني قبل أن أطفئ الضوء. ذكرى متبقية من طفولتي المبكرة التي لا أزال مغرمة بها. "البيت" هو ذلك الشعور عندما تغطّ في النوم وصوت والديك الخافت يتناهى إليك من بعيد،

صوت يتسلل من بين ألواح الأرضيّة الخشبية أشبه بذبذبات لا في أذنيك فقط، وإنما في جسدك كله. إنه توليفة معيّنة من الروائح المألوفة – رائحة صابون زهرة البرتقال في حمّام الطابق السفلي، أو رائحة خفيفة من دخان نار قديمة في غرفة الجلوس تبقى حتى في الصيف، عندما يهطل المطر - ولفحات من الهواء الدافئ من جانب فتحات جهاز التدفئة، تعقبها لفحات باردة من جانب النوافذ. إنه معرفة بأن ثمة أحد قريب منك على الدوام. وإذا لم يتواجد أحد في البيت، فهناك أفراد أسرة ساغافي في البيت المجاور، وهناك البلدة كلها، وثرثرة صغيرة لا تتوقف على الطريق. وفي جميع الأحوال، يظل محل رايت إيد مفتوحًا حتى منتصف الليل. فإذا اضطررت لأن أجري وأصرخ في الشارع، فإن أحدًا سيسمعني دائمًا.

في بعض الأحيان ينتابني شعور بأنني عندما أكبر وأصبح فتاة فإن ذلك يعني أن أتعلّم كيف أصبح خائفة. لا أن أصاب بالذعر، تمامًا، وإنما أن أكون حذرة ويقظة على الدوام، كما أفعل عندما أحدد أماكن منافذ النجاة في دار السينما، أو موقع سلّم النجاة في الفندق. فتبدئين معرفة، بشكل لم تكوني تعرفيه عندما كنتِ طفلة، بأن الجسد الذي يسكنك ضعيف، غير محصّن بالكامل. ففي التلفاز والصحف، وفي الكتب والأفلام، فإن الذين يُغتصبون أو يُخطفون أو يُضربون أو تُقطع أوصالهم أو يُحرقون بالأسيد ليسوا هم الرجال. وفي قصص وبرامج الجريمة والمسلسلات التلفازية والأفلام وفي الحياة أيضًا، فإن ذلك يحدث دائمًا، من حولك. وهكذا تتعلّمين، في عقلك،

بأنّ جسدك بحاجة إلى حماية. فهو ثمين ومعرض للخطر، ويتوقف ذلك على من تصادفين. فلا تريدين أن ينتهي بك الأمر في حفلة لا تعرفين كيف تعودين منها إلى البيت. ولا تريدين أن ينتهي بك الأمر وأنت تسيرين في الشارع - لاسيّما شارع هادئ - وحدك في الليل. ولا تريدين أن تفتحي باب البيت لرجل غريب على الإطلاق، حقًا، أبدًا، إذا كنت وحدك في البيت، حتى لو كان يرتدي بدلة رسمية. فقد يكون متنكرًا في هذه البدلة الرسمية. إن ذلك يحدث. لقد رأيت أحداثًا كهذه على شاشة التلفاز.

تبدئين تكبرين وتتعلّمين من جميع القصص من حولك. كيف يبدو العالم، وتبدئين تفقدين بعض الحرّيات. لا لأن أحدًا يقول لك إنّكِ فقدتِها، وإنما لأنك تعرفين أن عليك أن تتوخي الحذر. ولم تعد هناك صديقة تساندك، ولا نزهة على الدراجة الهوائية على درب أودوبون، ولم تعد هناك سباحة عند مقلع الحجارة، ولا رحلة على الأقدام في الغابة. احذري من العتمة، والعزلة، والخروج من البيت، والنوافذ غير الموصدة، ومن الرجال الذين لا تعرفينهم. ثمّ تدركين أيضًا بأنه، حتى الرجال الذين تعرفينهم أو الذين كنتِ تظنين أنّك تعرفينهم، يتبين أنهم رجال جيّدون.

فقد ألقى مكتب التحقيقات الفيدرالي القبض على أستاذ رياضيات في فصل الخريف ذاك في إحدى المدارس الثانوية في نيوهامشاير القريبة، ووجدوا على جهاز الكمبيوتر لديه آلاف الصور الإباحية لأطفال - صور فتيات صغيرات حبيسات في أقفاص، قال أحدهم. وأُلقي القبض على حاخام في بوسطن شوهد وهو يتلصص ويتجسّس على نساء من رعيته يقمن بحمامهن الطقوسي. واتُّهم

صاحب المطعم الذي كنا نرتاده أحيانًا في طريق عودتنا من الشاطئ، والذي يبعد أقل من نصف ساعة عن بيتنا، بالتحرش الجنسي مع النادلات اللاتي يعملن عنده، وأرغم إحداهن – أم هل كنّ ثلاث؟ أم خمس؟ ظللن يخرجن إلى العلن بشكل غير متوقع. واستمرّ عمل ذلك سنوات عديدة، كما يبدو – ليمارسن الجنس معه. لذلك، عندما تذكّرت تلك المرأة التي ترتدي الجينز والتي قامت بخدمتنا في آخر مرة ذهبنا فيها إلى المطعم – أتذكّرها من الوحمة على خدّها الأيمن التي يشبه شكلها حبة فراولة بحجم علكة، ومن عينيها الخزفيتين الزرقاوين البارزتين، ولولا ذلك لكانت في غاية الجمال، أو أنها كانت جميلة جدًا، لكن الحياة طحنتها وأنهكتها قبل أوانها، وأحدثت أخاديد في بشرتها - تذكّرتها وتساءلت هل هي واحدة منهن، وهل أُرغمت على أن تجثو على ركبتيها في المخزن بعد إغلاق المطعم، أم أن الوحمة أنقذتها، كما قالت لي كايسي ذات مرة بأنها علامة من الله في عيد الفصح، وهل أن هذا العيب فيها كان رمز حمايتها المباركة.

تنتقلين إلى المدرسة المتوسطة وأنت تفكّرين بهذه الأشياء. فالعالم ينفتح أمامك، والتاريخ يمتدّ خلفك، والمستقبل ينبسط أمامك، وتدركين فجأة الحيوات الداخلية المتوحشة التي يتعذر على جميع من يحيطون بك معرفتها، الإدراك بأن كلّ شخص يعيش في عالم صامت، خفيّ، كامل وغريب، مثل عالمك. وأنّك لا تستطيعين أن تأملي تمامًا أن تعرفي شيئًا، حتى نفسك.

لكن بينما ينفتح العالم أمامك، فهو ينغلق أيضًا، وتكشف الأشياء عن أشكالها التي لم يكن من الممكن تخيّلها في السابق. ومن دون قول ذلك، فقد عوملتِ كطفلة لها مستقبل مشرق، أما كايسي،

حسنًا، فلن يكون لها بالضرورة مستقبلًا واعدًا، لكن دربها سيكون مختلفًا عن دربي. ومن دون أن يقول ذلك أحد بصراحة، قيل لي إن دربي هو الأكثر قيمة. سمعت ذلك من أمّي وأبي، ومن السيد كارترايت عندما اختارني للانضمام إلى فريق الخطابة، ومن أساتذتي عندما كانوا يربّتون على ظهري ويمنحونني درجات عالية، ومن جدتي التي عندما سألتني عن كايسي في عيد الشكر وقلت لها إننا بدأنا نتباعد، داعبت خدّي بيدها الناعمة التي تفوح منها رائحة ماء الورد، وقالت: "أن يكبر المرء في العمر أمر صعب، لأنه يجب أن يتبع كلّ واحد منّا نجمه" – وهو أمر، بحد ذاته، محايد تمامًا، لكنها سرعان ما أضافت، "ولدى بعضنا نجوم براقة يتبعها أكثر من الأخرى".

وإذا كنّا ننشأ ونكبر، وننشأ بطريقة مختلفة الآن، وإذا كان هناك إحساس مشؤوم قليلًا حول المراهقة ومرحلة البلوغ الماثلة أمامنا – كما لو أنه لا بد أن تكون هناك عقبة في الطريق، أو مخدّرات، أو عنف، أو حوادث اصطدام سيارات، أو كوارث عامة، أو بالنسبة للفتيات، ارتكاب حماقة ممارسة الجنس بشكل طائش، أو شرور رجال مفترسين يترصّدون مثل رجال عصابات، بيننا - ثمّ الصرخة الخفية التي يتردّد صداها من جميع الجوانب وهي "أنقذي نفسك!" لأن من الواضح أنّها الشيء الوحيد الذي تأملين أن تفعلينه، حتى لو كان ذلك مستحيلًا.

قد لا يكون بإمكانك أن تنقذي شخصًا آخر في البداية. مثل العرض الذي يقدمونه في الطائرة من أجل سلامة الركاب، عندما يطلبون منك أن تضعي قناع الأوكسجين أولًا. هذا هو المهم. فلن يكون بإمكانك مساعدة أي شخص إذا لم تساعدي نفسك.

لم تكن كايسي نفسها تفكّر بأيّ شيء من هذه الأشياء، حسب علمي. لا آنذاك ولا فيما بعد. كانت هذه الفكرة تشغل تفكيري. ولم تعد أمّي تسمح لي بمشاهدة برامج الجريمة التي تُعرض على التلفاز، عندما اختفت الفتاة في نيوهامشاير التي تكبرني أنا وكايسي بسنتين، عندما كانت عائدة إلى البيت من المدرسة. ولم تعد أمّي تترك الصحيفة المحليّة مرمية في أرجاء البيت، وكانت تغلق جهاز التلفاز عندما ترد هذه القصة في نشرة الأخبار. وفي ذلك الوقت تقريبًا، كان هناك خبر الفتاة الشابّة الجامعية في بورتلاند التي لم يُعثر على جثّتها قط: وخمنّوا أنّ رجلًا تعرفه في مكان عملها قد دعاها لقضاء سهرة معه ومع صديقته في بيته، ثمّ قتلاها وألقيا بجثتها في مياه المحيط. تتساءلين لماذا فعلا ذلك. لأنهم يستطيعون أن يفعلا ذلك فقط؟ ويجب أن تتساءلي عن تلك الصديقة. ماذا كان يدور في رأسها؟ إلى أيّ نوع من البشر تنتمي؟

"الانحلال الأخلاقي"، قالت أمّي، "إنها دائرة لا تتوقف في مجتمع مريض"، ثمّ أردفت، "بما أنني امرأة تؤمن بالمساواة بين الجنسين، عليّ أن أجد وسيلة نعالج فيها هذا الأمر".

"نعالج؟"

"أنا وأنتِ".

"عمَّ تتحدّثين؟"

"كنت أتمنى أن العالم ليس هكذا"، قالت، "فشطر منّي يريد أن يحميك من سماع ذلك... لكن هذا هو العالم، لهذا السبب علينا أن نجد وسيلة لمواجهته".

أكان ذلك بسبب الوقائع التي أسمعها، أم بسبب الثقافة، أم بسبب غضب أمّي حول ذلك، أم بسبب مزاجي الجبان، فإن النتيجة

الوحيدة هي أنّني كنت مذعورة، نوع من الذعر المنخفض الوتيرة طوال الوقت - في الجزء الخلفي من عقلي، لكنه موجود دائمًا.

لم تكن كايسي كذلك، أو أنها لم تكن تُظهر ذلك. فإذا كنت أذوب في قلق شبه دائم، ويخفق قلبي بقوة، ويرتعش جسدي عندما أسمع أصواتًا غير معهودة، فإن كايسي تزداد صلابة، صغيرة، حتى ضحكتها أصبحت هشّة، وبدا جسدها الذي يشبه جسد فتاة صغيرة فجأة غير مكتمل وأخذ يذبل فوق عريشتها. كانت تقول لي شيئًا عندما كنّا معًا، لكن دائمًا كما لو أنها نكتة، نكتة سوداء. أظن أنها لا تزال تأخذ الأمور بهذه الطريقة.

أولًا، بدأ أندرز شوت يمضي وقتًا أطول في بيتهما. وقالت إنها تشكر الله على وجود المستشفى لأنه كان عليه أن يمضي فيه أحيانًا بضعة أيام متواصلة، وفق جدول مناوبته. لكن بعد ذلك، في السنة الجديدة...بعد انفصالها فعليًا عن بيتر أوندل – لا ادّعائها بذلك فقط من أجل أمّها. وفهمت لاحقًا أشياء كثيرة، منه، ولدهشتي الشديدة، كان انفصالهما بسبب جدال حاد جرى بينهما، عندما قال لها إن عليها أن تواجه بيف وأن تقول لها إنها لا يمكن أن تقيم علاقة مع أندرز شوت، وأن وجوده في البيت يجعل كايسي حزينة، فقالت كايسي لبيتر إنه يجب ألاّ يتدخل في شؤونها، وأنّها ترى أن أمّها عاشت حزينة ووحيدة طوال حياتها – طوال حياة كايسي، هذا ما تقصده – وأنّ بيف ضحّت ألف تضحية من أجل كايسي خلال تلك السنين، ولم تكن تتخيّل أن يحبّها رجل بسبب كايسي، بعد أن فقدت الأمل من ذلك، وأنّها، كايسي، لن تكون السبب في أن تصبح أمّها حزينة مرة أخرى.

ما حدث كان بعكس ما كنت أتوقّعه، لكنّه بدا معقولًا أيضًا. فقد كانت كايسي وبيف مثل جذعي شجرتين نمتا وكبرتا معًا. فقد كانت تعتمد على أمّها، وأمّها تعتمد عليها، وقد لا تكون سعيدة إذا شعرت بأنها مسؤولة عن عدم سعادة أمّها. لكن ماذا عن سعادتها هي؟

في جميع الأحوال، ابتعدت كايسي عن بيتر، لأنه كما قالت يطلب منها أشياء كثيرة. وقال لي إنه فهم، بشكل ما: يبدو أنها لا تحبّ أحدًا آخر. الأمر يتعلق بها وبيف، حقًا: إذ تظن أمّها أن كايسي وبيتر قد انفصلا في عيد هالوين. إن الكذب والادعاء بأن صديقك ليس مميزًا أمر متعب، عندما لا تراقبك أمّك فقط، وإنما كذلك ذلك الرجل الآخر الذي دخل حياتهما مصادفة، يراقب كلّ حركة وسكنة تقومين بها.

أحس بيتر بأنها جرحت مشاعره - قال لي ذلك، وقال لي إنه بالرغم من ذلك، فهو مستعد لأن يعود إليها فورًا، حتى بعد عدة شهور، إذا أرادت. وقال لي: "إني أحبّها منذ زمن. هل تذكرين في الصيف الماضي، عندما كنتما تسيران أمام ملعب كرة السلة عندما كنّا نلعب، وقال بيكيت عبارة وقحة بصوت عال؟ كنت أعرف أنك ستضحكين، لكنّي كنت أعرف أنها انزعجت، فلحقتُ بكما لأؤكد لها بأنني لست أنا من قال ذلك".

"كنت تريد أن تحبّك".

"نعم".

كانت مشاعره قوية نحوها – كانت تتملكه مشاعر جياشة - بيتر، مع أنه لم يكن يريد أن يرى الآخرون ذلك. كان يريد أن يبدو

هادئًا، لكن مشاعره لم تكن كذلك، ولم يستطع أن يتمالك مشاعره. كان ذلك واضحًا جدًا بالنسبة لي - وكان ذلك سببًا جعلني أحبّه. يمكنك القول، على نحو ما، إنّني أحبّه بنفس القدر الذي يحبّ فيه كايسي: كنت أتمنى أن أكون مكانها. لكن ماذا عنها؟ لا أظن أنها كانت تعرف أن ذلك بسبب الحبّ، ليس آنذاك. فلم تكن بنفس الدرجة من الجدية والحماسة. بل كانت، بشكل ما، باردة بعض الشيء في داخلها - باردة في حقيقة الأمر. هذه هي الكلمة المناسبة. كان هذا هو الشيء الذي جعلنا، أنا وبيتر، نحبّه فيها.

أما بالنسبة إلى صداقات كايسي الأخرى، فلا داعي للقول إن بيف لم تعد تحبّ مورسيل الشرّيرة أكثر مما كنت أحبّها، مع أني أحبّ أن أفكّر بأنّ الأسباب التي دعتها إلى ذلك تختلف، على الأقل، عن أسبابي. لكن هذا يعني أن كايسي لم تكن تتحدّث كثيرًا في البيت عمّا يجري معها في المدرسة، والعكس بالعكس. كانت تفصل بين هذين الجزأين من حياتها، وكانت تعيش حياتين. فقد كانت تحتفظ بأحمر الشفاه وظلّ العيون وبنطال الجينز ذي الفتحات في خزانتها في المدرسة بالإضافة إلى مزيل المكياج، وكانت تضطر لأن تعود وترتدي ثيابها قبل أن يقرع أول جرس، ومرّة ثالثة بعد الجرس الأخير. ومن الأشياء القليلة التي قالتها لي كايسي، فإن داليا ترى أن ذلك شيئًا مضحكًا. وربما كنت سأجد الأمر مضحكًا أيضًا لو أننا بقينا صديقتين مقربتين، لكن عندما قلت ذلك لجودي، زاغت عينيها البندقيتين النقيتين الخاليتين من أي مكياج وهمست، "ألا تظنين أن هذا شيء يدعو إلى الحزن؟ أقصد، شيء يثير الشفقة؟ مثل، لماذا لا تشعر بالراحة عندما تتصرف على طبيعتها بدلًا من أن تتنكّر كأنها

ترتدي ثوبًا جديدًا، صباح كلّ يوم؟"

"ماذا لو كان الشخص الذي تتلبسّه في البيت هو الشخص المتنكّر، غير الحقيقي؟ كما لو أنه لا يُسمح لها بأن تكون ذاتها الحقيقية عندما تكون في البيت؟"

هزّت جودي رأسها، وقالت: "هذا شيء محزن، كما تعرفين؟"

في السنة الجديدة، ربما في أواخر شهر فبراير أو نحو ذلك - بعد عيد الحب(فالانتاين)، وربما كان ذلك مخططًا سلفًا، في أمسية أمضتها بيف وأندرز شوت في عناق وتبادل قبلات عندما كانا يتناولان الطعام في المطعم الصيني "لو مين" على الطريق 29 وشمعة تيكي مضاءة في حديقة اللوتس، وكانت كايسي أثناء ذلك تجلس وحيدة في البيت والقطة إلكترا تقبع في حضنها، تشاهد حلقات معادة من مسلسل "أصدقاء"، وتتبادل رسائل نصيّة مع داليا - كان الدكتور أندرز شوت قد انتقل رسميًا إلى البيت ذي القبة البيضاء والسياج الذي يشبه التنورة.

قالت كايسي إنهما قالا لها إنهما متزوجان أمام الله، وأنهما صلّيا من أجل ذلك معًا، قالت لها ذلك بيف وأندرز شوت – عندما كانا يجلسان على الأريكة يعقد أحدهما يد الآخر ويتحدثان، قالت لي كايسي، وكان أحدهما ينهي جملة الآخر – وأن الله باركهما زوجًا وزوجة. وإذا لم يكونا قد تزوّجا في المحكمة بعد، كما قال لها أندرز شوت، فإن ذلك بسببها، أي بسبب كايسي: لأنهما لم يرغبا في تعقيد الأمور من الناحية القانونية ولكي تشعر كايسي بالارتياح. وقال لها أندرز شوت إن هذه رغبة بيف، وأنهم سيصبحون من الآن فصاعدًا أسرة واحدة - وقالت كايسي إنهما ظلاّ يكرران هذه العبارة (وشدّدا

عليها) – وقال لها أندرز شوت إنها يجب أن تعامله كأبيها (بتشديد مرة أخرى)، وفي هذه الجملة، قالت كايسي، لم تتحرك بيف لتنهي جملته. لكنه عندما قال لها ذلك، أدركت كايسي أنّ بيف لم تستطع أن تنظر إليها، بل أطرقت برأسها وراحت تحدّق في حضنها. "لأنها تعرف"، قالت كايسي، "بأنّه لا يمكن لشخص آخر غير أبي الحقيقي أن يكون أبي أبدًا".

ترك الدكتور أندرز شوت شقّته في هافيرهيل، وأودع أثاث بيته في أحد المخازن (ما عدا أشياء قليلة لا يمكن تفسيرها: كرة بيسبول عليها توقيع "رد سوكس" في صندوق مبطن بالمخمل، ولوحة كبيرة بعض الشيء ذات ألوان صارخة تصوّر الغروب في ولاية ماين تظهر فيها بعض الصخور ومشهدًا بحريًا، بخطوط عريضة باللونين الوردي والأرجواني مؤطرة بإطار ذهبي مزخرف؛ وطاسة زجاجية كبيرة برتقالية وصفراء اللون تشبه هدية زفاف جعلتها تريد أن تسأله، في الواقع، إن كان متزوّجًا)، وجاء، على حد قول كايسي، بعد ظهر يوم الأحد، حاملًا ثلاث حقائب كبيرة وصندوقًا فيه كتب في سيارته الهوندا سيفيك الفضّية المائلة إلى اللون الأخضر التي تجاري سيارة بيف القرمزية، بفارق أنها موديل أحدث. وكانت تفوح من ثيابه، كما قالت كايسي، رائحة تشبه الرائحة التي تغمر مخازن الأغذية الصحيّة، ورائحة فيتامين نتنة كتلك الرائحة التي تتسرّب من قناني حبوب الأدوية فتجعلك تشعرين بالاختناق. وانزعجت أيضًا عندما اكتشفت أنه – مثلها - يستخدم شامبو ومنعم الشعر كليرول على شعره الخفيف، ويستخدم غسول الفم ليسترين الأزرق ليحافظ على صحة لثّته.

"إن مجرد التفكير بأنه يستخدم حمّامنا يثير اشمئزازي"، قالت لي في أوائل الربيع عندما كنّا نتناول الغداء في الكافتيريا تحت الضوء الفسفوري المشع، وكان خط أحمر يحيط بعينيها وفتحتي أنفها أيضًا - كان مظهرها أشبه بأرنب أبيض أقوى من المعتاد.

"لكن ألا تزالين تظنين أنه....."

"طبعًا". وعادت لتتناول البطاطا المقلية، تدفع قطعتين منها في فمها معًا بعد أن تغمرهما في صلصة البندورة، "لكنه بشكل عام شخص تافه".

"تافه. لا، كيف ذلك؟"

"تعرفين كيف أنه لم يذهب إلى الكنيسة قط كما أظن قبل أن ينضم إلى فريق دراسة الإنجيل الذي تشارك فيه؟ حسنًا، أما الآن فقد أصبح يبدو مسيحيًا متزمتًا أكثر من الجميع". ثم هزّت رأسها وأضافت، "هل يحاول إثارة إعجاب أمّي؟ هل يؤمن حقًا بهذا الخراء؟ أم أنها طريقة محسوبة حتى يسيطر علينا ويتحكم بنا – يتحكم بي؟"

"مثل ماذا؟"

"مثل الأمور المتعلقة بالثياب والمكياج".

نظرتُ إلى قميصها الأسود القصير الأكمام وإلى بنطالها الجينز الممزّق، وإلى عينيها اللتين بدتا مثل عيني حيوان الراكون، وإلى أحمر الشفاه الأرجواني اللون على شفتيها. "يبدو أنك تمكنت من تفادي تلك الرصاصة جيدًا، حتى الآن".

"حتى الآن، نعم، لكن لا يمكنك أن تتخيلي ماذا يحدث. فهما يفتشان في خزانة ثيابي. و'صادرا' ثلاثة تنانير لأنها 'قصيرة جدًا'. وقال لها إن كعوب الأحذية التي تنتعلها وتذهب بها إلى الحفلات

عالية جدًا، وأن عليّ أن أزيل بعض الملصقات من على الجدار - مثل ملصق مسلسل "الخارق للطبيعة"، لأنه قال إنه ليس 'ملائمًا' لأن فيه شياطين".

"أم لأن الممثلين فيه مثيرون جدًا؟"

"قد يكون ذلك أيضًا. لكنهما أصبحا فجأة يريدان أن يعرفا جميع أفلام الفيديو التي أشاهدها على اليوتيوب، وجميع المواقع التي أزورها على الإنترنت، وكلّ كتاب أقرأه، وكلّ أغنية أسمعها..."

"وهل هو الذي يفعل ذلك؟ أم أمّك أيضًا؟"

"كلاهما. لكنّ كلّ ذلك بأوامر منه".

"كيف عرفت؟"

"أعرف ذلك".

صدّقتها. ليس من المفترض أن تكوني طبيبة نفسية لتري كيف يستطيع أن يجعل بيف تنفذّ كلّ ما يطلبه منها. "وماذا عن الشيء الآخر؟"

"أيّ شيء آخر؟"

"حسنًا، كنت تظنين... قلتِ لي من قبل، في عيد الشكر، بأنه ربما..." إذا لم تتذكّر ما كانت قد قالته، فلا ينبغي لي أن أذكّرها به. فمن المستحسن أن تكون قد نسيت ذلك، وهذا يعني أنه غير صحيح.

"تقصدين أنني كنت أظن أنه كان يبحث عنّي، وأنّه وجد أمّي لأنه يريد الوصول إليّ. هذا ما تقصدينه، أليس كذلك؟"

أومأتُ. لم أفهم لماذا شعرتُ بالحرج.

"انظري"، قالت، ولأنني أعرفها كما أعرف نفسي، فإنني أستطيع أن أعرف أنها كانت جادّة فيما تقول مع شيء من التمثيل في

الوقت نفسه، أنها "تمثّل بأنها جادّة" كما لو كانت تمثّل في حلقة من حلقات مسلسل "الخارق للطبيعة" أو شيئًا من هذا القبيل، معالجة نفسية درامية للمراهقين تشبه الحياة ولا تشبهها في الوقت نفسه. "انظري، لا أعرف بالتحديد ماذا يحاول أن يفعل، لكنّه يرمقني بنظراته أحيانًا - أراه يرمقني من خلال تلك العينين الصغيرتين – فينتصب الشعر خلف رقبتي".

"لكن هل إنه..."

"إنه لا يفعل أيّ شيء. لا يقول أيّ شيء. لا يوجد شيء يمكنني أن أقوله فيقع في مشكلة. لا شيء تعرفين أنه خطأ، لكنّه بدأ يذكر اقتباسات من الإنجيل -'من الكتاب المقدّس'، كما يدعوه - ويبدو أنه يدرس ذلك بعناية كما لو كان يحفظ هذا الهراء عن ظهر قلب كأنه واجب مدرسي..."

"مثل ماذا؟"

"مثل 'وأعمال الجسَدِ ظاهرَةٌ، التي هي: زِنى وعهارةٌ ونجاسَةٌ ودعارَةٌ...' أو 'من يكتم خطاياه لا ينجح، أما الذي يعترف بها ويتخلّى عنها فإنه يجد الرحمة' – أشياء مجنونة، لإثارة الخوف".

"وأمّك؟"

"أمّي... كما لو أن الله قد أرسله إلينا. كأنه لم يخطر لها في حياتها أنها ستكون محظوظة إلى هذه الدرجة". وأخفضت كايسي رأسها إلى الطاولة، وللحظة لم يبد عليها أنها تتظاهر، ولم يعد هناك قناع على وجهها، وبدت تعابير وجهها حائرة وحزينة. وعادت لتبدو مثل الطفلة الصغيرة التي كانت من قبل. "لا أريد أن أكون أنا من يدمر كلّ ذلك لها. لا أستطيع أن أفعل ذلك".

كنت قد سمعت ذلك من بيتر، لكن شعورها باليأس بدا حقيقيًا، كما لو كان له لون وقد ملأ الهواء. كان مثل أوكسيد الحديد. حادًا ولاذعًا.

"ماذا يمكنني أن أفعل يا كاس؟ كيف يمكنني أن أساعدك؟"

فعادت إلى ذاتها المقنّعة، وأطلقت ضحكة عالية، مليئة بالسخرية، وقالت: "تقول داليا إنّني أستطيع أن أذهب وأعيش في بيتها – ماذا يمكن أن يحدث برأيك؟"

"هذا غير جيد". كنت أحاول أن أعيدها إليّ، أعيد الفتاة الحقيقية التي فيها، وأضفت، "لكن أمّك قد لا تقول لا لي ولا لأمّي إذا أردت أن تأتي وتعيشي معنا في البيت لفترة من الوقت. أستطيع بسهولة أن أسأل..."

"هذا لطف كبير منك، يا جوجو. أنت الأروع دائمًا، لكن كما تعرفين لا أستطيع أن أقيم في بيتكم. لا يمكن ذلك".

"لمَ لا؟ فلدينا مكان واسع، وأمّك تعرفنا جيدًا..."

"صدقيني" – حتى أنها وضعت يدها على ذراعي كما لو أن مخرج هذه الحلقة التلفازية قد اقترح هذه الحركة لتُظهر التوليفة الملائمة من الصدق والزيف – "إنها ليست فكرة جيدة".

لم يستطع أصدقائي الجدد، مثل جودي وجينسن، أن يفهموا شدة إخلاصي لكايسي. إذ توجد فسحة واسعة من الزمن عندما تكونان صديقتين منذ الحضانة. فكلّنا نقدم استثناءات في الأحكام التي نطلقها على أشياء كهذه. لكن نبرة كايسي عندما قالت إنه ليس باستطاعتي أن أساعدها – فقد رأيت فجأة، مع أنني كنت أشعر بأن صداقتنا، بالرغم من تعرضها إلى عوائق ومسالك وعرة، فلا تزال

هي الأنفس والأغلى بالنسبة لي، أنها تظن أن بإمكانها أن تسخر مني في وجهي. فإذا كنت أتصرف وكلمات أمّي في رأسي ("انتظري وستتغيّر... فالأشياء تبدو مختلفة بحسب المكان الذي تكونين فيه!")، فقد كانت هي تتصرف بتراتبية مميّزة في داخلها، تعتبر فيها نفسها ريجينا جورج في مسلسل "فتيات حقيرات" وأنا جانيس. بصراحة، إذا أرادت أن تلعب هذه اللعبة، فإنني أستطيع أن أعدّد اثنتي عشرة طريقة أتفوق فيها عليها، بدًا من الدرجات التي أحصل عليها في المدرسة، إلى بيت والدَيّ، إلى نهديَّ، وإلى أخلاقي. لكنني لا أتباهى بهذه الأمور - أعرف أنه ينبغي ألاّ أردد هذه الأفكار القبيحة بصوت مسموع، حتى لأمّي، لكنها تقبع في داخلي. ولم أشعر بأنها جرحت مشاعري فقط، وإنما أحسست أيضًا بأنني أصبحت أكرهها بعض الشيء.

تبيّن لي أنّ باستطاعتي أن أكنّ لها شيئًا من الكراهية، وبما أنني لم أقل لها ذلك، لأن صداقتنا بدأت تسير على هذا الدرب المتقطع الذي لم يكن يسمح بإجراء مناقشات وجدالات، لم يطرأ أي تغيير ملحوظ على علاقتنا. ولم تعرف أن مشاعري نحوها قد تغيّرت – وأظن أنها لن تعرف. ويمكنني أن أضيف أيضًا إلى قائمتي بالأمور التي أتفوق عليها الحقيقة بأنني أكثر التزامًا وحساسية منها، وأنني أستطيع أن أعرف متى تكون كاذبة، لكن يبدو أن العكس غير صحيح.

في فصل الربيع ذاك، كانت حياتي الخارجية مفعمة بالنشاط، بين المدرسة وفريق الخطابة. وكانت حياتي الداخلية مفعمة بالنشاط أيضًا، بالاستماع إلى أخبار كايسي الحميمة كما لو كنت لا أزال صديقتها المحبوبة، بينما كنت أشعر كأنني جاسوسة، أجمع معلومات لأدوّن تقريرًا مهنيًا.

لم يكن هذا هو السبب الذي جعلني أصادق بيتر. فقد أخذ يتقرّب مني في ذلك الشتاء بعد انتهاء العلاقة بينه وبين كايسي. لم نكن نلتقي في المدرسة - كان عَدّاءً، بطلًا في الجري، وسيمًا حتى عندما يتبلل شعره الغامق بالعرق، وكان شغوفًا بمادتيْ الرياضيات والعلوم. لكنّه اتصل بي ذات ليلة في يناير، ودعاني لأن نلتقي في المطعم في رويستون لنتحدّث عن كايسي، لأنه، كما قال، يشعر بالقلق عليها. كان ذلك عندما حدّثني عن انفصالهما، وأنها هي من اختار ذلك، لكنّه كان يأمل في أعماقه بأن يتمكنا من حلّ الخلافات التي نشأت بينهما في وقت قريب.

ثم بدأنا نتكلّم، في أحيان كثيرة، على الهاتف. ربما عدة مرّات في الأسبوع، صداقة غريبة، قلما كنا نتحدّث وجهًا لوجه في البداية. ففي الحياة في مدرستنا المتوسطة، لم تكن هناك وسيلة أخرى لقضاء وقت مع بعضنا. وفي حين كنّا نتحدّث في البداية عن كايسي، غالبًا - كيف أنها لم تكن تعرف نفسها جيدًا، ومدى تأثير داليا عليها، وكيف أنها تسير في اتجاه الشمس المظلمة بين تلك الحفنة من الأصدقاء في الحفلة بطريقة أثارت فزع بيتر الذي أبدى حماسة شديدة ليكون منقذها – ومع مرور الوقت، بدأنا نتحدّث عن أمور أخرى أيضًا: الضغوط التي يمارسها عليه والداه (كان أبوه مهندسًا في هينكيل، ولدى أمّه مكتب محاماة في نيوبريبورت "لا شيء مميّزًا"، قال، لكنها ترى أن كونها محامية فهذا شيء مميّز، وقد وضعه ذلك في المجموعة الثانوية للأطفال في المدرسة التي وجدت فيها نفسي أيضا حيث كانت الأشياء فيها متوقّعة)، أو عن الأحاديث التي تدور في المدرسة (الحفلات التي كان يحضرها ولا أحضرها أنا غالبًا، والأشياء

المضحكة أو الصادمة أو المتوقّعة التي يفعلونها، وإلى أي حدّ كانوا يسكرون أو يتعاطون المخدرات)، أو كنا نبدي ملاحظات مضحكة عن الأساتذة أو الطلاب. كان يتمتع بروح مرحة وكان دقيق الملاحظة – فقد قال إن صوت المسيو فافريو، أستاذ اللغة الفرنسية الكندي والذي يدرّب رياضة الهوكي أيضًا، يشبه وقوقة البطة عندما يتكلّم في مكبر الصوت، أو عندما بقيت بعض البالونات معلقة في سقف صالة الملعب المغلقة بعد حفل الرقص الشتويّ كانت جثثها المطّاطيّة تتدلّى من السقف مثل واقيات جنسية ملوّنة زاهية طوال الأسبوع؛ أو الرائحة التي تغمر الكافتيريا في أيام البرد والتي تشبه، بشكل غريب، رائحة مخلفات كلبهم، لابرادور، عندما يضعها في كيس. كان يثير ضحكي، وكنت أُضحكه، ونعم، كانت كايسي بيننا، سبب صداقتنا، لكنّها بدأت تبدو أقل أهمية عندما بدأ الشتاء ينتقل إلى الربيع.

لن تعود إليه. أصبح ذلك جليًا. كانت ترتاد الحفلات في ذلك الشتاء، تشرب وتغازل وتتسلل إلى الزوايا المعتمة مع بعض الفتيان الآخرين. هذا ما أخبرني به بيتر. لكن عندما سألتها عن ذلك وقلت لها محذّرة "انتبهي" بطريقة جدية، لكن بإخلاص - قالت لي إنّها تعرف ماذا تفعل، وأنها لا تشرب أكثر من كأسين ("فكّري بالأمر يا جوجو"، قالت، "إذ تأتي أمّي وتأخذني بعد كلّ حفلة أحضرها. فإذا كنت أسكر فإنها ستكتشف ذلك بسهولة؟ فهي ممرضة كما تعرفين"). وأكدّت لي أنها لم تصل قط إلى حدّ السكر، وقالت إن تصرفها لا يتجاوز مرافقة بعض الصبية، لكنها اعترفت بأنه يوجد بعضهم، وكلّهم من الصفّ الثامن، وأحيانًا من الصفّ التاسع.

أردتُ أن أصدّقها، لكن بيتر أخبرني أشياء أخرى، ولا يوجد

سبب يجعله يختلقها. أنظرُ إلى الوراء، وأتساءل هل تخبرني ما تريد أن يكون الحقيقة. لكنّي لا أستطيع أن أربط كلّ ذلك ببيف وأندرز شوت اللذين يحاولان أن يجعلاها ترتدي ثيابًا محتشمة كالتي ترتديها النساء من الطائفة المينوناتية، لكنهما، بالرغم من ذلك، لم يمنعاها من ارتياد الحفلات. هل كانا يتظاهران بأنهما يهتمان بها، في الوقت الذي ينشغل أحدهما بحبّ بالآخر؟ أم هل توجد لدى بيف دوافع مختلطة – كانت أمّي تقول دائمًا "الناس متناقضون" - وحتى عندما كانت بيف تزيد من جرعة ورعها الديني، كانت تحبّ في أعماقها، بدون وعي منها، أن تكون كايسي طفلة محبوبة، تتصرّف كما كانت بيف تحلم أن تتصرّف، وأن تكون محبوبة من الآخرين الذين كانوا، في زمن بيف، سيرفضونها؟

أم هل بدأت كايسي تصبح كذابة ماهرة، بوجهها الجميل الذي يشبه وجه طفلة صغيرة، وتلك العينين الكبيرتين، وذلك الشعر الذي يكاد يكون أبيض براقًا والذي يبهر الكبار ويجعلهم يصدّقون ما تريد هي أن يصدّقوه؟ وعندما قالت لي إن كلّ شيء على ما يرام، وأنّها تتحكم بالأمور، وأنّها تعرف حدودها، صدّقتها. كنت أجلس قبالتها في كافتيريا المدرسة ذات الأضواء التي تشبه أضواء السجن والروائح غير المستحبة التي تعبق فيها، صدّقتها. وفي الآونة الأخيرة فقط، عندما كنت أتكلّم مع بيتر، تساءلت، وساورتني الشكوك، وبصراحة، لم أصدّق ما قاله. ورحت أدافع عنها مع أن الآخرين بدأوا يقولون عنها أشياء، يفترضون أشياء، ويكررونها. كنت أهتزّ وأنا جالسة في الحافلة في طريقي لحضور مسابقة الخطابة، عندما بدأت تتفتح أزهار الكرز الأولى مثل فتيات في فساتين حفل التخرج، والمطر على الطريق

السريع يصدر صوت انزلاق تحت العجلات، عندما سألتني جودي هل صحيح ما يقال بأن كايسي تختلي مع الصبية في غرفة خزانات الملابس بعد انتهاء دوام المدرسة، وتفعل أشياء. "تفعل أيّ أشياء؟"

"تعرفين. أشياء. كان هناك بعض الفتيان من فريق لاكروس بالإضافة إلى كايسي. ذلك النوع من الأشياء".

"إن ما تقولينه هراء يا جودي". ارتعشت يداي في حضني، "لا أستطيع أن أصدّق أذنيّ، إنّ مجرّد تكرار ذلك هُراء. ماذا لو كنتِ أنتِ؟"

"لن أكون أنا أبدًا".

"ألا تعرفين. فبعض الأشخاص يختلقون قصصًا عن كايسي. إنهم يغارون منها".

"يغارون؟"

"لأن الصبية يحبونها. لأنها لطيفة".

"أتظنين أن كايسي لطيفة فعلًا؟" كانت جودي بين منزعجة ومشفقة. "لا أحد آخر يرى أن صديقتك لطيفة، بل يرونها حزينة ومشوشة. والسبب الوحيد الذي يجعلها لا تزال تكلّمك هو لأنك آخر شخص يعتقد أنها لطيفة. والسؤال الكبير هو، لماذا لا تزالين تكلمينها؟"

اتصلتُ بكايسي في تلك الليلة. كان هاتفها الخلوي مغلقًا، فحاولت الاتصال بها على الهاتف الأرضي، وهذا ما لم أفعله منذ زمن. فوجئت عندما ردّ عليّ أندرز شوت - بطريقة ما، لم يظل حقيقيًا

بالنسبة لي طوال هذا الوقت: عندما سمعت صوته الهادئ، الناعم، ذُهلت عندما أدركت أنه لا يزال موجودًا، طوال هذه الأشهر، في ذلك البيت، في بيت كايسي، يجلس كلّ ليلة إلى مائدة العشاء، ويعبث صباح كلّ يوم بالمذياع، وتعلق شعرات عانته المتناثرة في البالوعة، وأثر رائحته يعبق في غرفة نوم أمّها.

قال: "لا أظن أن بإمكان كايسي أن تأتي لتردّ على الهاتف"، فقلت له: "أنا جوليا. هل تعرف متى ستعود إلى البيت؟"

فأجاب، "إنها في البيت، لكنّها لا تستطيع أن تأتي لتردّ على الهاتف الآن".

"فهمت"، قلتها.بطريقة تظهر أنني لم أفهم.

ثم قال موضحًا: "إنها قاعدة عائلية. على كايسي أن تنهي واجبها المدرسي قبل أن تلتقي بالآخرين".

أعطيته رقم هاتفي، مع أنها تعرفه. قاعدة عائلية؟ ماذا يعني ذلك؟ فهو ليس من العائلة أصلًا.

في تلك الليلة، لم تتصل بي كايسي. وعندما تكلّمنا عن الشائعة المنتشرة عنها في المدرسة، غضبت واتخذت موقفًا دفاعيًا على الفور، بل حتى بدا أن قليلًا من الخوف قد تملكها. "هذا كذب، يا جوجو. لا أصدّق أنك تسألينني هذا السؤال".

"أنا لا أسأل إن كنت قد فعلتِ ذلك، بل أخبرك ما يدور على ألسنة الطلاب".

"إن تكرار ذلك على مسامعي كأنك تقولين إن ما يقولونه صحيح".

"أنا لا أكرّره أمام أي شخص آخر هنا، أليس كذلك؟ كلّ ما

هنالك هو أنني أنقله لك".

هزّت رأسها، وقالت: "أنت تنحازين إلى أيّ طرف؟"

"هل توجد أطراف؟"

"الأصدقاء لا يقولون كلامًا بشعًا عن أصدقائهم".

"لم أقل. بل قلت لهم إن هذا كله كلام فارغ. لكني ظننت أنّك يجب أن تعرفي ماذا يجري".

ثم غيّرت الموضوع. وبدلًا عن ذلك رحنا نتحدّث عن الصعوبات التي تلاقيها في مادة الرياضيات، وسألتني إن كان عليها أن تأخذ دروسًا إضافية لتتدارك الأمر. وأرتني صورة حقيبة ظهر جلدية ثمنها مئتا دولار معروضة في محلات "17" وقالت إنها تريد أن تُقدّم لها هدية في عيد ميلادها لكنها تعرف تمام المعرفة أنها لن تحصل عليها.

ثم قالت: "لو كان أبي موجودًا، لأحضرها لي على الفور".

تذكّرتُ صوت شوت على الهاتف الليلة الماضية الذي يتصرّف كما لو كان والدها الحقيقي. "أنا متأكدة من أنّك تشتاقين إليه".

"حبيبتي، لا تتصورين كم أشتاق إليه"، قالت بصوت مسرحي، وأخذت تقلّب صفحات المجلة وتوقفت عند مقالة عن فرقة "وان دايركشن" الأيرلندية. وسألتني، "أيّ واحد من هؤلاء تريدين؟ بالتأكيد أن هاري ستايل شاب وسيم ومثير، لكنّي أرى أنه أكثرهم بروزًا، أليس كذلك؟ كأنه رئيس الفرقة".

ثم حاولتُ أن أفتح حديثًا عن فرقة "وان دايركشن" مع أمّي التي تحاول دائمًا أن تبدو أصغر من عمرها. فراحت تتكلّم لمدة خمس دقائق تقريبًا، ثمّ صرخت بصوت مفتعل متظاهرة أنها غاضبة. "يا للتفاهة!" صاحت، "لا يمكنني أن أتحمّل التفاهة!"

"عن أي شيء تريدين أن نتحدّث إذًا؟"

"ما رأيك أن نتحدّث عن السباق الرئاسي، بما أنّنا سننتخب رئيسًا لبلدنا - إمّا هو نفسه أو رئيسًا جديدًا - بعد ستّة أشهر تقريبًا؟ ما رأيك أن نتحدّث عن ذلك، بدلًا من أن نتحدّث عن فرقة وان دايركشن؟"

"هل علينا أن نتحدث عن ذلك؟"

"هذا الأمر مهم يا حبيبتي. يجب أن نفعل ذلك". ثمّ جعلتني أستمع إلى برنامج سياسي في المذياع، وعند العشاء مع أبي، ناقشنا الموضوع، كما لو كنت أحضر درسًا في الدراسات اجتماعية في البيت. ومع أنني كنت منزعجة من ذلك، فقد استمعت إليه.

كان بيتر أوندل يهتمّ بالسياسة أيضًا، كما تبيّن لي. فعندما ذكرت له البرنامج الإذاعي، قال إنه سمعه أيضًا، لا لأن أحدًا طلب منه ذلك بل لأنه يحبّ أن يستمع إلى برامج من هذا النوع، ونصحني بأن أبحث عن المجلات المتاحة على الإنترنت، لأن تغطيتها لهذه المسائل، كما قال، "قوية جدًا". وبنفس الطريقة التي أبحث فيها عن الفرق الموسيقية التي يوصي بها فتى وسيم - لا أتوقّع حقًا أن أحبّ الموسيقى، لكني أشعر بأنها واجب مدرسي من ضرورات المغازلة، وهو ما تطلق عليه أمّي إيروتومورفيا، وهو مرض تنسبه إلى نصف الفتيات المراهقات في أمريكا – رحت أبحث عن المجلات التي ذكرها لي على الإنترنت. لم أجد المقالات مثيرة، لكنّها لم تكن سيئة أيضًا. وطلب

مني أن أشاهد فيلمًا وثائقيًا يدعى "أرض الغاز" قال إنه يشرح أساليب استخراج الغاز. أصبح بإمكاني أن أعرف القضايا التي يهتم بها بيتر كثيرًا - الطبيعة والبيئة واستخراج الغاز، ومناقشة مسألة الاحتباس الحراري في العالم - كانت قضايا أكبر من حياتنا الفردية.

بشكل ما، بدت المسائل البيئية بعيدة ومجرّدة، لكنّي كنت لا أزال أظن أنني أستطيع أن أكتب خطابًا حماسيًا عن تأثير ارتفاع درجة الحرارة في العالم. فتوجهت إلى السيد كارترايت واقترحت عليه أن يكون موضوع مشروع الخطاب الأخير الذي سأكتبه في تلك السنة، وكان ذلك يعني أن تنتقل المجموعة من مرحلة "إلقاء خطب حماسية وقراءة نصوص" إلى مرحلة "النقاش الحقيقي" لأنني جديدة في الفريق: فقد كان تلاميذ الصفّ الثامن هم الذين يديرون عادة "المناقشات الفعلية". فوافق السيد كارترايت، وقال إن أمامي أسبوعين لكتابة المسوّدة لأنه لم يتبق سوى شهر أو أكثر بقليل على موعد المسابقة.

وقال إن أفضل طريقة لكتابة خطاب مؤثر تكمن في جعله شخصيًا. لكن فيضانًا لم يغمر بيتنا، ولم يتهدم بسبب إعصار، ولم تسقط أغصان شجرة على سيارتنا. يمكنني أن أتحدّث عن الرعب الذي تملكني عندما هبتّ العاصفة الرعدية الثلجية – أول مرة رأيت فيها البرق في عاصفة ثلجية ظننت أن نهاية العالم قد أوشكت- لكن هذا الموضوع لا يثير الكثير من الاهتمام. كان بإمكاني أن أكتب عن الدمار الذي ألحقه إعصار كاترينا، لكن حدث ذلك منذ زمن بعيد – أصبح ذلك من الماضي – بالإضافة إلى أنني لم أزر نيو أورلينز قط. يمكنني أن أحاول أن أكتب شيئًا عن الزلزال المروّع الذي أصاب اليابان مؤخرًا – الذي سبّب حادثًا نوويًا أيضًا، منذ حوالي سنة. لكن

لا توجد لديّ أيّ علاقة شخصية بما حدث، ولم يكن، لسبب أو لآخر، سببًا من أسباب ارتفاع درجات الحرارة في العالم أو الاحتباس الحراري. فعلى الرغم من أنك تستطيع أن تجادل بأنه ناجم عن الاحتباس الحراري العالمي، فإنك لا تستطيع اختزال الأمر به فقط. فذكّرني أبي عن رودي، المشرف، وقال: "أتذكرين تلك العاصفة الغريبة التي حدثت منذ سنتين؟ الإعصار... من؟ من كان؟"

"لا أتذكّر" قالت أمّي.

"فتاة أم صبي؟" أحببت أنهم يطلقون على العواصف أسماء ذكر أو أنثى.

"لا أعرف. المسألة كلّها هي أنها كانت عاصفة غريبة الأطوار، إعصار هبّ في وقت متأخّر، لا بد أنه هبّ من جهة بعيدة في الشمال. كانوا يتوقّعون حدوث فيضان ساحلي فقام السكان جميعًا بتغطية بيوتهم بألواح خشبية وغادروا المنطقة الممتدة على طول الشاطئ، لكن الأمر لم يكن سيئًا في معظمه كما كانوا يخشون".

"في معظمه؟"

"رياح عاتية وأمطار، من تلك الأمطار التي تغمر الطرقات خلال عشرين دقيقة، لكنها كانت أمطار متقطعة، غير متواصلة".

فقالت أمّي فجأة: "أذكر تلك السلسلة من الأعاصير الصغيرة، أليس كذلك؟ ماذا تُسمَّى؟"

"لا أتذكّر".

فقلت: "يمكنني أن أبحث عنها الآن في القاموس في هاتفي". آنذاك، كنت الشخص الوحيد في الأسرة الذي يوجد لديه هاتف ذكي. "ما هو؟ اسم إعصار صغير؟"

"إنه ليس إعصارًا بكل معنى الكلمة"، قال أبي، "إنه شبيه بإعصار".

"ماذا تفعلين بهاتفك على الطاولة؟" رفعت أمّي صوتها، ثم أضافت، "لقد وضعنا قواعد بهذا الشأن".

"إنه ليس على الطاولة، إنه بجانب الطاولة".

"وهل هذا يجعل الأمر مقبولًا؟"

"دعيها تبحث عن الكلمة. إن ما يزعجني هو أنّني لم أتمكن من تذكّرها".

"يا إلهي".

"زوبعة ترابية؟ أليس كذلك؟"

"لا، استمري".

"ريتش! مازلنا جالسين إلى المائدة".

"لن تمنعيها من أن تحضر الموسوعة، أليس كذلك؟"

"لكن ..."

"لكنها لن تستطيع أن تجدها هناك لأنها لا تعرف الكلمة".

"ديريتشو؟"

"صحيح! إنها هي. شكرًا، آنسة جوليا. سلسلة من أعاصير ديريتشو. ماذا تقول عنها الموسوعة؟"

"إنها عاصفة رعديّة، لكنها ليست أعاصير. ' هذه العواصف تبعث رياحًا شديدة تسير في خطّ مستقيم وقد تلحق أضرارًا تشبه الأضرار التي يُلحقها الإعصار'".

"انظري؟ هذا صحيح تمامًا. أذكر أنني تكلمت حول هذا الموضوع مع رودي عند موقف السيارات أمام رايت إيد. لقد شرح لي

كلّ ذلك. إنه ينجم عن إعصار. سلسلة من ديريتشو. تبدو الكلمة مكسيكية، دوريتوس وناتشوس معًا. كان منزعجًا، كما لو أنه كان هناك شيء في كلمة إعصار. درجة أعلى من العاصفة".

"بابا..."

"المسألة هي أن ديريتشو دمّر بيته. بيت خشبي صغير يقع في الغابة على طريق فاين تيل بالقرب من المحمية الطبيعية. كان يعيش فيه مع أمّه، وحسب ما أذكر، فقد ماتت منذ زمن، وكان ذلك مدمّرًا بالنسبة له. كنت قد ذهبت لزيارته مع إيريك في ذلك الحين – كان قد سُوّي على وجه الأرض كما لو أن عملاقًا قد داس فوقه".

"وأين يعيش الآن؟"

"في نفس المكان"، قال أبي، ونهض لينظف الطاولة.

"ريتش! هذه مهمة جوليا".

"أعطي الطفلة استراحة. هل تريدان أن أنهي قصتي؟"

"هل بنى البيت من جديد؟"

"لا، اشترى بيتًا متنقلًا ووضعه فوق أساس من الاسمنت. إنه في منطقة نائية في الغابة. في الأساس فهو لا يستطيع أن يدفع أقساط التأمين. إنه رجل بدائي. ويحتفظ بتلك الكلبة في مكان خارج البيت، وسمعت أنها تعوي في الليل مثل ذئب".

"يا لها من قصّة عظيمة، لكنّها لا تساعد جوليا في كتابة خطابها".

"هل دمرّ إعصار ديريتشو البيت؟ أم أن شجرة سقطت فوقه؟"

"يمكنك أن تسأليه. لكن العاصفة مزّقت خطًّا من أشجار

الصنوبر القديمة كما لو أنها كانت عيدان ثقاب - لا يزال يعيش هناك، مثل طريق قُطع عبر الغابة – وأظن أنّ البيت كان يقع في الطريق إلى الغابة. كومة ملتوية من الحطب تتناثر حولها قطع أثاث ملوثة بالطين. عندما ذهبت إلى هناك، هكذا كان".

تنهّدت أمّي وقالت: "هذا ليس شيئًا مبهجًا"، وأخرجت البوظة بطعم الفانيلا من الثلاجة، ثم قالت، "نحتاج إلى لحظة باريسية الآن. هل يرغب أحدكما في قطعة حلوى بوار بيل هيلين؟ سأسخّن الشوكولاتة السائلة إذا غيّرتما الموضوع".

"أظن أنه يجب عليكِ أن تقابلي رودي وتجري معه حوارًا" قال أبي، "لأن قصّته ستحفزك على كتابة خطاب عظيم".

فسألته، "لكن هل كان ذلك ناجمًا عن الاحتباس الحراري العالمي؟"

وضعت أمّي شرائح الأجاص في أطباق ثم وضعت فوقها قطعًا من البوظة.

"طبعًا بسببه. فمن سمع عن إعصار... أو ديروتشو، كهذا يحدث في أقصى الشمال في شهر نوفمبر من قبل؟"

"نعم"، قالت أمّي، "لكن هذا وقت العشاء، ويستطيع رودي أن ينتظر. حبيبتي، لماذا لا تحدّثينا عن لعبة اللاكروس التي جرت بعد ظهر اليوم؟ من فاز؟"

وهكذا جئت لأجري مقابلة مع رودي مولنارو عن بيته الذي دُمّر وسوّي مع الأرض. الأمر الذي جعله حليفًا إلى حد ما. فلم أعرف

حتى الآن أحدًا يكبرني سنًا لم يكن على صلة قرابة مع أطفال أعرفهم، أو أصدقائي في المدرسة، لذلك، كان رودي أول شخص بالغ أتعرّف عليه عن قرب. وبدا لي رودي، ذلك الشخص البالغ، بشكل غريب مثل طفل – كما لو أن تلك الأشياء قد حدثت لك، ولم يكن بإمكانك أن تغيّر مسار الحياة. كما لو كان الأمر مُقدّرًا سلفًا، على نحو ما.

أخذني أبي إلى بيت رودي بعد ظهر يوم الأحد، وجلس على مقعد بلا مسند أمام طاولة المطبخ، وراح يقرأ الصحيفة بينما رحت أجري مقابلة مع رودي باستخدام جهاز تسجيل صغير قديم أعطتني إياه أمّي – "أدوات مهنة الصحفي"، قالت لي وهي تبحث عنه في درج مكتبها، ثم لوّحت به بانتصار عاليًا.

"أنا أعرفك"، قال رودي عندما وصلنا، وأشار بإصبعه القصير المكتنز، "فقد كنت تذهبين مع تلك الفتاة الصغيرة الشقراء. شعرها أبيض كالملاك. رأيتكما في البلدة".

"لم يعد ذلك الآن"، قلت. "لكن، نعم".

كادت ركبتاي تلامسان ركبتيْ رودي على الأريكة الصغيرة المكسوة بقماش كودري بني اللون. وسرحت في تفكيري عندما رأيت ثقبًا في المسند بجانب فخذي نتيجة حرق سيجارة: فقد رأيت اسفنجة صفراء متلبّدة داخل الثقب، وشعرت بالرغبة في أن أدخل أصبعي فيها وأعبث بها. ثم جلست على جانبي الأيمن لأوقف ذلك التفكير.

كانت قصّة رودي حزينة. فقد نشأ في البيت الذي يقع في الغابة، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية اشتغل عاملًا كهربائيًا في شركة في بلدة لورانس، وبعد أن وفّر مبلغًا كافيًا من المال انتقل من بيت والديه واستأجر شقّة في وسط مدينة رويستون، فأصبح بذلك أول

شخص يقيم في شقّة في رويستون ألتقي به، على حد علمي. ولفترة من الوقت، كانت عنده صديقة، وتحدّثا عن الزواج، لكنّها أرادت أن ينتقلا إلى بوسطن، أما هو فقد أراد أن يبقى قريبًا من بيت والديه، حيث يعرف الجميع والجميع يعرفونه. ثمّ أصيب والده بنوبة قلبية وهو يقود شاحنته الصغيرة على الطريق السريع فتحطّمت، ولم يبلغ التاسعة والخمسين من العمر، وكان رودي في الحادية والثلاثين آنذاك (بعد أن ذهبت صديقته)، وأصبح في مواجهة خيار قاس.

كان وحيدًا في البيت الذي يقع في الغابة، وكانت أمّه مصابة بمرض السكري، وبما أن ساقها كانت مصابة لم يعد بإمكانها قيادة سيارة، فلم تتمكن من الانتقال إلى شقّته في وسط البلدة لأنه يتعين عليها أن تصعد الدرج وهي لا تستطيع، فاضطر رودي لأن يعود إلى البيت الذي يقع على طريق فاين تيل، وأصبح لديه بيسي، الكلبة من نوع جيرمان شيبرد، بدلًا من عروسته. ومع أنه كان يحبّها كثيرًا، لم يكن يدعها تنام في داخل البيت. وأمضى رودي معظم الثلاثينات من عمره في ذلك البيت - وخلع بدلة الكهربائي في لورانس سنة 2009 عندما حلّ الكساد وبدأت الشركة تخفض عدد العاملين فيها، مع أنه كان آخر موظف لم يكن على صلة قرابة مع دوغ بيرغداهل، صاحب الشركة ومؤسسها، الذي حزن كثيرًا عندما رآه يغادر الشركة. ثم بدأ يشتغل في أعمال صغيرة متعددة، وأصبح مسؤولًا عن حراسة وصيانة الأرض التي تملكها الجمعية، الأرض التي أقيمت عليها المصحة العقلية – وأصبح ذلك مصدر دخله الرئيس، بالإضافة إلى عقود تنظيف قصيرة الأجل لم تكن تدرّ عليه مبالغ جيدة، لكنها بالرغم من ذلك فهي عمل ولم يكن الحصول على عمل بالأمر الهين، مكّنته

من رعاية أمّه التي أخذت صحتها تتدهور منذ أن عاد ليعيش معها في البيت – وكان يشتاق كثيرًا إلى أبيه، كما قال رودي، لكن أبي قال إنّ السيدة مولنارو كانت تحبّ أن تشرب كأسًا أو كأسين، وهذا، كما أوضح لي أبي، يفاقم الأمر عندما يكون المرء مصابًا بمرض السكري. وهكذا أصبحت طريحة الفراش. ودمعت عينا رودي عندما تذكّر كلّ ذلك، ولم ندخل في تفاصيل كثيرة، لكنه قال إن دار العجزة كان ممتازًا، ولم يكن يعرف ماذا سيفعل لولاها، وكان يقصد بذلك بيف بيرنز بالذات. كان بإمكاني أن أتخيّل ما حدث، على الرغم من أن البيت المتنقل الذي نجلس ونحتسي فيه القهوة الآن ليس هو البيت الذي دمرته العاصفة، وتخيّلت أيضًا أنه لم يكن نظيفًا: السجاد يكسوه التراب، وكرات الغبار والحلقات الدبقة تتطاير فوق الأسطح. ويمكنني أن أتخيّل بيف المفعمة بالنشاط، البدينة، وهي تصدر من فمها قرقعة عندما تصل بسيارتها الهوندا سيفيك، والسمّاعة تتدلّى من رقبتها، بوجهها الوردي، تنبعث منها سحابة من رائحة حلوة، وأظافرها ترفرف وهي تصدر تعليماتها: شيء من النظافة في البيت، تقول وتمسح سطح إحدى قطع الأثاث، وترفع حاجبها، وتقيس النبض، وتغيّر حفّاضة، وفي النهاية - ملاك الموت – تعطي جرعتها المغرية من المورفين القاتل.

في غمرة ذلك، يصبح رودي حائرًا وممتنًّا، ممتنًّا. فلم يكن – وهو ليس - ما تدعوه أمّي ذكيًا، أو ما تطلق عليه شخصًا محنكًا. فقد كانت بيف تبدو له مثل منارة تنتصب فوق صخرة، نور مبهر ولطيف غيّر زاويته المظلمة في رويستون.

ماتت أمّه بعد أن أصيبت بجلطة دماغية "رحمة" قال إنّ

بيف قالت له، "لأنك تعرف أن دربها لا يسير إلاّ في اتجاه واحد" – في مارس 2010، عندما لم تكن ظهرت بعد دلائل تشير إلى قدوم الربيع فوق أرض الغابة، ولم تظهر طيور تغرد فوق الأغصان لمواساته، وتملك رودي شعور قوي بالوحدة، وعوت بيسي طوال ثلاثة أيام كأنّها تريد أن تطهّره من أحزانه.

لذلك، عندما هبّت العاصفة في أواخر فصل الخريف ذاك، ودمّرت المنزل، وسوّته على وجه الأرض، وحطّمت ما تبقّى من حياته التي يعرفها، أضحى الدمار كاملًا. لم يقل ذلك – لأنه لم يكن من ذلك النوع من الأشخاص الذين يقولون أشياء كهذه. في الواقع، نظر إلى يديه ودمدم، "إنه أمر سيء. سيء جدًا"، وصمت بعد ذلك ثلاث دقائق كاملة (ورحتُ أراقب الساعة الإلكترونية المنتصبة فوق الموقد في ذلك الصمت، وتبادلتُ نظرات مع أبي، وانتظرت)، كما لو أنه جعل تلك الكلمات القليلة تزهر في الغرفة من حولنا، خسارته الكاملة التي لا يمكن وصفها. وأدركتُ أنه يشعر بأن ثمة عدالة سوداء تلاحقه وتعمل ضده، وكان موت أمه يمثّل كلّ ما خسره حتى الآن، كما لو أن الطبيعة ترغمه على أن يفهم بأن عليه أن يبدأ من جديد، وأن لا شيء، أبدًا، سيكون كما كان في السابق.

في الليلة التي هبّت فيها العاصفة، كان يلعب البوكر في البلدة مع أصدقاء المدرسة الثانوية القدامى الذين يلتقي بهم عادة مرة في كلّ شهر. وعندما سمع أن أحوال الطقس ستكون سيئة، أخذ معه بيسي في الشاحنة – "إنها تكره العواصف. كلّ الكلاب تكره العواصف. إنها تشمّها قبل أن تهبّ" قال – ووضعها في السيارة فجلست في المقعد بجانب رودي وألصقت أنفها بالمقود، وشنّفت أذنيها. "عندما اشتدت

العاصفة، خرجت لأرى بيسي. كانت تعوي بشدة. حسنًا، لكنها كانت تعوي كأنها تبكي بحرقة. حرصت على ألاّ أركن السيارة في مكان قريب من الأشجار، لكي لا يحدث مكروه. فقد تسقط الأغصان على الأرض، كما تعرفين. لكن صياح بيسي حطم قلبي. فسألت صديقي هام إن كان بإمكاني أن أدخلها إلى البيت وأن تبقى في المطبخ، فقال طبعًا، فأدخلتها إلى المطبخ. لكنها لم تكفّ عن النباح. فضحكتُ أنا وأصدقائي من عوائها الذي لم يكن يتوقف، بيسي الكلبة القوية الضخمة خائفة من الطقس. ظننت أن ذلك بسبب الريح. صوت الرياح"، هزّ رأسه، "ثم عرض عليّ صديقي "هام" أن أمكث عنده حتى تهدأ العاصفة، وبقينا كلّنا، ولم نتوقف عن لعب البوكر - خسرتُ مئة دولار في تلك الليلة – وعندما عدت إلى البيت ورأيت ...يا إلهي، عرفت عندئذ أن بيسي كانت تعرف ما الذي يجري. وأظن أنها كانت تعرف متى جرى ذلك".

"أحسنت صنعًا لأنك أخذتها معك"، قال أبي.

"صحيح". ابتسم رودي. كان أحد أسنانه الأمامية رمادي اللون، سنّ تالف، لذلك كانت ابتسامته تشبه اليقطينة قليلًا. ولم تكن هناك بعض الأسنان في فمه، فبدا فمه متغضنًا. لم يكن يثير الخوف، كان باستطاعتي أن أرى ذلك عن قرب، بكرشه وأصابعه القصيرة المكتنزة وخصلات شعره الرمادية الناعمة التي تكسو رأسه. وكانت بشرة جلد خديه حمراء وسميكة، أما عيناه الداكنتان فكانتا تشبهان عيني كلب، فيهما تفاؤل وحزن. "إن أكثر شيء عقلاني فعلته في حياتي هو أنني أخذت بيسي معي في تلك الليلة". استطعت رؤيته وهو يتصوّر الإمكانية الأخرى. "لا"، قال، "لا أظن أنني كنت سأقدر

على تحمّل ذلك، فهي كلّ ما لديّ. إنها أسرتي. إنها حكمتي".

عادت بي الذاكرة إلى بعد ظهر ذلك اليوم في أواخر الصيف، عندما كنّا، أنا وكايسي، مختبئتين في المصحة العقلية، ننظر من المبنى إليه وإلى بيسي إلى الأسفل في سيارته، وكيف كنت متأكدة أنها كانت تعرف أننا كنّا هناك. "إنها كلاب ذكية، فصيلة جيرمان شيبرد، أليس كذلك؟"

فقال: "أكثر ذكاء من أناس كثيرين. من معظم الناس الذين أعرفهم".

ثمّ تذكّرت كيف تخيّلت أنه يستمع إلى موسيقى سبرينغستين بصوت مرتفع، يتذكّر أيام شبابه المريحة الخالية من الهموم، أما الآن، بعد أن رأيت رودي عن قرب، عرفت أن ما تخيّلته عنه ليس صحيحًا. فهو ليس ذلك الرجل، الواثق من نفسه، الذي يضع ذراعه حول فتاة في مقصورة شاحنته. كنت أعرف النسخ الأصغر سنًا من الفتيان مثله في المدرسة، الذين كانوا فظين، وحيدين، بطيئين بعض الشيء، ينجذبون إلى الصبية الآخرين الذين يشبهونهم ويشعرون بالراحة في صحبتهم، يأملون ولا يتوقّعون الكثير، ويشعرون بالامتنان، بالامتنان على ما هو متوفر لديهم.

كان الخطاب الذي كتبته جيدًا – "توليفة تكاد تكون مثالية" كما قال السيد كارترايت بين الشخصي والعلمي. فقد اخترتُ بضع تفاصيل من قصّة رودي - التفاصيل التي تجعل العيون تدمع، كما في تلك اللحظة، في صباح اليوم الذي أعقب العاصفة، عندما وجد

صورة أمّه مع أبيه عندما كانا شابين في وسط الوحل بين الأغصان والأنقاض المبللة. وشكّل حدس بيسي قصّة عظيمة وكان أهم جزء في القصّة كلها بالنسبة لي، وبما أن ذلك لم يكن له علاقة كبيرة بالاحتباس الحراري العالمي، لم أذكرها. يجب أن تجعلي القصّة في شكل مناقشة، قال لنا السيد كارترايت، وهذا يعني أننا يجب أن نختار ما يجب أن نذكره وما ينبغي ألاّ نذكره. فبدأت القصّة برودي، ثم انتقلت إلى إعصار كاترينا، ثم إلى أحداث مناخية أخرى أكبر شأنًا، ثمّ عرضت الإحصاءات التي جمعتها. وكان السيد كارترايت قد قال إننا يجب أن نتطرق دائمًا إلى المسائل الشخصية، لا الجماعية – إذ إننا نشعر بالحزن لموت طفل أكثر مما نحزن عندما نسمع خبر موت 500 أو 1000 شخص معًا – ووضعت هذه الفكرة نصب عيني. ولعلي جعلت رودي يبدو بطلًا يتحلى بالصبر أكثر مما هو في حقيقة الأمر (ففي الحياة الواقعية، قال أبي، إنه منذ موت أمّه بدأ رودي يقيم صداقة وثيقة مع ابن عم "جوني ووكر" المسكين)، لكن ذلك ساعد في إيصال فكرتي ولم أختلق شيئًا من بنات أفكاري. وقال السيد كارترايت إنه يرى أن للخطاب حظًا وافرًا للفوز في المسابقة، وكان ذلك بمثابة ثناء كبير لم يقله لأحد غيري، فغمرتني السعادة. وفي النهاية، تبوأت المرتبة الثالثة. أما التلميذان اللذان تقدّما عليّ فكانا من الصفّ الثامن، لذلك ظللت أرى أنني حققت انتصارًا. حتى جودي التي كانت تشارك في مجموعة مختلفة تمامًا، وتؤدّي دور مناجاة من مسرحية "ترويض الشرسة"، فقد شعرت بالغيرة مني.

مضحك ما يفعله الزمن: كلّ يوم قطرة من الماء، ودون أن تدرك، يبدأ سطح قطعة الحجر التي تنهال عليها قطرات الماء يكتسي بطبقة ناعمة من العشب. وفي نهاية الربيع، لم أعد أفكّر كثيرًا بكايسي. لا أنني لم أعد أراها، وإنما لأننا لم نعد نمضي وقتًا معًا. وأصبح بيتر أوندل صديقي بدلًا من أن يكون صديقها، وإذا كانت علاقتهما الرومانسية الفاشلة هي سبب صداقته لي، فإني أشعر بالامتنان لكايسي. ومع أنه كان يكنّ لها قدرًا كبيرًا من الحبّ، بل ربما ازداد حبّه لها بعد أن افترقا، كنت أعرف أنها لا تناسبه أبدًا: وهذا أمر مؤكد، فقد كان عداءً يجري مسافة أربعمائة متر، وكان يُدعى إلى جميع الحفلات، لكنه كان في أعماقه شاعرًا، فقد كان يريني القصائد التي يكتبها، وكان يحدّثني عنها، ويسألني عن رأيي حول بعض الكلمات والأفكار. كان يرى البعض أنه يؤلف قطعًا موسيقية ثم يحوّلها إلى أغان – وكانت هذه، بخلاف قصائده الأخرى، مقفّاة - وكان يقرأها لي أيضًا. وقد دعاني إلى بيته -في المرة الأولى، شعرت بالتوتر، كما لو أن تلك الزيارة تعني شيئًا، لكنه سرعان ما أدرك أن هذه الزيارة لم تكن تعني شيئًا محددًا، على الأقل، بالنسبة له.

وكان لدى بيتر في غرفته جهاز أورغ وغيتار، وعزف وغنّى لي، وشاركته في تأليف الكلمات. ومع أنني لم أتدرب على الموسيقى من قبل، فقد كنت أعرف، بشكل ما، كيف ينبغي للأغنية أن تكون، كما أعرف كيف ينبغي للقصة أن تكون، كما كنت أستطيع أن أتوقّع الحبكة في أي مسلسل تلفازي قبل أن تتكشف الأحداث، وأكاد أكون محقة دائمًا. وقال لي إنه لا يوجد أحد آخر يمكنه أن يفعل ما أفعله، وقال إننا شريكان، وإنه يظل ينسى أنّني أصغر منه سنًا، لأنني كنت

أعطيه نصائح مفيدة، وقال إنني أتّسم بالحكمة. وكنت أبذل ما بوسعي لأن لا يعني مديحه لي شيئًا آخر.

لم أكن أتصوّر أنه يستطيع أن يفعل ذلك مع كايسي، أو أن يمتدحها هكذا. لكنّه كان يحمل لها مشعلًا – مجرد تخيّل عنها - وحتى عندما بحثت عن بصيص اهتمام رومانسي منها نحوه، لم أجده. ومن الطريقة التي تصبح فيها عيناه حالمتين، ومن صوته عندما يتكلّم عن كايسي، عرفت أنّه لا يزال يحبّها. وكان من عادته أيضًا أن يفرك سبابته اليسرى بإبهامه الأيمن عندما يتحدّث عنها، كما لو أنه يواسي يده، يواسي نفسه، كما لو كان يجد صعوبة في التحدّث عنها مع أنه كان يريد ذلك. لكنه، عندما يكلّمني يصبح سلسًا وحرًّا: لا نظرات ساهمة، ولا لحظات صمت محرجة، ولا إيماءات وحركات باللمس. بالطبع كنت أتطلّع إليها – آمل أن تحدث، وتذكّرت كيف أنه عندما وضع يده، بسرعة وللحظات قصيرة جدًا، على كتفي، شعرت أنه احترق، في صباح ذلك اليوم الصيفي البعيد – مع أنه لم يكن هناك شيء بيننا.

قال لي بيتر أكثر من مرة كم هو محظوظ لوجود صديقة ذكية قريبة منه. "أنتِ صخرة"، قال. وكان يحكي لي عن كلّ شيء – كيف أن أمّه تكثر من الشراب، بالرغم من أن كأسًا واحدًا من النبيذ كثير عليها في كثير من الأحيان، وكيف أنها تصرخ في وجه أبيه، وأنه يكره ذلك ويشعر بالحزن من أجلها في الوقت نفسه. وحدّثني عن أخيه الأكبر المصاب بعسر القراءة – كان جوش يكبره بخمس سنوات، وهو في المعهد - وكيف أنه لم يكن يحرز تقدمًا في المدرسة، ويجد صعوبة كبيرة للالتحاق في الجامعة "في خطّة الثماني سنوات"،

قال بيتر، مستخدمًا عبارات أبيه مع ابتسامة حزينة؛ وكيف أن والديه يشعران بإحباط شديد بسبب جوش، وأنهما يتطلعان إلى بيتر ليعوضهما عن أخيه. وحكى لي عن خوفه المرضي من الحشرات، وعن إصابته بالربو في طفولته، وعن حبّه للموسيقى القديمة مثل بوب ديلان، وأفلام الرسوم المتحركة اليابانية. وأراني أطنانًا من الصور عن طوكيو على شاشة الكمبيوتر – وقال إنه يحلم بالذهاب إلى ذلك البلد. كان يحكي لي عن أيّ شيء وعن كلّ شيء، كما لو كنّا صديقتين، أو شخصين متقدمين في العمر. ولم يكن يكترث، سواء أكان متعمدًا أم لا، باهتماماتي.

قالت أمّي إنه سيتدارك ذلك في الوقت المناسب: "لا تكوني نافدة الصبر!" قالت مازحة، مع أنّني أجد من الصعب أن أبتسم عندما يلمح أحد إلى شعار أندرز شوت بأن كلّ شيء يسير في الطريق الخطأ.

كانت الفترة بين فصل الربيع في الصفّ السابع حتى فصل الخريف في الصفّ التاسع طويلة. أشياء كثيرة تحدث. بعضها يحدث بسرعة مثل وقوع حادث سيارة أو الإصابة بنوبة قلبية، وتحدث أشياء أخرى ببطء، مثل تفكك أواصر صداقة أو زواج، أو مثل الإصابة بالسرطان، حتى أنك لا تعرف أنها تحدث، حقًا، إلى أن تقع الواقعة، ويكون قد فات الأوان.

بالنسبة إلى شخص كنت تعرفه دائمًا وتحبّه بدون تفكير، تكمن الغرابة في أن تعرف كلّ شيء عنه ولا شيء في الوقت نفسه.

ففي المدرسة، في بعض الأحيان، عندما كنّا ندردش عند المدخل أو في الكافتيريا، وتبدي كايسي تعبيرًا محددًا بوجهها، أو تقول كلمة معينة، أو تمرّر يدها في شعرها بطريقة معينة، كنت أعرف تمامًا كيف تشعر، ويظلّ كلّ ذلك بيننا: فلا تستطيع أن تقتلع حياتنا كلها. لكن صداقتنا كانت، في الوقت نفسه، أشبه بمدينة لم تزرها منذ زمن بعيد، تحفظ شوارعها عن ظهر قلب لكن المحلات والمطاعم فيها تغيّرت، لذلك، تستطيع أن تجد طريقك من الكنيسة إلى ساحة المدينة، لا توجد هنا مشكلة، لكنّك لم تعد تعرف من أين ستشتري بوظة أو سندويشة لذيذة.

كانت كايسي ومورسيل الشرّيرة مقربتين من بعضهما كثيرًا خلال تلك الفترة. وكانتا ترتادان الحفلات معًا في عطل نهاية الأسبوع خلال فترة الصفّ الثامن. وكنت ترى على الإنستغرام أنهما كانتا تحضران حفلات المدرسة الثانوية، وقال بيتر – الذي كنت لا أزال أكلّمه وأكتب له رسائل نصيّة وأراه دائمًا، مع أنه كان في حرم المدرسة الثانوية في رويستون - عندما رآهما، بعد حفل استقبال الطلاب الخريجين أو في ليلة الشعلة في الهواء الطلق أو في حفلة منتصف الشتاء، كانت الفتاتان لا تفترقان، تضحكان بصوت عال، وتحكيان نكات عن الخمرة والمخدرات. وعندما لا تكونان في حفلة، كانتا تريدان أن توهماك بأنهما في حفلة.

لم أفهم كيف كانت بيف تسمح بكلّ ذلك. قد تكون منشغلة بالحبّ. ففي أحد الأيام، ذهبتُ مع والدَيّ إلى المطعم الصيني في حديقة اللوتس. كان ذلك في ليلة يوم أحد. وبعد قليل جاءت بيف وأندرز شوت إلى المطعم ليتناولا العشاء. توقّفا عند طاولتنا وسألتهما أمّي

عن كايسي، فقالت بيف إنها تريد أن تمكث في البيت لتؤدي واجباتها المدرسية. فقلت في نفسي يا له من أمر غريب – فمن المفروض أن تأتي وتتناول العشاء معهما أيضًا، أليس كذلك؟ وخيّل إليّ أنّ بيف وأندرز شوت كانا سعيدين في أن يكونا معًا، وأنّ كايسي سعيدة لأنها ليست معهما. كان يبدو لي أنها وحيدة، بالنسبة لطفلة. ثمّ خطر لي أنها قد لا تكون وحيدة، وأنها حتى لو كانت وحيدة، فربما أنها لا تؤدي واجبها المدرسي. فقد كنتُ أنا نفسي في جميع صفوف الشرف ولم تكن لديّ واجبات مدرسية كثيرة. "الشيطان يصنع عملًا للأيدي التي لا تعمل"، كانت بيف تردد عندما كنّا صغيرتين، عندما كانت تطلب منّا أن نؤدي بعض الأعمال المنزلية. هنا بدا لي أن الشيطان يوجّه اهتمامه إلى كايسي أكثر مما يوجّهه إلى بيف.

أما الشيء الذي لم أعرفه إلاّ لاحقًا – مع أنّني ربما حدست به - فهو كيف نشأت أمور عنيفة وعاصفة في بيت بورنيس. فقد سمع أبي من السيد أوكوين عندما جاء للقيام بأعمال التنظيف التي يجريها كل ستة شهور، بأنه صادف في إحدى الليالي بعد حلول الظلام كايسي وهي تمشي على جانب الطريق السريع 29 باتجاه البلدة، بعيدًا عن البيت. فتوقّف وطلب منها أن تصعد معه إلى السيارة لكي يوصلها إلى البيت، وقال أبي إنّ السيد أوكوين قال له إن كايسي ردّت بتهذيب شديد، "لا، شكرًا. فأنا ذاهبة إلى بيت صديقتي"، فقال لها السيد أوكوين، "حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فقد كان يتعين على أمّك أن توصلك في هذه الساعة المتأخرة من الليل. ولا يمكنك أن تمشي وحدك على جانب الطريق السريع. هيا اصعدي لآخذك إلى البيت". لكنها اعترضت مرة أخرى، فقال لها: "كايسي بورنيس، لن

أتركك وحدك هنا حتى تصعدي إلى السيارة. لكن إذا كنت ترغبين فإني سأتصل بالشرطة عندها يستطيع الضابط كالاهان أن يوصلك إلى البيت في سيارة الشرطة". عندها صعدت إلى السيارة، قال أبي إن السيد أوكوين قال له، وأخذها إلى البيت.

لم أسمع هذه القصّة من كايسي قط، وهذا يعني أنها لم تكن تشعر بأنها تستطيع أن تحوّلها إلى مزحة. لكني قلت لنفسي كيف يمكن أن يحدث ذلك، أن تسير في عتمة الليل في ذلك الطريق – ربما كانت منزعجة، أليس كذلك؟ مجرد الهرب، إلى وجهة غير محددة، الهرب فقط. لأنه لماذا يتعين عليك أن تفعل ذلك إذا لم يكن الأمر كذلك؟ إلاّ إذا كانت بيف في عملها فاضطرت كايسي للذهاب إلى مكان ما (لكن إلى أين؟ فقد كان بيت داليا بعيدًا جدًا. لم أستطع أن أتخيّل إلى أين كانت ذاهبة - حتى أن بيتي يبعد عن بيتهم أكثر من ميل، وبيت بيتر يبعد أكثر من ذلك بثلاثة أضعاف) ولم ترغب أن تسأل أندرز شوت، أو أنه كان هو وبيف خارج البيت، وكايسي وحدها في البيت، وربما لم يكن السير على جانب الطريق السريع وحدها مخيفًا بالنسبة لها أكثر من مكوثها في البيت وحدها – فقد اختفت القطّة، إلكترا، منذ زمن بعيد في الغابة - في ذلك البيت الصغير في الشارع المسدود.

لكن مهما كان السبب الذي جعلها تسير على الطريق السريع، كيف كان شعورها عندما توقفت بجانبها السيارة، والأضواء الأمامية مصوبة نحوها مثل حرارة تعمي الأبصار، تنفصل عن سلسلة السيارات العابرة، والسيارة - أيّ سيارة؟ فلا يمكنك أن تعرف في الظلام هل السيارة مألوفة لك أم لا، وما هو نوعها أو ما لونها. ومثل كابوس، تُفتح نافذة السيارة، ويطلب منك رجل أن تصعدي معه

إليها، عندها فقط تدركين أنّك تعرفين هذا الشخص الذي يتبين أنه جارك، فيسري في جسمك شعور بالارتياح كما يسري دم جديد. كلّ ذلك يحدث فجأة، ويطرأ تغيير في درجة حرارة جسدك الداخلية - سوى أنه يصرّ، في تلك اللحظات، على أن تصعدي معه إلى السيارة، وهو الشيء الذي طالما حذرتك أمّك منه وقالت لك يجب ألاّ تفعلي ذلك أبدًا، يجب ألاّ تصعدي إلى سيارة مع رجل غريب... لكنّه ليس رجلًا غريبًا، إنه السيد أوكوين ذو البنية الضخمة الذي يكسو جسمه شعر مثل دبّ، إذ يمكنك أن تري الفراء على ظاهر كفّه على المقود، في الضوء المنعكس. ثمّ يسري في داخلك إحساس جديد، إحساس بارد: فمن الغريب أن يصرّ بهذا الشكل - فأنت لا تعرفينه حقّ المعرفة، وإنما تعرفين زوجته وكلابه أكثر – وألم يخبروك بأن نسبة عالية من عمليات الاختطاف يقوم بها أشخاص تعرفهم الضحية؟ كيف وضعت نفسك في هذه الظروف: تسيرين بجانب الطريق السريع ثم يتوقف رجل ضخم الجثة وقد يرغمك على الصعود إلى سيارته؟ لا بد أن وزنه يزيد على وزنك بضعفين. لا توجدك لديك أي فرصة. وإذا لم تصعدي إلى سيارة السيد أوكوين، فمتى ستأتي سيارة أخرى، وتُنزل نافذة أخرى، ورجل آخر - وجه لا تعرفينه، وجه كوابيسك - يصرّ عليك بالطريقة نفسها؟ ثمّ يقول ذلك الشيء عن الضابط كالاهان فتشعرين بالاطمئنان – فهو لن يذكر اسم الضابط لو كان يخطّط لقتلك، أليس كذلك؟ - فتذعنين وتصعدين إلى سيارته، وتلاحظين أن الجلد الاصطناعي القديم في مقعد سيارته من طراز "بويك لو سابر" متشقق، لكنه ناعم أيضًا، وينبعث من فتحات مكيّف الهواء هواء حار على خديك المحترقين، وينطلق بالسيارة بسرعة، ويعود إلى الطريق

الرئيس فيتناثر الحصى من تحت عجلاتها، ويخيّل إليك أن جرس حزام المقعد يصدر رنينًا. لقد تورطت الآن. لقد وقعت في ورطة، فلا بد أنه سيقتلني في جميع الأحوال، ولا تتنفّسين مرة أخرى إلاّ بعد أن يدخل إلى ممر البيت ويطفئ محرّك السيارة، وبطنه المشدودة داخل بلوزته تلمس المقود، ويتنحنح بتلك الطريقة المميّزة التي كنت تسمعيها أحيانًا في الصيف عبر نافذة مفتوحة، ويقول: "الآن، هل تريدين آن آتي معك وأكلّم أمّك؟ أم أنك ستحلين المسألة بنفسك؟" ولأول مرة يلمسك، برقة شديدة على ساعدك، لمسة يمكنك أن تشعري بها من وراء سترتك خفيفة مثل لمسة أب، لمسة مفاجئة من رجل لحيم، ويقول لك، بإلحاح معين، " يجب أن تفهمي - يجب أن تفهمي - بأنّك لا تستطيعين أن تخرجي وتمشي على الطريق السريع في الليل هكذا. فأنت لست في مأمن. هل تسمعينني؟"

فتهزين رأسك وتقولين شكرًا، بتهذيب، مع أن جزءًا منك يتساءل هل هو شخص منحرف حتى لمجرد التفكير بأن ذلك لم يكن آمنًا بالنسبة لك. فلا توجد عنده بنات، فماذا يعرف؟ وتخرجين من السيارة وتلوحين له وأنت لا تزالين واقفة أمام باب بيتكم، تحت الضوء الأصفر، وترينه وهو يومئ لك، من تلك الإيماءات الجافة التي تجعلك تتساءلين هل يفهم أكثر مما يُظهره.

ثمّ، يعتريك ذلك الخوف العابر، القلق، وهو أن كلّ المشاعر والمخاوف التي اعترتك ما هي إلاّ نوع من الإباحية، نوع من الخوف المختلق مثل الخوف الذي كنّا نبديه عندما نلعب ألعاب التظاهر، أو في أفلام الرعب، دغدغة تكاد تكون إيروتيكية تتولّد فيك من خلال فهمك العميق حول كيف تسير القصص، وكيف ينبغي أن تسير،

وأنه عندما تسير فتاة مراهقة وحدها في الليل فلا بد أن هناك قصّة، تنطوي على عقاب، وإذا لم يكن ذاك العقاب مطلقًا – الاغتصاب، بل حتى الموت نفسه – فإن تهديد تلك الاحتمالات سيكون، على أقل تقدير، الرعب منها. وبأن جميع القصص التي نشأتِ عليها جعلتك تشعرين، في تلك اللحظة، وأنت تسيرين بجانب الطريق السريع، لا كما تشعر الضحيّة فحسب، وإنما كما تشعر البطلة في قصّة سيرويها شخص آخر عنك: وهذه مناسبة نادرة لأن تصبحي نجمة العرض.

أتخيّل كلّ ذلك عن كايسي، حتى في ذلك الوقت، في شتاء الصفّ الثامن، لذلك، لا يهم لأنها لم تخبرني عنها، هي أو أي شخص أعرفه، لأنني عشتها أنا نفسي أيضًا. فعلى الرغم من أنّني أتساءل ما الذي كان يجول في رأس كايسي، عندما توقفت السيارة، فإذا لم يكن شعورًا بالغضب – فما هو إذًا؟ وإلى أي حد يمكن أن يصبح أسوأ اليوم؟ - وهل كانت ستصعد إلى السيارة، سيارة أي شخص كان، وبشكل أسرع لو أنها توجهت إلى ما وراء تلك العتمة البرّية الشديدة؟ إننا مختلفتان، أنا وكايسي، وتبيّن لي أننا كنّا هكذا دائمًا، نريد أن نتمسك بأشياء مختلفة ثم نفلتها. مثل أغنية جانيس جوبلين التي تحبّها أمّي - الحرّية ليست سوى عبارة أخرى لشيء يدل على أنه لم يبق هناك شيء يمكن خسارته - ربما في ذلك الحين، كانت كايسي مستعدة للشيء التالي، مع أنها لا تعرف ماذا يمكن أن يكون.

الآن، طبعًا، بعد كلّ هذا الوقت، أتساءل لماذا، عندما حكى لي أبي قصّة السيد أوكوين، لماذا لم أكتب لكايسي رسالة نصيّة، أو حتى أن أتصل بها، أو أن أتوقّف عند خزانة ثيابها في المدرسة وأطلب منها أن تكلّمني. صدقًا، لم أفكّر حتى بأن أفعل ذلك. هززت رأسي

واحتفظت بالقصّة في داخلي. لم أخبر جودي – ولماذا أخبرها؟ لأني أعرف للتو ماذا ستقول - مع أنّني أخبرت بيتر، وتحدّثنا عنها قليلًا، وكتب أغنية، بطيئة، أغنية حزينة عن فتاة تسير على جانب الطريق في الليل، وقلت له إنها أجمل الأغاني التي كتبها حتى الآن (بالفعل هي كذلك)؛ وكما أعرف فلم يتحدث عنها إلى أي شخص آخر. لكن لا بد أن السبب الذي جعل السيد أوكوين يتحدّث عنها وهو مستلق على كرسي طبيب الأسنان في عيادة أبي، فاغرًا فمه تحت مجموعة مختلفة من الأضواء اللامعة وأصابع أبي المكسِوة بالقفاز تضغط على لثّته، أن السبب الذي جعله يحكي القصّة لأبي هو لأنه يعرف أن كايسي وأنا كنا صديقتين على الدوام، ولأنه يعرف أن أبي سيحكيها لي، ولا بد أنه كان يظن أن هذه المعلومات ستظل في أيد أمينة، وأن أحدًا، أحدًا ما، سيفعل شيئًا إزاء ذلك.

في ذلك الصيف ذهبت إلى المعسكر الصيفي لأول مرة. فقد أوصى السيد كارترايت بإقامة معسكر مسرحي في شمال نيويورك، في ليك جورج، حيث كان يدرّس عندما كان شابًّا. وكانت جودي وجينسين يزمعان الذهاب أيضًا، لكنهما لم يذهبا بعد أن تبيّن لهما أن المشاركة فيه ستكلّف كثيرًا، خاصة لكليهما، فذهبتُ وأنا لا أعرف أحدًا. أوصلني والداي إلى المعسكر. وضعا أغراضي في الجزء الخلفي من سيارة الستايشن، ولم يبديا انزعاجًا عندما طلبت منهما، ما إن دخلنا المعسكر، أن يذهبا بسرعة. "ظننا أنك لا تريدين أن تتعرفي علينا، أيتها الأرنب"، قال أبي - كيف يمكنه أن يدعوني أرنبًا وقد

يسمعنا أحدهم؟ - لكن أمّي كانت متفهمة. ففي طفولتها كانت تحبّ الذهاب إلى المعسكرات – الرمي بالسهام، وركوب الزوارق، وإقامة حفلات السمر حول نار المعسكر – لكنها كانت تجد أيضًا أن عالم الممثلين الطموحين، العديد منهم من نيويورك، عالم غريب ومخيف بعض الشيء.

أحببت المعسكر: الحجرات المتربة التي تفوح منها رائحة خشب قديم والضوء الذي يتلألأ فوق صفحة الماء في الصباح الباكر. وحتى الطعام غير اللذيذ، ومقصورات الحمامات الموحلة بستائرها المصنوعة من المطاط الاصطناعي، بدت كلّها جزءًا من السحر. كان أكثر شيء أحببته في المعسكر هو الأشخاص والمسرحيات التي عرضت فيه. وقد جرحت إصبعي الوسطى، وحتى الآن، أنظر إلى الندبة البيضاء السميكة بمتعة وبشيء من الكبرياء. وكان استمتاعي"بمجموعة تيفلون" بنفس قدر استيائي منهم. وهم مجموعة من الشبان الممثلين الناجحين الوسيمين الذين كانوا على استعداد لالتقاط صور لوجوههم بأسنانهم الزرقاء والبيضاء. لكنّهم كانوا مجموعة صغيرة من مجموعة أوسع شملت ستّة أطفال من وسط مدينة شيكاغو حصلوا على منح دراسية ، وابنة مزارع كندي، وابن مصمّم أزياء عصرية في مدينة نيويورك، كان مملًا وحسير النظر لا يتوقف عن دفع نظّارته التي تشبه قعر قنينة فوق أرنبة أنفه العظمي، واشتهر بتلميحاته وتلاعبه بالألفاظ الفظة.

وكان المشرفون علينا كذلك مجموعة غريبة من طلاب المدرسة الثانوية والجامعة الذين يحفظون فقرات من مونولوغات غامضة عن ظهر قلب. وكان بإمكان فتاة في ثوب كاهن أن تتلو

قصيدة ألكساندر بوب "اغتصاب خصلة شعر" من أولها إلى آخرها؛ وتلت فتاة أخرى "الملائكة في أمريكا" أربع عشرة مرة؛ وكانت فتاة ثالثة تجوب أرجاء المكان وتنشد أغان من مسرحية "الشرّيرة" بأعلى صوتها. وكان الفنيون يتقنون استخدام الكمبيوتر وكان بإمكان النجارين تحويل خشبة المسرح إلى ديسكو في وسط مدينة أو إلى غابة آردن بأضواء زاهية الألوان باستخدام قماش الخيش وخشب معاكس مطليّ بالدهان. وعرضت فرقة من المشاركين في المعسكر الأكبر سنًّا مسرحية "السحابة التاسعة"، وشيدت المصمّمة وفريقها مسرحًا في شكل ماسَة مائلة بأرضية خشبية تشبه رقعة الشطرنج - كلّ ذلك في أربعة أيام فقط- وجعلت المسرحيّة كلّها تبدو كأنها خيال من لويس كارول.

في المعسكر، كان يسود نظام اجتماعي مختلف، حيث كان لبعض المهارات المعيّنة - حلّ مكعّب روبيك في أقل من عشر دقائق، وخياطة رداء خادمة ماريان طوله خمسة ياردات من نسيج البوليستر الحريري التركواز وشريط عيد الميلاد؛ وامتلاك طبقة صوت مثالية أو ذاكرة فوتوغرافية للفقرات التي تتم قراءتها، أو القدرة على تقليد لهجات مناطق عديدة - قيمة اجتماعية أكثر بكثير من الجلد الغالي الثمن أو من الصنادل الغالية الثمن.

كانت تلك سنتي الأولى – وكان بعض الأولاد في سنتهم الرابعة أو الخامسة، حتى – لو لم أحصل على أكبر جزء في مسرحيّتي الرئيسة - كنت الممرضة في مسرحية روميو وجولييت - فقد أدّيت دور آن في قراءة على خشبة المسرح من مسرحية آلبي "في المكان الطبيعي في حديقة الحيوانات". وفي الواقع، وجدت متعة كبيرة في العمل

كمساعدة في المسرحية الموسيقية.

في ذلك الشهر، اختفت رويستون: ولأول مرة أصبح بإمكاني أن أتخيّل نفسي في مكان آخر، أعمل شيئًا مهمًا وغير متوقّع. ولم يبد الأمر مستحيلًا.

عندما عدت إلى البيت، ظللت أحكي لوالدي ولأصدقائي قصصًا عن المعسكر. كانوا يبتسمون ويتظاهرون بالإنصات، لكنّي كنت أرى بريقًا في عيونهم. وأرسلتُ رسائل إلكترونية ونصيّة كثيرة إلى أصدقائي الجدد في المعسكر، وكنت في غاية السعادة عندما تلقيت ردودهم كما لو كان كلّ واحد منهم صديقًا جديدًا.

في شهر أغسطس، ذهبتُ مع والدَيّ إلى بيت مستأجر في ماونت ديزرت أمضينا فيه أسبوعين، وركبنا القوارب، وتجوّلنا في حديقة أكاديا العامة، وسبحنا في البحر المتجمّد. كنت أقرأ كثيرًا، وبدأت أكتب مسرحيّة لم أنهها – تدور قصتها حول صديقين يذهبان لإقامة مخيّم معًا ويُجرح أحدهما – وبذلت كل ما بوسعي لأن أكون مختلفة في المدرسة الثانوية، وكيف يمكنني أن أغيّر نفسي: أن أصبح ممثلة، وقد أشكّل فرقة روك. وبدأت أسمع أماندا بالمير التي تفضّلها شولي، الفتاة التي كانت تقيم معي في الغرفة في المعسكر. وقرّرت أن أبدأ بوضع مجمّل العيون، وأن أرتدي ثيابًا بأسلوب مختلف – فقد بدت الثياب القديمة جيدة، توليفة من فساتين الخمسينات أو الستينات وأحذية طويلة. وسألت أمّي إن كان بإمكاني أن أقصّ شعري في صالون في بورتلاند، أو حتى في بوسطن، في مكان أكثر تطورًا وعصرية من صالون سوبركتس الذي يقع بجانب محلات تارغيت في هافيرهيل، فقالت طبعًا، ووعدت بأن تأخذني إلى المدينة قبل يوم عيد العمال.

جعلنا منها، أنا وأمّي، رحلة نسائية: تقليم أظافر، وتناول الغداء في كوبلي بلازا، وقام شابّ على رأسه ما لا يقل عن ستّ حلقات، وقد امتلأت ذراعاه بأوشام زاهية الألوان حتى لا تكاد تستطيع أن ترى فيهما جلدًا طبيعيًا عاريًا، بقصّ شعري. وعندما أنهى تصفيف جدائلي الغامقة اللون، بدا شكل رأسي مختلفًا، فقد بدا وجهي مستديرًا برهافة، ولم يعد يبدو كبيرًا كما كان من قبل. فقد رأى هذا الشاب بوضوح كيف أرى نفسي كممثلة – خشن لكنه ناعم، مختلف لكنه جميل – دون أن أطلب منه ماذا يجب أن يفعل. كأنه فهمني، بشكل ما. وقال إنني أمتلك عينين جميلتين، وكان ذلك يعني الكثير بالنسبة لي، مع أنه كان مثليًّا ولم يكفّ عن التحدّث عن خليله الجديد. أما أمّي فلم تقصّ شعرها، لكنّها اشترت فستانًا بألوان طاووس من أحد المحلات في شارع نيوبيري بعد أن جربّته مرتين - قبل الغداء وبعده – وانتابها إحساس بتأنيب الضمير بسبب ثمنه.

"أين سأرتديه؟" قالت قلقة.

فقلت لها: "يمكنك أن ترتديه للنوم، إذا أحببت"، ثم أضفتُ، "يمكنك أن ترتديه إلى أيّ حفلة عشاء، فهو ليس أنيقًا جدًا". أحسست بأنها كانت تريده كثيرًا وكانت تريد موافقتي. إذ تتنقل أمّي بين التبذير والبخل غير المتوقّع. فعندما تحتفظ بما تبقى من الطعام لليوم الثالث على التوالي، تشير إلى فترة الحرب عندما كان والداها طفلين، كما لو أن ذلك يفسّر سبب تصرفها، فكانت تصرّ على أن تحتفظ بقطعة الصابون الزلقة الصغيرة في المغسلة إلى حدّ أنك لا تستطيع أن تمسكها. وفي الوقت نفسه، يمكن أن تنفق مئات الدولارات في يوم واحد على أشياء غير ضرورية، بالمعنى

الدقيق للكلمة. وتطلق على ذلك عفوية. ربما ارتدت الفستان ثلاث مرات فقط.

سُررت كثيرًا عندما اشترت الفستان، ثم تناولنا سلطة سرطان البحر على طاولة عليها غطاء أبيض من الكتّان يلائم غداء سيدتين، وتملكني شعور بأنني جميلة ونضرة بعد ما فعله مصفّف الشّعر ذي الوشم. وفي طريق عودتنا إلى رويستون، قلت لها، ونحن ننظر إلى الطريق السريع من النافذة (حتى أن جوانب الطريق السريع بدت جميلة تحت أشعة الشمس بعد ظهر ذلك اليوم) وشعرت بالامتنان لهذا اليوم الذي أمضيناه معًا، وغمرني شعور بأنني فتاة محظوظة لأنّها أمّي.

لم أتكلّم مع كايسي أو أرها إلاّ بعد افتتاح المدرسة، في الصفّ التاسع، في مبنى المدرسة الثانوية وسط مدينة رويستون التي كنا نتمشى أمامها ونلعب حولها طوال سنوات عديدة. ومع أن جسدها لم يكبر كثيرًا – ربما أن طولها لم يكن يزيد على 157 سم وكانت لا تزال نحيفة جدًا – فقد تغيّرت قسمات وجهها. فأصبح أنفها أعرض، وجبينها أعلى، وبرز قوس عظام خدها أكثر. كان وجهها وجه امرأة بالغة، وجه كان يجب أن يكون وجه امرأة طولها 185 سم، لا وجه فتاة بحجم دمية. ولم تعد تبدو مشاكسة كما عرفتها دائمًا، بل أصبحت جميلة. جميلة بطريقة جعلت قصّة شعري المبهرجة تبدو كأنها خدعة، لأنه، مع كايسي، لا يمكن لأي شيء أن يصرف الانتباه عن قسماتها. فقد كان شعرها جميلًا دائمًا، أصفر، ينسدل تحت كتفيها.

وسواء أصبحت خبيرة في المكياج الذي كانت تعرف كيف تستخدمه بشكل لا يلاحظه أحد، أو أنها تخلّت عنه تمامًا، فقد كانت بشرتها المكسوة بقليل من النمش، تشبه قشدة رُشّت فوقها قرفة. وجعل كمالها الفجوة بين أسنانها تبدو كأنها عمل فني قام به مُسوّق يدرك أنّ الكمال ينفر، فأضاف، بذكاء، هذا العيب المغري.

وتغيّرت قسماتها أيضًا. فقد أصبحت تبدو مثل امرأة بالغة، نعم، لكن امرأة كئيبة، كما لو أنها ناءت بأعباء جسيمة خلال الأشهر منذ أن التقينا معًا في آخر مرة. وأصبحت عيناها اللتان كانتا وقحتين وشيطانيتين دائمًا، حذرتين الآن، كايتين. كانت ودودة معي بشكل غريب في اليوم الأول، وركضت في الباحة الأمامية في المدرسة لتلقي بذراعيها حولي ترحيبًا بي، وصاحت، "جوجو! لقد اشتقت إليك".

لم أشعر بالارتياح في عناقها. وقد أخبرتني جودي خلال الفُرصة بأن أسرة فوسول انتقلت إلى ماين – فقد حصلت تلك الأمّ الحمقاء على عمل في بورتلاند - وانتقلت معها داليا.

"إذًا تريدين أن تقولي لي إنه لم يعد لدى كايسي أصدقاء فجأة".

"ربما".

تناولنا أنا وكايسي طعام الغداء بضع مرّات في الكافتيريا مع أولاد آخرين. فقد كانت ترافق نفس المجموعة التي دأبت على مرافقتها خلال السنتين الماضيتين – مجموعة مورسيل الشرّيرة، بدون مورسيل - لكن بدون أعزّ صديقاتها، لم تعد كايسي ترافقهم

كما كانت تفعل من قبل. كنت أعتبرها دائمًا فتاة جاحدة، متمردة، ليست قائدة، وإنما روح مستقلة، لكن من خلال مراقبتي لكايسي في ذلك الخريف، بدأ يعتريني شعور مختلف: بأنّها ضئيلة ومكتئبة وتعاني معاناة شديدة – وأن عدم مبالاتها ليس إلاّ ردّ فعل على عجزها، تظاهر بالشجاعة وتبجح "أن تقفز أنت نفسك خير من أن يدفعك أحد". كانت جميلة الآن، لكنّها كانت أيضًا وبشكل أوضح، جرحًا، جرحًا يبذل كلّ ما بوسعه لأن يبدو شيئًا آخر.

جاءت لتزورني في بيتي بعد ظهر أحد الأيام في أواخر سبتمبر. من مبنى المدرسة الثانوية نستطيع أن نأتي سيرًا على الأقدام. لم نخطط لذلك. وبينما كنا نجرّ حقائبنا وراءنا عبر شوارع البلدة، اتصلت بأندرز – أصبحت تناديه أندرز الآن – وقالت له ألّا يأتي ليأخذها من المدرسة وأنها ستعود إلى البيت وحدها. بدا صوته من وراء الخطّ عنيفًا، أعلى مما أتذكّره. أزعجها ذلك قليلًا، وحدّثها عن واجباتها المدرسية وعن إعداد العشاء، لكنه لم يصرخ أو يفعل شيئًا من هذا القبيل. عندما أغلقت الهاتف قالت بصوت حانق. "غبي".

" كيف تسير الأمور، في ذلك؟" سألتها، بشيء من القلق.

"لا تتذاكين عليّ، يا جوجو".

"لم أفعل ذلك".

"حسنًا، فهمت. كما تقول أمّي وشوت، فإن العالم يفصل حبة الحنطة عن القشرة. إنها عبارة من الإنجيل. لقد تخلّيا عنّي".

"لا تكوني مجنونة".

"أتظنين ذلك؟ تقول أمّي إنّني لن أحقق شيئًا في حياتي، وأندرز - حسنًا، فهو يفعل كل ما بوسعه ليمنعني من أن أحقّق شيئًا".

"ماذا يعني هذا؟"

هزّت رأسها، وقالت: "لا شيء. لا يعني ذلك شيئًا".

"هل تحاولين أن تقولي لي شيئًا؟"

"أحبّك، يا جوجو - أنت لطيفة جدًا. إذا أردت أن أخبرك بشيء، فإني سأخبرك إياه. لا، مجرد ذكر الوقائع".

"أمامنا حياتنا كلها".

"هل رأيت كيف هي الأمور في هذه البلدة؟ قصّ الشعر عند ماين إيفنت؟ العمل في هينكيل؟"

"سنغادر كلانا هذه البلدة. لا يتعين عليك الابتعاد كثيرًا من هنا حتى تري أن العالم ضخم ومليء بالخراء المجنون".

"تصحيح: سنغادر كلانا، لكني سأشقّ طريقي. يجب أن أضع خطّة". أخذت نفسًا عميقًا، وراحت الكلمات تتدفق كما يتدفق البخار من إبريق شاي. "هل تعرفين ماذا فعلتُ في هذه الصيفية؟ حضرت دروس الرياضيات في المدرسة الصيفية، وقمت برعاية أطفال أسرة كالاهان وجاستيس - ذاك الطفل الصغير الكريه جاكسن، الذي لا يزال في الحفاضات، وتنتابه نوبات غضب فيستلقي على ظهره ويلوّح بذراعيه وساقيه مثل بقّة، وينادي أمّه بصوت عال. كان الأمر بشعًا للغاية. بالإضافة إلى مشاهدة مسلسل "عائلة حديثة" على قناة الطلب. وأحرص على ألاّ يراني أحد، فهو لا يريد ذلك إذا كان بإمكانك أن تصدّقي ما أقوله! أما أنتِ فقد ذهبتِ إلى معسكرك الممتع وإلى ماين مع والديك، بينما ظللت أنا حبيسة في سجن طوال ثلاثة أشهر. لم أستطع الانتظار حتى تبدأ المدرسة – أنا، كايسي بورنيس، هل تصدّقين ذلك؟ لا أستطيع أن أنتظر حتى أخرج من البيت".

في تلك اللحظة وصلنا إلى بيتي. كانت أمّي تنقل بعض المواد الغذائية من السيارة، فساعدناها. احتفت أمّي بكايسي، وأعربت لها عن مدى سعادتها برؤيتها ("اشتقنا لك" قالت بتأكيد، محاولة أن تبدو جادة في عيني كايسي) وأنها تأمل أن نراها أكثر بعد أن أصبحنا الآن في المدرسة الثانوية.

"تعالي في أي وقت"، قالت لها أمّي، "اعتبري بيتنا بيتك الثاني".

"بالتأكيد. شكرًا، كارول".

ارتقينا بسرعة الدرج وصعدنا إلى غرفتي كما لو كنا نلعب، وأحدثنا ضجيجًا لم يُسمع في البيت منذ سنوات.

"انتبهن يا بنات". كان بإمكاني أن أعرف من صوت أمّي بأنّها كانت تبتسم.

عمَّ تحدّثنا؟ عن بيتر، ربما ليس كثيرًا. عن التلاميذ الآخرين في المدرسة، عن الأساتذة. شاهدنا أفلام فيديو على اليوتيوب - موسيقى البوب والراب، بالإضافة إلى مقاطع كوميدية قصيرة مثل إدي إزارد، وكي وبيل التي كانت تافهة وسطحية، بضع ضحكات، لكننا لم نأبه لذلك. ثمّ سمعنا صوت أمّي تقول إنها ستخرج لتجلب شيئًا، وسألت كايسي إذا كانت تريد أن توصلها إلى بيتها، وكان ذلك كل شيء.

إذا كانت أمّي قد ظنت أن هذه هي الزيارة الأولى وستليها زيارات عديدة أخرى، فهي مخطئة. فقد كانت كايسي ودودة ولطيفة في المدرسة، كما لو أنه لم تكن هناك قطع جليد مهشمة في قلبي، كما لو كان بإمكاني أن أحتمل أكثر من ذلك، لكن لا بدّ أنها شعرت بشيء. إمّا هذا أو أنها فضّلت أن تبقي مسافة بيننا. فلم أستطع أن أفتح معها حديثًا هامًا. لقد توقف كبريائي هنا. كان عليها أن تبذل جهدًا

كافيًا لكي تبدو غير منيعة. يجب أن تحذر من انتقامي. أحبّ أن أفكّر بأنني لم أصدّها، لكني قد أكون قد فعلت ذلك. لعلي أشعر بالحاجة إلى ممارسة القوّة إذا اضطررت إلى ذلك. لكنها لم تمنحني الفرصة.

"إنها مرنة جدًا"، قلت أشتكي لبيتر الذي لم يكن يكلّمها إلاّ في المدرسة أيضًا، "كما لو كانت شخصًا مُسَيَّرًا بشكل آلي. فقد انتقلت الفتاة الحقيقية التي كانت صديقتي طوال تلك السنوات إلى الجانب المظلم".

فتنهّد بيتر وقال: "لا بد أن لديها بعض المشاكل".

"كيف يمكننا أن نعرف؟" كنت أعرف أنّه محقّ في ذلك، لكن. "الواقع يقول إنها لا تريدنا أن نرى، فلست بحاجة لأن تختبئ إن لم تكن بحاجة إلى ذلك. إنه أشبه بكوكب: تعرف أنه يجب أن يكون مستديرًا، لكنّك لا ترى إلاّ هلالًا، أو نصف دائرة. لذلك فإنك تستنتج أن جزءًا منه يوجد في الظلّ. ثمّ يتعين عليك أن تعرف ماذا يوجد في الظلّ، وما الذي يسبّبه".

"لكن ماذا لو لم يكن هناك شيء هناك؟"

"هذا هراء يا جوجو".

"أندرز شوت"، قلت.

"ماذا عن أندرز شوت؟"

"أندرز شوت هو الظلّ". تحدّثنا عن ذلك. ثم أضفت، "على الرغم من أن الشخص الذي تكرهه قد يكون بيف، وبما أن هذا غير مسموح به، فإن أندرز هو كبش الفداء".

"ربما. يبدو الأمر أكثر تعقيدًا"

"لا تظنّي أنه يفعل شيئًا سيئًا، أليس كذلك؟"

"ماذا تقصدين؟"

"إنك تعرف ماذا أقصد".

"لماذا تقترحين ذلك؟"

"هذا الخراء يحدث، كما تعرف".

تجهّم وجه بيتر، وقال: "هل قالت لك شيئا؟"

"ليس تمامًا".

"يجب أن تكوني حذرة يا جوجو. فلا يمكنك أن تقولي – أو حتى أن تفكري – بشيء كهذا. إنه شيء خطير".

"حسنًا. لكن ماذا لو كان خطيرًا؟ ماذا لو كان هو الشيء المظلم؟"

"ماذا؟"

"ماذا لو كانت بحاجة إلى مساعدتنا لمواجهته؟"

"عليها أن تطلب المساعدة. وإلاّ فإننا نخلق مشاكل قد لا تكون موجودة".

"لكن ماذا لو ..."

فقال: "لا يمكنكِ بناء قضيّة على 'ماذا لو'" بتأكيد أكبر الآن، ثم أضاف، "أمّي محامية، وتقول هذا دائمًا، إلاّ إذا قالت لك كايسي شيئًا - أو أنا، وهذا أمر غير محتمل – عندها فإن ذلك لا يتعدى كونه حدسًا، أي أنه لا يوجد شيء على الإطلاق. لا تكرري هذه الفكرة لأي شخص، اتفقنا".

"اتفقنا".

"ولا حتى لأمّك، أو لجودي، أو لأي شخص مهما كان. إنها ليست مزحة".

"أعرف".

لم أستخف بالأمر. لكن ما إن رسخت الفكرة في رأسي، حتى لم أعد أستطيع أن أبعدها عن تفكيري تمامًا. فقد بدت لي منطقيّة، بشكل ما. فأنا أقرأ الصحف، وأشاهد التلفاز. إن هذه الأشياء السيئة تحدث دائمًا، على مرأى الجميع تقريبًا. فهو أساسًا زوج أمّها، أليس كذلك؟ فإن كانت تُحكى روايات عن زوجات الآباء الشرّيرات في تاريخ القصص الخيالية، فإن القصص المتعلقة بأزواج الأمهات أسوأها، على حد علمي، في الواقع: لأنهم يمتلكون سلطة الأب، بلا حدود. وإذا لم يكن أندرز شوت، فمن بإمكانه أن يحوّل كايسي إلى هلال؟

كانت المرة التالية التي جاءت لزيارتي بعد المدرسة في أواخر يناير. فقد هبّت عاصفة ثلجية في وقت متأخر من صباح ذلك اليوم، في وقت أبكر وأقوى مما كان متوقعًا: فأُلغيت الصفوف وجميع النشاطات المدرسية بدءًا من الساعة الواحدة بعد الظهر. وكانت بيف وأندرز لا يزالان في عملهما، ولم تكن لدى كايسي وسيلة لتعود إلى بيتها، فاقترحت عليها أن تأتي إلى بيتنا. كانت قد سألتُ شخصين آخرين قبل أن توافق على المجيء معي، لكنّهما كانا يقيمان في أماكن بعيدة. فعدنا على أقدامنا في الثلج، وكانت الرياح تلسع أنفينا وخدودنا.

ذكّرتها بأفضل فترات الشتاء التي أمضيناها معًا عندما كنّا في الثامنة أو التاسعة من عمرنا، وبالقلعة التي بنيناها من الثلج في حديقة بيتنا بمساعدة أبي - كوخ جميل له قبة - وكيف زحفنا إلى داخله ومعنا الشوكولاتة الحارة التي كانت أمّي قد صنعتها لنا والحلوى

المتبقية من الهالوين. كنّا قد أحببنا كثيرًا الكوخ الذي بنيناه، وأردنا أن نتظاهر بأنّنا لم نتجمّد من البرد وبقينا فيه حتى لم نعد نشعر بأصابع أقدامنا. ثم أخذنا حمّام بخار. وكنّا نضحك ونبكي في آن معًا من الحروق التي تلسع أطرافنا. ربما كانت المرّة الأخيرة التي كنّا فيها عاريتين تمامًا معًا. مع أنني أحسست بالخجل، لأني أدرك أنني عملاقة ذات عظام كبيرة في ذلك الحوض من البورسلان مقارنة بها.

كنّا نتذكّر بشكل تآمري تقريبًا. عندما وصلنا إلى بيتنا ولم تكن أمّي موجودة في البيت، صنعنا شوكولاتة حارة لنتذكّر تلك الأوقات القديمة، وجلسنا على الكراسي العالية في المطبخ لنحتسيها. وهطل الثلج في ندف صغيرة سريعة، تدفعه الريح. كان المطبخ مضاء بضوئه الأبيض. ولفحت الحرارة وجهينا بعد أن لسعهما البرد – "وهج صحّي"، كانت أمّي تقول – وكان بإمكاني أن أرى فروة رأس كايسي الوردية من خلال شعرها الثلجي.

أحسسنا أننا قريبتين جدًا من بعضنا، تركل أقدامنا الخزائن تحت الطاولة المنتصبة في وسط المطبخ، نلصق أنفينا في بخار الشوكولاتة الحارة.

"ما الذي يحدث لك؟" سألتها، "أقصد، فعلا؟"

"ماذا يُفترض أن يعني ذلك؟"

"لا أرى إلاّ الجانب المشمس، في هذه الأيام. ربما لا تلاحظين ذلك، لكن هذه هي الحقيقة. وأنا أعرف أن هناك شيئًا يحدث لك".

"صحيح؟"

"هيا، يا كايسي. منذ متى نحن صديقتين؟"

"وهل لا نزال صديقتين؟"

"ألسنا كذلك؟"

ارتسمت ملامح الجديّة على وجهها فجأة. "إننا صديقتان، طبعًا. هل تتذكّرين أغنية فتيات الكشافة؟"

"طبعًا أتذكّرها".

"إذًا أنتِ صديقتي الذهبية. صديقتي من الذهب الخالص".

"لكن؟"

"لكن ماذا؟"

نظرتُ بعيدًا. "لكن لا شيء"، قلتُ، واستدرتُ نحوها، وابتسمتُ ابتسامة زائفة عريضة.

الجزء الثالث

اختفت كايسي في مطلع شهر أبريل عندما كنّا في الصفّ التاسع. وهي لم تختف مرّة واحدة وإنما مرّتين، مع أن الحادثتين تبدوان من الخارج كأنهما حادثة واحدة.

دوّنت بعض الأشياء في مفكرتي. أعرف أنه في التاسع من أبريل، بعد عيد الفصح بأسبوع تقريبًا، بدأ التلاميذ يتكلّمون عنها في المدرسة. كان ذلك يوم الثلاثاء. ويبدو أن كايسي اختفت في ليلة يوم الجمعة أو السبت، لكن بيف وأندرز لم يبلغا عن اختفائها، ليس على الفور. لقد حدث شجار بينهم – لأنها لم تلتزم بموعد عودتها إلى البيت الذي فرضاه عليها في ليلة يوم الجمعة، ولم تعد إلى البيت حتى الساعة الثانية صباحًا – وكان أندرز، كما قال بيتر الذي سمع ذلك من كايسي في اللحظات القصيرة بعد عودتها، قد هدّد بطردها من البيت إلى غير رجعة.

"هيا اخرجي من بيتي"، قالت كايسي لبيتر، عيناها حمراوان والغضب لا يزال يعتمل في داخلها. "هل يمكنك أن تصدّق ذلك؟ يقف في مطبخ بيتنا في سرواله القصير في الساعة الثانية صباحًا، بصدره الأبيض المليء بالبثور الذي يشبه صدر دجاجة وكتلة من الشعر الناعم بين حلمتيه، يقف هناك ويقول لي إنّني سأفقد حقّي في بيتي؟"

ويبدو أن بيف لم تبرح غرفة نومهما في الطابق العلوي عندما

كان أندرز يصرخ في وجه كايسي. "هل أمّي لم تأبه بذلك؟" قالت لبيتر، يساورها الشك حتى بعد مضي عدة أيام. "وعلى الرغم من كلّ ذلك، فقد تحمّلت تصرفاته، يومًا بعد يوم، طوال سنتين الآن، أعضّ على لساني كلّ يوم. أفعل كلّ ذلك من أجلها، وهي لا تستطيع أن تحرّك مؤخرتها وتجرّ نفسها وتنزل إلى الطابق السفلي من أجلي؟" ومرة أخرى، "كنت نصف أتساءل - لا، اللعنة، أتساءل بالكامل – إن كانت هي التي ترسله إليّ. هل تفهم قصدي؟ ألا ترى ذلك؟ تنفش شعرها بأصابعها، وتقول بغنج أشياء مثل 'أوه، لم يعد بالإمكان السيطرة على كايسي، ولم أعد أستطيع التعامل معها، حبيبي أندرز، هيّا اذهب ولقنّها درسًا!' وكلّ ذلك الهراء عن كيف كنّا فريقًا واحدًا! طوال حياتي، 'أنا وأنت يا كايسي فقط نستطيع أن نفعل أيّ شيء ما دمنا معًا، كايسي! أنت حبيبتي الوحيدة في هذا العالم، كايسي!' تلك الكاذبة الداعرة البدينة! كان كلّ ذلك هراء، كلّها أكاذيب. منذ البداية".

ذهبت كايسي إلى بيتر وحكت له ما جرى لها لأنه الصديق الوحيد الذي يمكن أن تثق به. فوجئ كثيرًا عندما جاءت إليه – لأنهما لم يلتقيا منذ فترة طويلة – مع أنّه قال لي إنه بعد بضع دقائق فقط بدا أن الوقت لم يمرّ. قالت له إنها تعرف أنه يحبّها – دُهش عندما سمع ذلك، دُهش كلانا. فهو لم يخرج مع أيّ فتاة أخرى بعد كايسي – وكانت تعرف أنّه شاب قوي وعاقل. قال لي بيتر إنّه أحسّ بالارتياح، بشكل ما، لأنها استطاعت، كما يبدو، أن تراه بوضوح في نهاية الأمر. لن يحاول بيتر أن يفعل شيئًا، كانت تعرف، كما قالت، ولم يحاول بالفعل. لكن بالرغم من ذلك، عندما حاول بيتر أن يضمها إليه – كصديق فقط، قال لي، لمواساتها فقط – ابتعدت عنه بسرعة غاضبة،

واستلقت على سريره وأدارت وجهها إلى الحائط. كانت منزعجة جدًا.

لم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة ولم يستطع أن يلمسها. وأخذ ينصت إلى صوت تنفّسها المتقطع، وانتظرا، هي وهو، صامتين، كأنها حيوان جريح وقع في فخّ، وراح يراقب الضوء الذي بدأ يبهت خلف النافذة، الغسق الأزرق الجليدي، عيناها مثبتتان في السماء. وجلس على أرضيّة الغرفة ثانيًا ركبتيه، ساندًا ظهره إلى جانب السرير، وانتظر، وانتظر، وفي النهاية، خفتت وتيرة تنفّسها، وغطّت في النوم.

ليست هذه هي القصّة، بالطبع. إنها الثغرة في المسرحية - في مسرحية حياة كايسي الواقعية، بعيدًا عن لعبة التظاهر. نامت على سريره في كامل ثيابها، لم تتحرك، منذ مساء يوم الأربعاء ذاك حتى وقت متأخر من صباح يوم الخميس. لم يخبر والديه. ادّعى أنه مريض، ولم يتناول العشاء. نزل إلى الطابق السفلي ليقول لهما إنه سيأوي إلى الفراش، وظلّ قريبًا منها، ونام أخيرًا على أرضيّة الغرفة واضعًا مخدة تحت رأسه. وطلبت منه أن يعدها، عندما وصلت، بألاّ يخبر بيف بأنّها عنده، وهذا يعني أنّ والدي بيتر لا يمكنهما أن يعرفا، وإلاّ فإنهما كانا سيصرّان على إخبارها. فمن الناحية الرسمية تُعتبر كايسي مفقودة.

"لكن عليك أن تفهم"، قال لي، "قالت إنّها مسألة حياة أو موت؛ قالت، وأصرّت، بأن الذهاب إلى البيت سيقتلها".

"أنهم سيقتلونها؟" سألته. عندما دار هذا الحديث بيني وبين بيتر، كانت كايسي قد اختفت للمرة الثانية، وأدركنا الآن أنها مفقودة

حقًا (مع أننا ظننا في المرة الأولى أنها كانت مفقودة حقًا أيضًا، حتى عادت). إننا لا نعرف حقيقة ما جرى لها. فالقصّة الرسمية تقول - قصّة بيف – إن شجارًا دار بينهما، جدالًا آخر، الجدال المئة ألف، وأن كايسي غادرت البيت على إثره. كان يبدو من شبه المؤكد أنّ الشجار كان جزءًا من الحقيقة، ويكاد يكون من المؤكد أنها ليست الحقيقة بأكملها، وقلنا لا بد أن أندرز شوت الشرير يمتلك جزءًا من الحقيقة.

"لم تقل ذلك" قال بيتر بإصرار، "قالت إن الذهاب إلى البيت سيقتلها. وقد أصبح ذلك مفهومًا عندما حكت لي القصّة.

قصّة كايسي، كما حكاها بيتر، هي على النحو التالي: منذ الشتاء الماضي، ربما حوالي الوقت الذي جاءت فيه لزيارتي أثناء العاصفة الثلجية، أصبحت حياتها في بيت بورنيس لا تطاق. فلم تعد تستطيع أن تفعل أيّ شيء كما تريد – يبدو أن بيف وأندرز، وحتى الله نفسه، تآمروا كلهم عليها -وأصبحت كايسي، بدون وجود مورسيل، وأنا، وبدون بيتر، على شفير اليأس.

أحاول أن أتخيّل الإحساس بالوحدة كما كانت تشعر هي بالوحدة، في ذلك الوقت. لكني لست متأكّدة أنني أستطيع أن أفعل ذلك. فأنا كلب وهي قطّة: أنا لطيفة ودمثة، وهي متحفظة، مستقلة، ومنعزلة تمامًا. ولسنوات عديدة لم يكن ذلك مهمًا، لكنها أصبحت بعد ذلك وحدها، بطبيعتها السنورية الماكرة، ووحيدة. كان عليّ أن أتمكن من الإحساس بشعورها. لم يكن كبرياؤها يسمح لها بأن تخبرني أنا، أو بيتر، بذلك، ولم يكن كبريائي وجرحي يسمحان لي أن أرى

ما يحدث لها.

لكن كان لدى كايسي دائمًا ملاكها الحارس. كانت تؤمن به باستمرار. كان يدعوها دميته الصغيرة، وكان يحميها من الأذى. كان يرى البريق فيها، أما أندرز وبيف فلم يريا فيها إلاّ العيوب. كانت تؤمن بإيمانه بها. لم تكن مجنونة. قالوا لها إنه ميّت، ولكي تجد دربها، طريقها إلى خارج رويستون، قرّرت أن تبحث عن كلارك بورنيس، لترى ماذا يمكنها أن تجد.

كانت قد بحثت من قبل. بحثنا معًا ذات مرّة، على كمبيوتر أمّي، عندما كنّا أصغر. لكنّها قالت لبيتر إنها دأبت، منذ أن انتقل شوت إلى بيتهما، على البحث لرؤية إن كان بوسعها أن تجد أثرًا يقودها إلى أبيها الحقيقي. كانت تريد أن تعرف، كما كانت تقول، من هي - من يمكنها أن تصبح. فبحثت في غوغل عن اسمه مئة مرة، ولم تعثر على شيء يشير إليه. هارفي كلارك بورنيس في روما، وجورجيا، ولوسيل كلارك بورنيس، متوفى منذ زمن بعيد، وآن كلارك بورنيس، لا تزال على قيد الحياة، ولها حساب على الفيسبوك. وثائق تضم رجلًا يدعى السيد كلارك وآخر يدعى السيد بورنيس وضعت اسميهما بشكل مضلّل جنبًا إلى جنب، فظهرا لها أثناء البحث وراحت دقات قلبها تخفق بسرعة للحظات. أما هذه المرّة، في شتاء عام 2013، عندما بحثت في غوغل عن اسم كلارك بورنيس، وجدت – لا في صفحة النتائج الأولى، وإنما في الصفحة الخامسة - إشارة إلى شخص يدعى آرثر بورنيس: "مدرّب" آرثر بورنيس، "المعروف باسم المدرّب والكابتن كلارك، والمعروف باسم كاب أند كرانش". كان هذا هو التعليق المكتوب على صورة في صحيفة "بانغور ديلي نيوز" التي

تصدر في بانغور، بولاية ماين، منذ بضعة أشهر، عندما فاز فريق كرة القدم في ثانوية بانغور بالبطولة النهائية على الفرق المشاركة. وكانت الصورة تضم جميع أعضاء الفريق، بالإضافة إلى آرثر بورنيس، المعروف باسم الكابتن كلارك، مدرّبهم الرئيس. وكان أيضًا، كما تبين لها عندما كتبت اسم "آرثر ج بورنيس" وكلمة "بانغور" أستاذ رياضيات محبوبًا في المدرسة الثانوية في المدينة التي درّس فيها طوال الأعوام الأربعة عشرة الماضية.

دقّقت في الصورة المأخوذة من الصحيفة. كبّرتها. كانت صورة الكابتن كلارك صغيرة ومغبشة. عندما كبّرت الصورة أكثر ازدادت غبشًا. رجل متين البنية على وجهه ابتسامة عريضة، أصلع، له خدّان ممتلآن، ولحية وَخَطَها الشيب. وكانت سترته الرياضية مشدودة بقوة فوق بطنه. وبدت ذراعاه، في الصورة، قصيرتين، تشبهان ذراعا القرد بعض الشيء، يعقدهما فوق صدره بارتباك. هل هذا هو الرجل ذو الشعر الناعم الذي كان واقفًا أمام حظيرة بقميصه الداخلي منذ زمن بعيد؟ من يستطيع أن يعرف؟ كيف يمكن أن يكون ذلك؟

لكن تصوّري، تصوّري للحظة كيف كان شعور كايسي، حتى إمكانية – حيرة، ذعر، معجزة – بأنه قد يكون الكابتن الباسم كلارك، ربما، في ذلك الشتاء الموحش، لا يمكن أن يكون الرجل الذي، قالت لبيتر، إنّها لا تصدّق فعلًا، في أعماق قلبها، بأنه متوفى: والدها.

لم تحك كايسي لأحد عن عمليات البحث والتحقيقات التي كانت تجريها على الكمبيوتر. وكانت على قناعة بأن أندرز يتجسّس عليها عندما تتكلّم في الهاتف وعلى كمبيوترها ويدقق في جميع عمليات البحث التي تجريها، ويدخل إلى حسابها، فحذفت عمليات البحث من

جهاز كمبيوترها النقال، ولم تعد تبحث في غوغل عن الكابتن كلارك إلاّ في مكتبة المدرسة. قالت لبيتر إنه لشيء مدهش ماذا يمكنك أن تعرف عن أحد لو أجريت بعض البحث عنه.

كان آرثر ج. بورنيس في الحادية والأربعين من عمره. متزوّج منذ عام 2001 من آنا ماريا ماتشادو التي تبلغ السادسة والثلاثين، موظف حكومي يعمل في بلدية مدينة بانغور، في قسم الضرائب. تصوّرت كايسي أنه يتمتع بروح مرحة، ويحبّ الطعام. أما آنا ماريا - قرّرت كايسي أنّها تستخدم كلا الاسمين: وإلاّ فلماذا أُدرج كلا الاسمين؟ - فهي طاهية ماهرة، تضع كمية كبيرة من اللحم في الصلصة، ولعلها تشدد بلطف، بلكنة ضعيفة، على حرف الراء.

عندهم أربعة أطفال، تتراوح أعمارهم بين الثالثة والحادية عشرة، ويقيمون في 36 شارع سبرينغ، في بيت ريفي بطابقين، مطلي بلون أزرق فاتح وعلى جدار الكراج عُلِّق طوق كرة سلة، ومن الصورة على الغوغل للشارع الذي يقيمون فيه، كان هناك كلب أسكيمو يلعب فوق عشب حديقة البيت الأمامية. وقد يكون كلب الأسكيمو، بالطبع، كلبًا من الحيّ دخل إلى إطار الصورة مصادفة أثناء مرور سيارة تصوير غوغل - كلب لا ينتمي إلى ذلك البيت. بالطبع، يصعب معرفة ذلك.

خلال شهري فبراير ومارس، وجدت كايسي نفسها منهمكة أكثر وأكثر في البحث عن حياة أسرة بورنيس في بانغور. فأمضت أوقاتًا طويلة بعد انتهاء دوام المدرسة في مكتبة المدرسة، وكان ذلك مفاجئًا لكل من يلاحظ وجودها هناك. لكن الشخص الوحيد الذي لاحظ وجودها هي آن باروكا، أمينة مكتبة المدرسة، المرأة المحافظة التي لم

تشأ أن تقتحم خصوصية كايسي أو تقطع عليها اهتمامها الدراسي المتزايد بأن تقترب منها وتحادثها. وهكذا أخذت السيدة باروكا تراقب كايسي من فوق نظارتها الهلالية الشكل من وراء طاولة مكتبها، وكانت تبتسم بينها وبين نفسها، متخيّلة أنّ مكتبتها التي تحبّها كثيرًا ستنقذ مستقبل تلميذة أخرى، مخيّلة تواسي نفسها بها عندما تكتشف وجود كتب ممزقة أو رسومات بذيئة داخل مقصورات المكتبة.

في هذه الأثناء، بدأت كايسي تدوّن في دفتر ملاحظات حرصت على إخفائه في الخزانة الخاصة بها في المدرسة كي لا تتطفل عليه العيون في البيت، تسجّل فيه الحقائق كما فهمتها: فقد تعلّمت أسماء الأبناء من صور التُقطت في عطلة عام 2012 على برنامج فليكر، سلسلة من الصور التُقطت في أثناء الاحتفال بعيد الميلاد في قاعة بلدية مدينة بانغور، حيث قام الصبيان الأكبر سنًا في عائلة بورنيس - جايسون وماريزول – بالمساعدة في توزيع الهدايا الملفوفة بورق هدايا ملونة تحت الشجرة الضخمة المتلألئة، في أثناء حملة توزيع الألعاب على الأطفال. وفي صورة عائلية أخرى من السلسلة نفسها – آرثر بورنيس غير موجود فيها - استطاعت أن ترى الأطفال الأربعة جميعًا: جايسون وماريزول وجينيفر والطفلة الرضيعة بريانا، ذات شعر مجعد ترتدي ثوبًا أحمر وأخضر، مع أمّهم. وبدا جايسون عاقلًا وخجولًا بعض الشيء، وبدا زغب غامق على شفته: لا بد أنه فتى ذكي في المدرسة، ويحتمل أن يكون متفوقًا في الرياضيات. أما ماريزول فتبدو عكس ذلك، تبدي كلّ أسنانها وهي تبتسم بخديها المجعدين، من ذلك النوع من الفتيات اللاتي يضعن فقاعات على حرف أ في اسمها وعلامات تعجّب، وتصفّق بيديها عندما تكون مبتهجة. أما جينيفر فمن الصعب قراءة معالمها

– كانت كايسي تحبّ ذلك وأحسّت أن روحها أقرب إلى روح جينيفر. كانت قسماتها كئيبة وتوجد تحت عينيها بقع سوداء. أما أمّهم، آنا ماريا، فشعرها غامق، مكتنزة الجسم، ضئيلة الحجم، تعقص شعرها في شكل ذيل حصان كما تفعل الفتيات الصغيرات، وترتدي بلوزة عيد ميلاد حمراء ناصعة. كانت تبدو لطيفة، لكنها متعبة. وتخيّلت كايسي أنها عندما تغضب، لا تصرخ في وجه أطفالها، بل تكلّمهم بهدوء لكن بصوت مشحون بالتوتر - نوع مقبول من الغضب.

وكما قالت لبيتر، كانت كايسي تحلم بهذه المرأة، بهؤلاء الأطفال - أسرتها الثانية - ومن هاتين الصورتين، كانت تتخيّل أنها تمضي فترات طويلة بعد الظهر في رفقتهم. ويخيّل إليّ أنها كانت تحاول أن تجد، في وجوه الأطفال بعيونهم الداكنة، بعض الآثار من قسماتها – الأذنان على الأقل؟ العظام؟ لكنها لم تكن متيقنة من ذلك. ولم تتمكن من العثور على صور أخرى لآرثر. صحيح أنه كان يفترض أن يكون والدها نحيفًا وليس مكتنزًا، لكن الناس يتغيّرون، ومرت عليه حياة كاملة -حياتها بكاملها - هل كان كلارك بورنيس يلعب كرة القدم في الجامعة، أو حتى في المدرسة الثانوية؟ لم تكن كايسي تعرف، ولم تستطع أن تسأل أمّها عن ذلك. فهي لم تناقش قط حياة أبيها مع أمّها، وإذا كانت قد ذكرت لها لمحات عنه عندما كانت أصغر سنًا، فقد أصبحت الآن في طي النسيان. كان التعتيم العائلي كاملًا.

هل زاد تخيّل كايسي للحياة مع أسرة بورنيس في بانغور الوضع سوءًا في البيت، أم أن الحياة في بيتها مُقدّر لها أن تزداد تدهورًا، يصعب معرفة ذلك. لكن خلال تلك الأشهر في أواخر فصل الشتاء، عاشت كايسي وأمّها وأندرز شوت في حالة مستمرة من التوتر، وكانوا

ينتظرون حدوث انفجارات أو هزات بعدها. في ذلك الحين، لم نكن نعرف كيف كانت الأحوال، لكن كايسي قالت لبيتر، في غرفته في ذلك اليوم، وأنه لم يعد لها حقّ في استخدام هاتفها. لقد حوصرت كايسي من جميع الاتجاهات. وأُرغمت كايسي على أن تنقل جهاز كمبيوترها إلى غرفة الطعام لتؤدي واجباتها المدرسية فيها، كي تستطيع أمّها وأندرز رؤية ما يظهر على شاشتها طوال الوقت. طريقة كلام كايسي لا تشي بالاحترام. لا تؤدي كايسي أعمالها المنزلية بشكل جيد، وفضلًا عن ذلك، فقد أوقفا مصروف كايسي إلى أجل غير مسمى، وأُزيل القفل من باب غرفة نومها.

بهذا القدر من المشاكل في البيت، بدأت كايسي تركّز طاقتها أكثر وأكثر على تخيّل الأسرة في بانغور. هذا ما قالته لبيتر الذي أخبرني ذلك بدوره. فقد بدأت تفكّر بكيفية الذهاب إلى هناك، بدون سيارة – بالحافلة التي تنطلق إلى بوسطن من أمام محل دنكن دوناتس على الطريق السريع 29 في الساعة 10 :6 صباحًا، ثمّ بالحافلة الإكسبرس المتجهة إلى ماين (أول محطة تقف فيها في بورتلاند ثمّ تتجه إلى بانغور وأخيرًا إلى ماونت ديزرت). يوجد نزل للشباب في بانغور، يكلّف 29 دولارًا لليلة الواحدة لسرير في مسكن مشترك (اجلب معك فراشك). كان يبدو أن منزل بورنيس لا يبعد سوى ميلين اثنين من محطة الحافلة، فرأت أن بإمكانها أن تذهب إليه سيرًا على الأقدام. وسواء أكانت هناك أرصفة أم لا، فإنها تستطيع أن تسير إلى البيت وتصعد الدرجات المؤدية إلى المدخل وتقرع جرس الباب. لن تفعلي ذلك أثناء النهار – فمن سيكون في البيت بالإضافة إلى، ربما الكلب الذي قد لا يكون ودودًا أكثر من لوتي، الكلبة لدى عائلة أوكوينس؟ ستأتي عند

الغروب، في وقت مبكّر من المساء، عندما تبدأ النجوم الأولى تظهر في السماء، ويكون الكابتن كلارك قد أنهى تدريبه بكرة القدم، الكابتن المعروف باسم كاب أند كرانش، ويكون قد عاد إلى أطفاله آنذاك، وستسألين - ماذا ستسألين؟

لوهلة، أحسّت كايسي بشيء من الحرج. "هل أنتَ أبي؟" يا لها من جرأة شديدة. "أتعرف من أنا؟" في ذلك شيء من العدوانية. "هل الاسم بيف بورنيس يعني لك شيئًا؟" احتمالية أخرى، لكن من يعرف إلى ماذا سيؤدي كل ذلك. فإذا كان كلارك بورنيس لا يزال حيًا يرزق، ولم يمت كما تصرّ بيف باستمرار، فإما أنه زيّف موضوع موته لكي يهرب، وإما أنهما انفصلا بطريقة بشعة. لا يمكن تصديق التوقيت – انفصال ثم انتقال إلى ماين، وبدء مهنة تدريس مادة الرياضيات في المدرسة الثانوية في نفس الوقت الذي كان يُفترض بأنه غادر هذا الكوكب. أستاذ رياضيات. العمر المناسب. الاسم، قريب جدًا، نسبيًا... بالتأكيد لا يمكن أن يحدث كلّ ذلك مصادفة؟ وماذا عن "هل اخترت اسم كلارك بورنيس؟" أو حتى: "هل تعرف كلارك بورنيس؟" ربما، قرّرت أن تترك الأمر للظروف.

هذا ما قالته لبيتر الذي أخبرني به، أو ربما معظم ما قالته له. أعرف كايسي جيدًا إلى درجة تبدو كأنها أفكاري أنا، أو أفكاري عن أفكارها. الآن، بعد مضي فترة طويلة، أكاد أشعر بأنني عشت كلّ ذلك معها، مع أنني لم أعرف ماذا حدث إلاّ بعد مدة.

ظلت كايسي تبحث في غوغل عن أحوال الطقس في بانغور، تشاهد صور الشوارع في وسط المدينة خلال الفصول المختلفة، لكي تتخيّل كيف يمكن أن تكون الحياة هناك. لم تخبر أحدًا بذلك.

لم تكن ترغب في أن تسمع رأي أحد، وكانت لا تزال متيقنة من أن والدها، ملاكها الحارس، لا يزال يوجّه خطواتها، يحرسها، يحيطها بحمايته ورعايته، ويحرص على أن تتصرف بطريقة لائقة. لم تكن تشعر برغبة شديدة للذهاب – بل كانت راضية ببقاء هذه العلاقة مع بانغور في مخيّلتها لفترة من الزمن - لكن بعد الشجار الذي وقع مع أندرز في الساعة الثانية صباحًا، أحسّت فجأة بأنه لا توجد أمامها خيارات كثيرة سوى أن تلجأ إلى أبيها. وهمس صوت الملاك في أذنها، وقال: "يا دميتي الصغيرة، إما أن تأتي الآن وإما ألاّ تأتي أبدًا". والمفارقة أن المشكلة التي افتعلها أندرز هي أن كايسي لم تتأخّر في تلك الليلة لأنها كانت في حفلة، أو أنها كانت تمضي الوقت مع أحد الفتيان. قال بيتر إنّها كانت منزعجة كثيرًا بسبب ذلك – فقد كان أندرز شوت يريد أن يعاقبها حتى على التصرفات الجيّدة التي تقوم بها، ولعله كان يريد أن يعاقبها على هذه التصرفات بشكل خاص. فقد كانت كايسي مع فتاة اسمها ألما، صديقة جديدة في المدرسة الثانوية، راحت تحدّثها عن انفصالها عن صديقها. وكانت ألما تشعر بأنه لم يعد ثمة جدوى من حياتها، وكانت كايسي تجلس في المطبخ الحار جدًا بأنواره الباهتة على الطرف الآخر من البلدة، تحتسي الكوك الخالي من السكّر، تستمع إلى ألما لساعات وتحاول تهدئتها وإقناعها بأن تتطلع إلى مستقبل أفضل، وأن ترى الضوء في نهاية النفق. وكانت أمّ ألما التي تعمل مساعدة في دار للمسنين في لورانس في نوبتها الليلية. وظلت الفتاتان وحدهما إلى أن جاء شقيق ألما الأكبر بعد الساعة الواحدة صباحًا وعرض على كايسي أن يوصلها بسيارته إلى بيتها. كانت قد استمعت طويلًا إلى ألما التي كانت تجهش في البكاء ثمّ تمالكت نفسها لتعود إلى البيت

لتنهار مرة أخرى. لم تكن كايسي تعرف ألما جيدًا حتى أنها لم تكن متأكدة إن كانت تحبّها، لكنها شعرت بالفخر على حسن تصرفها في تلك الليلة. فعادت إلى البيت وقد تملكها شعور بأنها فتاة قوية تتحلّى بالصبر وتتسم بالكرم والطيبة – وكانت مسرورة أيضًا لأن أوغو، شقيق صديقتها، لم يحاول أن يتودد إليها، وهذا ما يحاول أن يفعله الكثير من أخوة صديقاتهن الأكبر سنًا بشكل مقزز – حتى لاح أندرز أمامها في المطبخ الخافت الإضاءة، وراح يهزّ إصبعه الطويل أمام وجهها وقد اقترب منها كثيرًا وراح يوبخها ويقول لها إنها فتاة أنانيّة وأن تصرفها لا يدُلّ على أنها فتاة مسيحية تقية، وقال إن "سلوكها غير مقبول" وهدّدها بأن يطردها من البيت. وألمح إلى أنها فتاة عاهرة، مع أنه لم يستخدم هذه الكلمة بالتحديد. والطريقة التي كان ينظر فيها إليها – هاتان العينان الضيقتان، وفمه بشفتيه الرقيقتين، والعِرقُ الذي ينبض في صدغه. كان مشهدًا سورياليًا مطلقًا بأنّ هذا الرجل الغريب البشع يتصرف كما لو أن لديه حقوقًا عليها، وكأنه مديرها، أو والدها – تستطيع أن تتحمّل الكثير، قالت لبيتر، لكن يجب عليك أن تدافع عن نفسك بعد ذلك.

بحقيبة ظهرها المدرسية المحشوة بالملابس، ومنشفة يد، وشرشف ملفوف، وعلبة من رقائق القمح وتفاحة، غادرت كايسي البيت على درّاجتها الهوائية في الساعة الخامسة إلا ثلث صباحًا، ووصلت إلى محل دنكين أند دونتس في الساعة الخامسة وعشر دقائق. كان الوقت لا يزال ليلًا. لم يكن هناك أحد سوى شاب يقف وراء النضد، مرهقًا، شعره وسخ، وزغب ناعم ينمو فوق ذقنه. طلبت كوبًا كبيرًا من القهوة العادية – يمكنني أن أتذوّق طعمها، شديدة

الحلاوة – وكعكتين تلمعان، وجلست محدودبة الظهر إلى طاولة في الخلف، مسندة ظهرها إلى الجدار وقد غطت رأسها بقلنسوتها، وراحت تحدّق في الزبائن ذوي الأشكال المختلفة الذين يدخلون ويخرجون. أستطيع أن أتحسس الطاولة البلاستيكية تحت أصابعها، وأسمع صرير الكرسي المثبت بالأرض عندما تدور به. وصلت الحافلة إلى الساحة في الوقت المحدّد. كان الظلام لا يزال مخيمًا، لمعت أضواء الحافلة داخل المقهى. عندما كانت تصعد درجات الحافلة، في قبضتها نقود التذكرة المجعدة، فكّرت بسرعة أنها تستطيع أن تتراجع، وتعود إلى البيت، وتبدأ يومها كما لو أنّ شيئًا لم يكن. فقد أخفت دراجتها الهوائية وراء الشجيرات خلف ساحة موقف السيارات أمام محل دي دي، وربطتها بسلسلة إلى شجرة صغيرة. كانت قد وضعت رسالة على طاولة المطبخ قالت فيها "سأعود بعد عدة أيام". بهذه الطريقة، قالت في نفسها، سيعرفون أنها على ما يرام. وهذا لا يعني أنهما لن يلاحقاها – فقد كان أندرز شوت رجلًا حقودًا، وأمّها امرأة متسلطة - لكن هذه مشكلتهما، وليست مشكلتها. لو فكّرت بعمق أكثر سيبدو أن ما تفعله شيء غريب، شيء يتّسم بالاستهتار، بل ربما يكون شيئًا خطيرًا. لكنها عندما عادت إلى نفسها وأحسّت بالمعدن البارد للحافلة على أطراف أصابعها، والآثار التي خلّفتها أشرطة حقيبة الظهر على ظهرها تحت معطفها، ورأت وميض الفجر الكبريتي في الأفق، عندما لمعت أضواء السيارات على الطريق 29 .. لم تعد تساور كايسي أي شكوك، أو مخاوف أيضًا.

استغرقت الرحلة إلى بانغور معظم اليوم. لقد فكّرت بكلّ شيء: فقد اشترت تذكرة ذهاب وإياب لتضمن العودة إذا لم يبق

معها نقود. وبعد أن اشترت التذكرة، بقي معها حوالي 200 دولار، وهو المبلغ الذي كسبته من مجالسة الأطفال ومن مساعدة السيدة أوكوين في تنظيف قبو بيتها، وخبأت 50 دولارًا تحت قدمها اليسرى بين جوربها وحذائها، لكي، حتى إذا أضاعت محفظتها، أو لا سمح الله، سُرقت منها، يظل معها مبلغ. وقبل أن تصعد إلى الحافلة المتجهة إلى بوسطن، تذكّرت أن تُطفئ هاتفها الخلوي - فقد كان لديها آنذاك هاتف آي فون، وبطبيعة الحال كان لدى أمّها الفضولية تطبيق "ابحث عن هاتفي"، وعلى الرغم من أن كايسي لم تكن تبالي إذا عرفا أنها في الحافلة المتجهة إلى بوسطن، فتضعهما في المسار الخاطئ، فإنها لم تكن تريد أن يتعقباها بعد ذلك. كانت تعرف جيدًا أن شعرها قد يكشفها – فقد كان شعرها دائمًا مثل منارة، لا لي فقط – لذلك، ما إن نزلت من الحافلة في المحطة الجنوبية، حتى توجهت إلى دورة المياه النظيفة في محطة القطار المجاورة، ودسّت شعرها الأشقر - الأبيض داخل قبعتها القماشية وأخفت شعرها كله حتى لا تظهر منه خصلة واحدة – "كما لو كنتُ فتاة يهودية أرثودوكسية"، قالت لبيتر، "أو مسلمة" - ثمّ وضعت على عينيها نظارات شمسية بالية قليلًا كانت قد اشترتها من سلة الأغراض ذات الأسعار المخفضة من محلات سي في إس. لم ترجع إلى محطّة انطلاق الحافلات حتى حان موعد انطلاق الحافلة، وهي تعرف جيدًا أنّ الأطفال الذين يهربون من بيوتهم يتسكعون في محطّات الحافلات، وأن أمورًا غير مستحبة قد تحدث لهم هناك. ولكي لا تبدو فتاة تائهة تسير على غير هدى، راحت تقرأ مجلة باهتمام عندما جلست إلى منضدة في ركن المطاعم الصغيرة في محطة القطار ريثما يحين موعد انطلاق حافلتها – كان عليها أن

تزجي بضع ساعات – وتعمدّت أن تطيل فترة تناولها البطاطا المقليّة التي اشترتها من ماكدونالد إلى أطول وقت ممكن. فقد كانت تنتظر عدة دقائق بين تناول قطعة وأخرى، فتناولت معظمها باردة، وغلّفت لسانها طبقة من الدهن.

عندما اشترت التذكرة إلى بانغور، استخدمت جهاز البيع الآلي، ولم تنظر في عين أحد، وسارت بثقة شديدة إلى الرصيف الذي ستنطلق منه الحافلة في الوقت المحدد. بعد ظهر يوم الأحد ذاك، كان هناك عدد كبير من الركاب في الحافلة المتجهة إلى ماين. ومع أنها كانت تأمل في أن تجلس في مقعد وحدها، فقد رأت أن ذلك لن يكون ممكنًا. واختارت أن تجلس بجانب فتاة يبدو أنها طالبة جامعية قريبة من عمرها، تضع نظّارات وتحمل صندوق آلة كمان، لأنه من بين جميع الاحتمالات، فأن تفتح هذه الفتاة معها حديثًا، احتمال ضعيف. لقد تعبت من التظاهر بأنها تقرأ، ولم تكن تستطيع أن تستمع إلى أغان أو موسيقى لأنها لم تكن تريد أن تجازف وتفتح هاتفها مع أنها أغلقت خدمة الهاتف الخلوي، فقرّرت كايسي أن تتظاهر بأنها نائمة. ولم يكن عليها أن تتظاهر بذلك طويلًا. فعندما نزلت عازفة الكمان في بورتلاند، لم يجلس أحد في مكانها، فانتقلت كايسي إلى المقعد بجانب النافذة، ونامت خلال الفترة المتبقية من الطريق، وراحت جمجمتها المغطاة بقبعتها الصوفية ترتج بشكل مزعج على زجاج النافذة، وشعرت بألم أسفل ظهرها.

منذ منتصف عصر يوم السبت، كانت كايسي في بانغور. كان هذا هو الجزء الصعب من رحلتها: فمن المستحيل ألاّ يلاحظها أحد، ولا يمكن أن تبدو فتاة في الخامسة عشرة من العمر. حتى السابعة

عشرة لا توجد مشكلة، لكن ليس في الخامسة عشرة. أقلقها ذلك، خلال الأسابيع التي كانت تخطط لذلك، قالت لبيتر، قرّرت أنه إذا سألها أحد، فإنها ستقول إنها جاءت إلى البلدة لزيارة جدّها المريض، الراقد في المستشفى - المستشفى الذي كان يعمل فيه أندرز، ما هي الاحتمالات؟ - وأنّ أمّها ستأتي أيضًا لكنها مشغولة الآن. حتى أنها فكّرت بأن تطلق على نفسها اسمًا -كايسي بيرد - وطريقة لتوضيح ذلك، في حال سألها أحد: بأن والدها، كلارك بيرد، مات، ولذلك فإن اسم أمّها مختلف، أم أنها كانت تفضّل اسم "بيرد" حتى تتذكّره بسهولة.

"جيد، ألا تظن ذلك؟" قالت لبيتر، "فقد قرأت أن من الأفضل أن تكون أكاذيبك أقرب إلى الحقيقة بأكبر قدر ممكن، كي لا يكشفها أحد بسهولة".

وقال بيتر إنه عندما قالت ذلك، بعد ما حكته له عن بيف، وما كانت تعتقد كايسي بشكل جازم بقدرة بيف المذهلة على الكذب على ابنتها طوال حياتها، بدت ضرورة أن تظل قريبة جدًا من الحقيقة أمرًا جليًا، لكن لم يكن ذلك مهمًا.

لم يسألها أحد عن أيّ شيء. وكان نزل الشباب منزلًا كبيرًا من الطراز الفيكتوري قريبًا من وسط البلدة ("مثل منزل جوليا، لكنه أضخم خمس مرات" قالت لبيتر) وكان من الواضح أنها كانت عطلة الربيع لأن القاعة الأمامية كانت مليئة بالشباب السائحين – بالغون، قالت كايسي، لكن ليس كثيرًا. وضعوها في غرفة مع ثلاث فتيات سويديات، اثنتان منهما، أنجا ولين، شقراوتان مثلها، أما الفتاة الثالثة، إنج، فكانت قصيرة سمراء لها نهدان كبيران وعينان زرقاوان

واسعتان تنافسان عيني كايسي، وأكثرهن كلامًا. كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وتتكلّم اللغة الإنكليزية بطلاقة، وكنّ صديقات في المدرسة الثانوية، وقررن أن يسافرن قبل أن يدخلن إلى الجامعة. وكنّ قد جئن إلى منطقة الساحل الغربي في البداية، ثم سيذهبن إلى الساحل الشرقي ويمضين أسبوعًا آخر قبل أن يعدن بالطائرة إلى بلدهن، لكنّهن كنّ يرغبن أولًا في القيام برحلة على الأقدام في بداية فصل الربيع في ماين.

حكت لهن كايسي قصّتها التي كانت قد أعدّتها سلفًا، وعندما دعونها لمشاركتهن طعام العشاء اعتذرت وقالت إنها حزينة جدًا على جدّها - المريض جدًا، وإلاّ لما تمكنت من أن تأتي وحدها – وتعللت بأنّها تحتاج إلى قدر من الراحة، وادّعت بأنها زارته في المستشفى في وقت مبكر من ذلك المساء، فأبدت الفتيات السويديات تعاطفًا شديدًا معها.

"لقد فقدتُ جدّي أنا أيضًا منذ ثلاث سنوات تقريبًا"، قالت إنج، "والد أمّي، مثلك تمامًا. وكان قد فقد ذاكرته، ولم يعد يعرف من أنا، لكنّي أتذكّر جيّدًا كيف كان عندما كنت صغيرة، وكيف كنّا نلعب لعبة الحصان، فأمتطي ظهره ويسير على يديه وركبتيه، كالحصان. يا له من شيء محزن".

ثمّ سألتها أنجا: "هل جدّك لا يزال يحتفظ بذاكرته؟ أقصد، هل يعرف من أنت؟"

كان على كايسي أن تقرّر بسرعة. "في معظم الأحيان"، قالت كايسي، "إنه يعرف في معظم الأحيان، لكن ليس دائمًا".

"ما هو مرضه؟" جاء دور لين.

"سرطان. في مرحلة سيئة من المرض".

"في أي مكان من جسمه؟"

"لقد انتشر. انتشر في أنحاء جسمه. أصبح في رئتيه وفي دماغه وفي أماكن أخرى أيضًا".

هززن رؤوسهن بصمت وأطرقن برؤوسهن إلى الأرضيّة الخشبية، ثمّ وقفت إنج واقتربت من كايسي وربتت على ركبتها وقالت: "من الجيّد أنك جئت لزيارته، فقد لا يعيش طويلًا". ثمّ خرجت الفتيات السويديات لتناول العشاء، وتركن كايسي وحدها تحت لوح مشع فوق مرتبة بلاستيكية مع غطائها ومنشفة يد لتتناول عشاءها من رقائق القمح، ولتتسلى بتلك المجلة المهترئة التي كانت قد قرأتها في محطة الحافلات.

لم تتوقّع كايسي قط أن تأتي إلى بانغور في عطلة نهاية الأسبوع. ولم تكن تتخيّل أنها ستلتقي بآرثر بورنيس وأسرته بهذه الطريقة. كانت غارقة في كذبتها عن جدّها، وأحسّت بأنّ الفتيات السويديات لا يستطعن رؤيتها وهي تتمشى حول نزل الشباب في الوقت الذي يجب أن تكون فيه واقفة بجانب سرير جدّها. لكن الفتيات اللاتي كن يرغبن في القيام بنزهة، ارتدين ثيابهن وانسللن بهدوء من الغرفة في وضح النهار، وحزمن حقائبهن وتركنها حتى يعدن في المساء. فتحت كايسي عينها سرًا لتراقبهن وهن يحزمن أمتعتهن. كان نهدا إنج يتدّليان على مسافة قصيرة من وجه كايسي عندما انحنت لترتدي بنطالها. لكنها لم تكشف نفسها أنها مستيقظة. وكما قالت لبيتر فهذا بيت للشباب وليس فندق هامبتون إن. ولم يكن بوسعها أن تتجول هناك طوال اليوم؛ وكادت أن تقتنع هي نفسها بأن جدّها الذي اختلقته من

مخيلتها يرقد حقًا في المستشفى. ثم استحمّت وارتدت ثيابها، وخرجت مطرقة الرأس، تسير بخطى واثقة باتجاه محل بانغور جنرال، كما لو كان الذهاب إليه أمرًا في غاية الأهمية.

كان صباح ذلك اليوم الربيعي باردًا لكنه مشرق، وانحنت الأشجار التي بدأت براعمها تتفتح عندما مرّت أمامها. فقد تفتحت الأزهار الصفراء على أغصان أشجار الفورسيثيا التي كانت تبعد عدة ياردات، على أطراف حقول الزعفران والأزهار البرية. رأت كايسي أن الأزهار هذه إشارة إلى الأمل، تبارك خطواتها. ورأت حبتيْ كرز نضجتا وتفتحتا قبل حبات الكرز الأخرى، فتوقّفت تحت شجرة الكرز قليلًا، ورفعت عينيها إلى السماء الزرقاء القابعة وراء اللون الوردي. وقالت لبيتر إنّها شعرت بأنها في حال أفضل بكثير مما كانت منذ عدة أشهر. وأحسّت بأن الهواء الذي تتنشّقه ويدخل إلى رئتيها مختلف، وأحست ببرودة طفيفة في أطراف أصابعها، والنسائم تهبّ على رقبتها، ولون أشعة الشمس الوردي التي تسللت من خلال تويجاتها... كان ذلك كأن أحدًا يقبّلها، لا بطريقة رومانسية، قالت لبيتر، وإنما بالطريقة التي تقبّلك فيها أمّك - أو أبوك – عندما تكون صغيرًا، ويمسّدان شعرك برقة وحنان.

معتمرة قبعة تخفي رأسها بعناية، وبدون نظارات شمسية، أمضت الصباح في المستشفى، تتجول بين محل بيع الهدايا، والرواق الرئيس، والكافتيريا شبه المعتمة الكئيبة حيث تناولت كوبًا من الحساء وسندويشة من خبز الشوفان فيها شريحة لحم وجبن سويسري، ثم تناولت طبقًا من الرزّ بالحليب – أول وجبة طعام حقيقية تتناولها منذ أن غادرت البيت. كان الطعام رخيص الثمن، وأحست بالامتنان

من أجل ذلك، وأحبّت طبق الرزّ بالحليب – كوزي شاك – وبذلت كل ما بوسعها حتى تبدو أنها تعرف ماذا تفعل – حتى لا تبدو مثل فتاة مشردة – واندمجت إلى درجة كبيرة في تمثيل دورها إلى درجة أنها، قالت لبيتر، أصبح بإمكانها أن تتخيّل جدّها الذي لا وجود له أصلًا، راقدًا فوق أحد تلك الأسرّة المعقّدة في الطابق العلوي من المستشفى، رأسه مرفوع إلى الأعلى، وركبتاه مرتفعتان قليلًا فقط، يغطيه شرشف، ويرتدي رداء المرضى الأزرق المنقط، تثقب ذراعاه أنابيب متصلة بأجهزة تبعث وميضًا، وقد تهدّل شعره الأبيض الخفيف إلى جانب، وأغمض عينيه. تخيّلت وجهه، المصفرّ، المكسوّ بالنمش، وطريقته المزعجة عندما يتنحنح كلّ دقيقة أو دقيقتين. كانت تتخيّل رجلًا حقيقيًا، توليفة من بعض الرجال المسنين الذين تراهم صباح كلّ يوم، وأقنعت نفسها بأنّه رجل حقيقي وأنها تستطيع أن تشعر بالدموع تترقرق في عينيها عندما تفكّر بموته الوشيك. وكانت مستعدّة، إذا سألها أحد في المستشفى، أن تصف هذا الجدّ بدقة كبيرة، وأن تهرع عائدة إليه – كان الشك الوحيد الذي يساورها، بعد أن درست دليل أجنحة وأقسام المستشفى عند المدخل، هل يمكث في قسم المسنين في الطابق الثالث في الجناح الغربي أم في قسم الأورام في الطابق الخامس في الجناح الشرقي. وفي الساعات التي أمضتها في المستشفى، بدا أن أحدًا لم يلحظ وجودها؛ وبالتأكيد لم يكلّمها أحد، كما لو أنها كانت مألوفة، غير مرئية.

الآن فقط، وعلى نحو مخيف، تساءلت عمّا إذا كان جدّها غير موجود فعلًا، أم أنه مات منذ زمن بعيد كما دأبت بيف على القول، أم أن بيف قتلته، مثل أبيها، بقصصها، أما في الحياة

الواقعية، فهو يواصل أيامه في هذه الحياة بحزن في مكان ما، ربما في بانغور، ماين، وهو يتساءل ماذا جرى لابنته، وهل ستكون له في هذا العالم حفيدة يستطيع أن يحبّها. يجب أن تتصوّر كيف اهتزّ إيمان كايسي بالكامل قبل أن تتوجه لتقرع باب بيت بورنيس. لقد تزعزعت الحقيقة. كانت تقول لنفسها دائمًا إن الحقائق بالية، أو هكذا كانت تبدو لها. فلم تعد تثق بشيء كانت ترى أنه حقيقة؛ لكنّها كانت تعرف أيضًا أنّها قد تكون مخطئة، وأن بيف قد لا تكون قد كذبت عليها، وأن والدها الذي تحبّه قد مات حقًا وهو يقود سيارته على الطريق السريع خارج بوسطن في تلك الليلة التي مضى عليها زمن بعيد.

كانت كايسي تكره أندرز شوت وتتمنى أنه لم يكن له دور في حياتها. أما أمّها التي كانت قد صبت كلّ حبّها فيها وإحساسها بالأمان منذ أن رأت هذه الدنيا، فقد وقعت في حبّ هذا الرجل الذي تكرهه كايسي، وبدا أنها مستعدة للتضحية بابنتها، ابنتها الوحيدة، من أجل ذلك الحبّ. بأي شيء يجب أن تؤمن كايسي؟ من الأفضل أن تفكّر بأنّ أمّها قد فقدت صوابها، وأنها مصابة بمرض الكذب القهري فتصدر أحكامًا فظيعة، على أن تصدّق بأن أمّها أهملت كايسي لأي سبب كان، وأن لديها سبب حقيقي لخياراتها. وفي كلتا الحالتين، فقد كانت كايسي وحيدة، لكن في الحالة الأولى، كان لديها على الأقل، أمل – بأن يكون عندها أب، جدّان، ولو كان أمامها أي بديل من بدائل الحياة تلك، فلا يمكن لأي منها أن يكون أسوأ، كما يخيّل إليها، من الحياة التي تعيشها.

كان بعد ظهر يوم الأحد في بانغور أكثر صعوبة. فلم تستطع أن تتجوّل طوال اليوم في ممرات المستشفى من دون أن تجلب أي

قدر من الريبة، لأن المستشفى ليس كبيرًا. ومع أنها تعرف أنّ المكتبة العامة تُغلق يوم الأحد، فقد توجهت إليها، من ضفّة النهر المرتفعة حتى الميدان المفتوح المنبسط في شارع هارلو. كان من الصعب أن تختفي عن الأنظار في يوم الأحد، قالت لبيتر - ليس بنفس الصعوبة عندما تكون في رويستون، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضًا، على الأقل بالمظهر - لكنّها ظلت بارزة أكثر مما كانت تريد. وأحسّت بأن الناس يراقبونها، وعندما انتشرت أشعة الشمس وازدادت الحرارة، انتابها القلق بأن القبعة التي تغطي شعرها ستجعلها أكثر بروزًا. لكن وضع شعرها - شعرها الأبيض الأشقر المميّز - سيصبح أسوأ. وظلت تتوقّع أن يدنو منها أحد ويطرح عليها أسئلة – فقد حدّقت فيها الجدّة العجوز التي خرجت من محل رايت إيد والتي تعرج قليلًا وتحمل كيسًا مليئًا بالأدوية، والفتى الآسيوي الصغير الذي صدم بدرّاجته السكوتر كعب قدمها بقوة لأنه لم يكن ينظر أمامه، والشاب الذي ذكّرها ببيتر، الذي له نفس خصلات الشعر الداكنة والذراعين الطويلتين، والذي يقاربنا في العمر تقريبًا، يقف محنيًا على درجات المكتبة ينقر على هاتفه. كان ذلك الأسوأ، لأنها أرادت أن تجلب انتباهه، لأنها كانت تنظر إليه بسهولة بقدر ما كان ينظر إليها، يلقي عليها نظرات مختلسة بخلاف الآخرين، نوع من الغزل، لكنه لم يكلّمها، وكذلك هي، وفي النهاية، فهذا شيء جيّد، حقًا، لأنها لا تريد أن يُكشف أمرها، فغادرت المكان بسرعة النسيم واتجهت إلى الحديقة القريبة وجلست القرفصاء تحت شجرة قيقب، لكن مؤخرتها تجمدّت على الأرض الباردة، متظاهرة بأنّها تنتظر شخصًا – وهذا ما كانت تفعله فعلًا، بالطبع. وقالت لبيتر الذي كرّره لي، بأنها في ذلك المكان فقط - في

الحديقة، تحتها الأرض الشائكة وخلفها جذع شجرة القيقب المتقشّر بأغصانها العارية في الشتاء - عرفت أنّها هاربة، وأنّها وضعت نفسها في فئة الخبر العاجل أو إنذارات أمبر، فتاة قاصر ليست في المكان الذي يُفترض أن تكون فيه.

فكّرت بكلّ هذا الجنون: لماذا يوجد لأندرز شوت كلّ هذا التأثير على مصيرها؟ كيف يمكن أن يكون ذلك؟ ماذا يعني أن تعود إلى البيت، إذا انتهى بها الأمر أن تعود إلى البيت، أم هل هذه هي الكلمة المناسبة الآن، لأن بيت كتاب القصة الذي يقع في ذلك الشارع المسدود ووراءه الغابة الزاحفة؟ لو كانت في البيت الآن، تساءلت، وقالت لبيتر، وهي تجلس في تلك الحديقة الصغيرة تشعر كأن عباءة ثقيلة من الرصاص، حزنًا شديدًا يجثم فوقها، أحسّت بأن كتفيها وعمودها الفقري تتهاوى، بل حتى أن خديها أصبحا ثقيلين – بعكس الإحساس بالبهجة الذي تملكها في ذلك الصباح تحت أزهار شجرة الكرز. لأنه بدا لها فجأة أن مجيئها إلى بانغور كان خطًا جسيمًا، شنيعًا، وأنها مهما اكتشفت من هو آرثر كلارك بورنيس، فلن تكون هناك رجعة، لا توجد ثمة وسيلة لتجاهلها، وإما أنها ستلتصق ببيف وأندرز ولا يكون هناك مهرب منهما، أم أن تفقد بيف إلى الأبد عندما تكتشف أنها كانت تكذب عليها طوال حياتها، وحقًا، وصدقًا، فإن ما كانت تريده هو أن تستطيع أن يعود بها الزمن إلى الوراء، ليس بعيدًا جدًا، سنتين فقط، تعود إلى فصل الصيف ذاك قبل أن تبلغ الصفّ السابع، قبل أن يبدأ كلّ شيء يجري على غير ما يرام. أن يعود بها إلى زمن اللا معرفة. (وعندما قال لي بيتر إنها قالت ذلك، كنت واثقة من أنه، بالرغم من أنّها كانت تتكلم حول كيف كانت الأمور تسير مع

بيف، أمّها، فقد كانت تعني أيضًا أنها ستعود إليّ، وأنّها تريد أن تعود إحدانا إلى الأخرى أيضًا، وأن لا تنفك تلك العقدة التي كانت تربطنا منذ زمن بعيد)

عندما قال لي بيتر ذلك، كلّ ما قالته له كايسي في عصر ومساء يوم الأربعاء ذاك، في غرفة نومه، مختبئين من والديه ومن والديها، قبل أن تختفي ثانية ولم يعرف أحد منّا مكانها، أردت أن أقنع نفسي بقوة بأنّ باستطاعتي أن أفعل شيئًا، بأنني أستطيع أن أساعد في العثور عليها، طبعًا، وأن ذلك سيكون مهمًا أيضًا، بل سيكون مهمًا كثيرًا بالنسبة لها لأنّني فعلت ذلك، وأن من فعل ذلك هو أنا. بالطبع، فهي قصّتها، وبالطبع فإن ما جرى هناك في ماين، لم يحدث لي، مع أنني أشعر الآن، كأنني كنت هناك. لكني لو كنت صادقة، فإن ما يهمني أكثر هو كيف أن تلك الأحداث قد أثّرت على قصّتنا، قصّتها وقصّتي. كنت أريد أن تعود إليّ. عندما حكى لي بيتر كلّ ما روته له، كنّا نعيش في عالم النسيان وعدم اليقين، بين مرحلة شهيق وزفير، وعندما أقول لك أكثر شيء يهمني، فإني أبوح بسرّ فظيع، لأن كلّ ما كان يهم أي شخص آخر آنذاك هو أن نعثر عليها.

إذًا ما الذي حدث، في النهاية، في بانغور؟ لم يكن بيتر واضحًا تمامًا في ذلك. لا لأن كايسي لم تخبره، بل أخبرته، لكن الحكي كان يزعجها، ولم تكن شديدة الوضوح. لم يشأ أن يلحّ عليها حتى تعيد على مسامعه القصّة التي كان من الواضح أنها مؤلمة جدًا، وظن أنه سيأتي وقت تحكيها له مرة أخرى. ظنّ أنه سيطلب منها أن تسرد عليه ثانية سير الأحداث ليتأكد من أنه سمعها بشكل صحيح، بعد يوم أو يومين، عندما تلتقط أنفاسها وتهدأ. فتركها تبكي معظم

الوقت وتشهق وتبتلع كلماتها وتترك فجوات في حديثها مما جعله غير مفهومًا تمامًا.

وهذا ما فهمه بيتر، أو ما حكاه لي: بعد أن تناولت طعام الفطور مع الفتيات السويديات في صباح يوم الإثنين، سارت كايسي مسافة ميلين باتجاه بيت بورنيس، مستخدمة الخريطة التي طبعتها في مكتبة المدرسة في رويستون من برنامج غوغل (الطباعة التي لم تحاول ميس باروكا أن تتّبع دلائلها حتى اليوم التالي ولم يثمر ذلك إلاّ بعد أن عادت كايسي إلى رويستون) تحت رذاذ شهر أبريل الخفيف لكن المتواصل. وتبيّن لها أن البيت رقم 36 في شارع سبرينغ بيت بسيط وصغير، يقع في أحد أحياء البيوت الجديدة فيها ساحات واسعة غير مسيّجة وبدون أرصفة حيث يمكن ملاحظة فتاة واقفة تحت رذاذ المطر بسرعة، لذلك لم تتوقّف في تلك الزيارة الاستطلاعية، بل مشت بالقرب من البيت وظلت تمشي مسافة ربع ميل آخر أو حوالي ذلك قبل أن تستدير وتعود أدراجها إلى البلدة. في الحياة الحقيقية بدا لها البيت في حالة مزرية أكثر مما كان يبدو على شاشة الكمبيوتر. ربما كان ذلك بسبب المطر، أو لأنهم في أواخر الشتاء، لكن الطلاء كان يتقشّر، ومدخل البيت الاسمنتي متشقق مثل خزف قديم. وكان العشب قد خسر معركته في بعض الأماكن وتحوّل إلى بقع ترابية ذابت في ذلك الطقس واستحال إلى برك طينية. كان البيت معتمًا - الأطفال في المدرسة، الوالدان في عملهما. لاحظت كايسي أنّ طوق كرة السلة المثبّت في أعلى جدار الكراج محنيّ إلى الأسفل، كما لو أن أحدًا قد تعلّق به، أو أنه حاول ذلك، لكنك لا تستطيع أن تلقي إليه كرة في جميع الأحوال. لقد تذكّرتْ ذلك لاحقًا.

عندما عادت في المرة الثانية، كان المطر قد توقّف عن الهطول منذ فترة قصيرة (مع أن ثيابها كانت لا تزال مبللة، بالرغم من الوقت الذي أمضته وهي تلوّح ببلوزتها تحت مجفف الأيدي في الحمّام في مكتبة بانغور العامة في الطابق الأرضي). كان قد خيّم الظلام، وأُنيرت الأضواء في البيت الأزرق، ومن خلال النور الخافت كان باستطاعتها أن ترى هيئات أشخاص يتحرّكون بين الغرف – كما لو كانت تشاهدهم على شاشة التلفاز، كما قالت لبيتر. لكنه عندما قال لي ذلك، تذكرت اللحظات التي كنت أراقب فيها أبناء عمي في عيد الشكر من وراء نافذة بيتنا، ذلك الإحساس الغريب بالبعد، حتى الإحساس إلى أين يجب أن تنتمي.

بطبيعة الحال لم تكن كايسي تنتمي إلى ذلك البيت في تلك اللحظة. قالت لبيتر إنها شعرت بالجبن آنذاك. فلم تستطع أن تقرع جرس الباب، بل حتى لم تستطع أن تصعد الدرج، فوقفت في الطريق بعد ظهر ذلك اليوم عندما بدأ الظلام يخيم، تنظر من خلال ثقب حياة كان من الممكن أن تكون، كان من المحتمل أن تكون، بل ربما كان ينبغي أن تكون حياتها هي، حتى انعطفت لا سيارة واحدة وإنما سيارتان ومرتا بجانبها في العتمة، فتراجعت إلى الوراء.

كانت الفتيات السويديات قد غادرن. وهكذا أصبحت وحدها في الغرفة. لم يغمض لكايسي جفن. استيقظت قبل الفجر وعادت إلى شارع سبرينغ ستريت قبل أن يطلع النهار: المرة الثالثة ثابتة. كانت تشعر بأنها متعبة من كلّ شيء، متعبة من الأوضاع ومن نفسها. كانت تريد أن تجعل الأشياء تحدث، أن تتضح الأمور.

لم يكن ضوء النهار قد بزغ عندما قرعت أخيرًا جرس بيت

بورنيس. ومثل مساء البارحة، كانت الأضواء داخل البيت تنير الغرف، لكن بشكل مختلف: مشهد جديد، بل ربما فصل جديد، في المسرحيّة. فتح الباب الابن الأكبر، جايسون الذي كان يرتدي ثوبه المدرسي الخاص بالمدرسة الكاثوليكية، حتى مع ربطة عنق. كان أكثر امتلاء مما كان يبدو في الصور، أطول قليلًا أيضًا، فمه يشبه قوس كيوبيد، وذلك الزغب الداكن فوق شفتيه الذي تذكّرته من الصور. كانت شفتاه تلمعان قليلًا - لحم خنزير مقدد، ربما؟ كانت تفوح منه رائحة تشبه ذلك. قالت له إنها تريد أن تكلّم والده، المدرب بورنيس. تفحصّها الصبي من قمة رأسها حتى قدميها. ظنّ أنها تلميذة في المدرسة الثانوية، "بالتأكيد؟" لكن قبل أن يستدير ويبدأ صعود الدرج قال لها "انتظري دقيقة"، لا بوقاحة ولا بتهذيب.

"إذا كان بإمكانك الانتظار هنا".

من داخل البيت تناهى إليها صوت المذياع، وأصوات أطفال تشبه حشرجة أنابيب، حنفية ماء تُفتح، أنبوب يقرقع. كان المدخل الذي وقفت فيه كايسي تنتظر، صغيرًا، تتناثر فيه أحذية وأوشحة رأس. وكانت هناك مظلّتان مغلقتان. كانت تفوح من المدخل رائحة رطوبة. اختفى الصبي لفترة قصيرة، ربما بضع دقائق، وعندما هبط الدرج ثانية كان يرتدي سترة فوق قميصه الذي رُسمت فوق جيبه شارة، وعقد ربطة عنقه.

"إنه قادم"، قال، وهو يلهث قليلًا الآن، ثم عاد واختفى.

في الخارج، وراءها، كانت السماء قد نشرت نورها بالكامل. إنه يوم رمادي ينذر بمزيد من الأمطار. دفعت كايسي يديها إلى جيبي سترتها. كاد كتفاها يلتصقان بأذنيها. قالت لبيتر إنّها حاولت أن

تتنفس ببطء كما علّمونا في دروس المسرح في المدرسة: شهيق وزفير ببطء، وعند كلّ فقرة، نعدّ إلى خمسة. خيّل إليها أنّها تنفست عشر مرات تقريبًا حتى ظهر أمامها.

لم يكن آرثر كلارك بورنيس رجلًا ضخمًا- أو أنه على الأقل لم يكن رجلًا طويلًا — لكنّه كان متين البنية. وكانت سترته الرمادية مشدودة فوق ذراعيه، وكانت رقبته حمراء. ربما كان النمش يكسو وجهه، ربما كان لون بشرته فاتحًا، أما الآن فقد كان متورد الوجه ويكاد يكون أصلع. عيناه، زرقاوان فاتحتان – مثل عينيها، قالت كايسي لنفسها على الفور - دامعتان وفيهما عروق كثيرة... "عينان دامعتان"، قلت لنفسي، عندما قال لي بيتر. يبدو، كما قالت لبيتر، إنه يشرب كثيرًا، لاسيّما من شدّة احمرار بشرته. كان الانزعاج باد على وجه المدرّب بورنيس. راح يتحسّس أزرار قميصه، وبدأت أصابعه الغليظة تشدّ القميص إلى داخل الأكمام الضيقة.

"نعم؟" قال، بدون اكتراث تام، "هل أعرفك؟ ماذا في الأمر؟"

على الفور، قالت لبيتر، إنها عرفت أنه لم يكن ذلك ما كانت تسعى إليه. لا بد أن التوقيت لم يكن مناسبًا، والمشاعر في غير محلها. هذا الرجل الضئيل الحجم، الشرس، ذو الرقبة الغليظة التي تطفح فوق ياقته، والشفتين الرقيقتين المزمومتين، بدا كأنه قد ينفجر في أي لحظة.

"اسمي كايسي"، بدأتْ تقول. كان بوسعها أن تسمع صوتها كما لو كان صوت شخص آخر. كان بإمكانها أن تسمع صوتها يرتعش كأنها ستبكي، "كايسي بورنيس".

لم ينتبه إلى اسم عائلتها. بدا أن ذلك لم يُحدث لديه أي

انطباع، "نعم؟"

"أنا لست من هنا" تابعت كلامها، "لكنّي أظن أنّك تعرف أمّي، بيف؟"

"من؟"

"بيف. بيفرلي بورنيس. الممرضة في دار العجزة، في رويستون، ماساشوستس، لكنها كانت في بوسطن في السابق؟"

فقال: "لا أعرف بيف بورنيس"، لكن الاضطراب بدا عليه الآن، قالت كايسي لبيتر، كما لو أنّ ثمة شيئًا بدأ يطير حول حافة رؤيته.

"منذ حوالي خمس عشرة سنة؟"

قطّب حاجبيه.

"لديّ صورة"، قالت كايسي، ومدّت يدها إلى حقيبة ظهرها لتخرج دفتر ملاحظاتها الذي وضعت فيه صورة أمّها منذ سنتين، وصورة كلارك بورنيس في شبابه، الصورة غير الواضحة.

"ما هذه؟"

"لديّ صورة لكليهما"، وراحت تبحث عنها، "هل كان اسمك كلارك؟"

"عفوًا؟"

"هل سبق وأن استخدمت اسم كلارك كاسمك الأول؟"

"عمَّ تتكلمين؟"

مدّت إليه صورته - من التعبير الذي ظهر على وجهه كانت متأكدة من أنّها صورته، وأنّه عرف على الفور المكان الذي التقطت فيه، ومن التقطها. كانت يداها ترتعشان. كانت الصورة ترفرف

بينهما. كادت تكون متيقنة من ذلك.

"من أين حصلت عليها؟ ما هذه؟"

"آرت؟ آرثر، هيا عجّل الآن – لقد برد البيض"، جاء صوت زوجته، غير عابئة، يشي بقدر من التأنيب.

"إنه عند الباب"، ردّ عليها الصبي، "طالبة من المدرسة".

"عن أي شيء هذه"، قال، ونظر إلى كايسي نظرة حقيقية الآن، لأول مرة. كان فمه مقيتًا، وأصبح وجهه مخيفًا بغتة.

"أظنّ أنّك تعرف أمّي؟" قالت ومدّت صورة أخرى، أكبر، أوضح، تقف فيها بيف بجانب رف الموقد، في حفلة، تظهر سحابة شعرها العسلي، "أو أنك كنت تعرفها، أخمّن".

فقال: "أنا لا أعرفك". كان ذلك أشبه برؤية رجل يضع حاجزًا منيعًا أمامك، قالت كايسي، "لا أعرف من أنتِ، أو ماذا تفعلين هنا. لا أعرف ماذا تريدين. لكني أظن أنك يجب أن تغادري الآن".

"أرجوك، أرجو أن تلقي نظرة على الصورة؟"

نظر، لكن نظرة خفيفة، إلى صورة بيف، ثم سألها، "من هذه؟ عن أي شيء هذه؟ لا أعرف هذا الشخص".

لكن كايسي قالت لبيتر إنّها تستطيع أن تقسم بأنّه ... حسنًا، بأنّه لم يكن يكذب، وإنما لم يكن متيقنًا. كان بإمكانها أن تقسم بأنّه ازداد غرابة، مع أن الأمور، بالطبع، كانت غريبة للتو.

أطلّ رأس زوجته بشعرها الأسود من وراء الجدار في أعلى الدرج، وقالت: "آرت، لقد حان الوقت. سيتأخر الأولاد". لم تبد زوجته كما تصوّرتها كايسي تمامًا - ففي الصور كانت تبدو ممتلئة، وكتفاها نحيفين، أقرب إلى كونهما ضعيفين. ولم يكن في كلامها أيّ لكنة.

"أنا آتٍ". عندما استدار إلى كايسي، رفع آرثر كلارك بورنيس يده بينهما، لكي لا يرى وجهها، كما لو أنه كان عليه أن يمعن فيها النظر لكي يتعرّف عليها. لكنه لم ينظر مرة أخرى إلى بيف التي كانت تلوح بينهما، وقال: "لا أستطيع أن أساعدك، أنا آسف".

"انظر إليّ"، قالت لبيتر إنها قالت له، "انظر في عينيّ - عينيك – وقل لي إنّك لا تعرف من أنا". كانت هذه كايسي التي أعرفها، كايسي الجريئة التي لا تهاب شيئًا.

دار حولها، بحرص شديد، كما لو كانت مريضة، قالت لبيتر، ليفتح باب البيت. لم ينظر إليها على الإطلاق. أشاح بعينيه الدامعتين عنها. جسديًا، بدا كأنه قد ينفجر، كما لو أنه قد انفجر للتو.

"عليكِ أن تخرجي من هنا الآن". كان صوته منخفضًا ومتوترًا، "لن أطلب منك ذلك مرة أخرى"، وأومأ إلى الخارج إلى الصباح الرمادي، قطعة صغيرة من جمجمته، عيناه تحدّقان في السقف المعلّق كالسحابة.

خرجت كايسي من الباب وأغلقه وراءها بقوة. وسمعته يُزلق القفل أيضًا. لم تبدأ تمطر ولم تبدأ تبكي حتى عادت سيرًا إلى البلدة، وقالت لبيتر إنه كلما مرّت سيارة بجانبها وتجاوزتها، كانت تتساءل عمّا إذا كان هو، آرثر كلارك بورنيس، يوصل بسيارته أطفاله الآخرين إلى اليوم الجديد.

لا توجد كلمات يمكن أن تعبّر عن ذلك، حول كيف كانت مشاعرها. أعرف ذلك، حتى من بعيد. لم تكن بحاجة إلى أن تقول

ذلك لبيتر - كان بمقدوره أن يتخيّل ذلك. كانت كايسي ممتلئة بالمعرفة والشك في وقت واحد، ولم تكن هناك وسيلة يمكن أن ترجعها إلى عدم المعرفة. كانت متيقنة، في قرارة نفسها، وفي أعماق قلبها، بأنّ هذا الرجل هو أبوها. فقد كانت، طوال حياتها، تعتمد على تصوّرها لهذا الرجل وتثق بهذا التصوّر. وها هو الآن بلحمه ودمه، على هذه الأرض، قالت لبيتر (أو أنه هو؟ قال لي بيتر، لأنه لم يكن بيتر ولا أنا قادرين على جمع حتى جزء طفيف من قناعة كايسي ويقينها: لماذا يجب أن يكون آرثر كلارك بورنيس من بانغور، ماين، هو والدها؟ لماذا يجب أن يكون أبوها على قيد الحياة أصلًا، بدون دليل، بينما كان في الحقيقة ميتًا طوال عمرها؟) ها هو أخيرًا، ملاكها الحارس – سوى أنه لم يكن كذلك، أليس كذلك؟ كانت طوال حياتها تعشق ذلك الحامي المحبّ الذي تحلم به. لكنها عندما أصبحت في حاجة ماسة إليه، عندما سرق أندرز شوت حبّ أمّها واهتمامها منها، أدركت أن والدها حقيقي، رجل من لحم ودم، لكن هذا الرجل أنكرها ولم يعترف بها. كان ذلك كما أنكر بطرس المسيح في الإنجيل، قالت لبيتر. لقد نظر إليها لكنه رفض أن يراها، بل حتى رفض أن يعترف بوجودها. أشاح بعينيه عنها وأغلق باب بيته في وجهها. وفي الوقت الذي لم تعد أمّها تريدها! (أو أن كايسي، قال لي بيتر، قد تكون قد اختلقت كلّ هذه القصّة. لماذا؟ قلت. ثمّ أجبت، بالنيابة عني، وعن كايسي، لأنني عرفت فجأة: لأنه بدا لها أنه لا يوجد أمامها خيار آخر، لا توجد قصّة تبدو معقولة وتمنحها إمكانية الأمل في الوقت نفسه).

لقد أعادت كايسي والدها إلى الحياة، ثمّ ها هو الرجل الذي ذهبت لتستعيده، الرجل الذي طالما آمنت به ومنحته كلّ حبّها قبل

أن تقف عند عتبة باب بيته بزمن طويل - ذلك الرجل الذي لم يكن متخيّلًا وإنما رجل حقيقي، يرفضها وينكرها بالكامل. ثمّ لم يعد أحد يريدها، بل لم يعد هناك أحد يريد أن تعيش معه، ولم يعد لديها مكان يمكن أن تلجأ إليه.

لكن لم يعد لديها، قبل كل شيء، سبب للبقاء في بانغور، فعادت إلى البيت. وفي ليلة يوم الثلاثاء تلك، نامت في العراء في بوسطن، لأنها لم تتمكن من اللحاق بآخر حافلة متجهة إلى رويستون. ثم ظهرت عند بيت بيتر – عند نافذته، بدقة أكبر، بعد أن تسلّقت سطح المدخل – بعد ظهر يوم الأربعاء، مُتسخة، خائفة، مُستنزفة، مُرهقة. وظنّ بيتر أن هذه هي النهاية، الخاتمة، لكنّه كان مخطئًا.

إلى أين ستذهب؟ ماذا بعد ذلك؟ من سيفتح الباب، وذراعاه مشرّعتين لي؟ فأنا أعرفها حق المعرفة إلى حدّ أنّ هذه الأفكار هي أفكاري، يمكنني أن أتغلغل في جلدها، وأرى العالم من وراء عينيها - عيوننا الزرقاء التي كانت دائمًا تجعلنا أختين – وأشعر بالامتنان، والارتياح، بأنّها كانت حكيمة لأنها اختارت بيتر. بيتر الذي كنت سأختاره أنا، إذا شعرت، لسبب ما، أنني لم أتمكن من اختياره. كنت أتمنى أن تكون قد اختارتني أنا. لكن بيتر يعرف ما يجب أن يفعله، وعلى الرغم من ذلك، فلم يخرجا معًا، وظل يحبّها. كان حاميًا لها. كانت تعرف أن من الأفضل أن تلجأ إليه ولا أن تلجأ إلى مورسيل الشرّيرة في بورتلاند، وهذا يعني الشيء الكثير.

لكن بالرغم من ذلك، في صباح يوم الخميس، عندما تحرّكت أخيرًا، تحت بقعة ضوء شمس أبريل، في غرفة بيتر، وجدت نفسها وحدها مع رسالة كتبها لها – "عندي امتحان، يجب أن أذهب.

يمكنني أن أتجاوز امتحان اللغة الإسبانية والتاريخ. سأعود في الساعة الحادية عشرة تقريبًا" – كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تبقى. فلم يكن والداه يحبانها كثيرًا – لم تكن هي الصديقة التي تتخيّلها أيمي أوندل لابنها، ولم تكن ترغب في أن تراها على سريره. وهما ليسا ذلك النوع من الوالدين اللذين سيرافقانها إلى باب بيتها ويدعمانها عندما تقف في مواجهة بيف وأندرز شوت. كانت أمي وأبي سيفعلان ذلك، أو ربما كانا سيفعلان ذلك. كنت أنا سأفعل ذلك، لو سألتني.

بدلًا من ذلك، ذهبت وحدها، قفزت إلى دراجتها الهوائية التي أحضرتها من المكان الذي خبأتها فيه وراء محل دنكين أند دونتس التي كانت قد ربطتها بسلسلة إلى عمود مصباح قريب من بيت بيتر. كيف تمكنت من اجتياز البلدة من دون أن يلاحظها أحد في ذلك الصباح، لا مرّة واحدة، وإنما مرّتان، تلك الفتاة ذات الشعر الكتّاني الذي يشّع ويلمع تحت أشعة الشمس – لا أعرف. فقد كانت البلدة برمتها تعرف أنّها مفقودة - أو كان يعرف ذلك نصف سكان البلدة على الأقل - لكن هذا ما أفكّر به: فأنت لا ترى إلاّ ما تتوقّع أن تراه. ودماغك يفعل الباقي. لأن صخب الحياة، بأصواتها وروائحها ودلائلها اللا متناهية، تمور حولك مثل نهر يفيض فوق ضفتيه: يمكنك أن تستوعب فقط، يمكنك أن تدرك أشياء كثيرة. وإذا كنت قد وضعت كايسي ضمن فئة الأشخاص المختفين - جميع تلك الفتيات والنساء اللاتي اختطفهن أشخاص مشردون أو جيران، أو ضربهن آباؤهن، أو قطّعهن عشاق نبذتهن عشيقاتهن، أو اختُطفن من الدروب المخصصة لسير الدرّاجات الهوائية، أو من مركز التسوّق، أو من موقف الحافلات في وقت متأخر من الليل وأُخذن إلى دار آخرة غير مرئية وغير متخيّلة

وغير موجودة - حسنًا، لو كانت قد ذهبت، لما أمكنك رؤيتها، أليس كذلك؟ هذا ما يخيّل إليّ.

كان البيت – الذي يقع في شارع مسدود - فارغًا في صباح ذلك اليوم: فلم يكن عمل بيف في دار العجزة، عمل الموت، ينتظر أي رجل، وكان أندرز، رحمة لكايسي، في المستشفى. ولم تتحرك الكلبة لدى أسرة أوكوينس أو تنبح في حديقة منزلهم، عندما انسلّت كايسي، مشهد مألوف، رائحة مألوفة، له. استحمّت، وبدّلت ثيابها، ثم تناولت شرائح من الجبن، ودهنت قطعتين من الخبز المحمّص بزبدة الفستق، وتركت الإناء المتسخ على الموقد.

لم تفتح هاتفها، لا في ذلك الحين ولا بعد ذلك، ربما لأن الهاتف بدأ يبدو مثل بوابة شرّيرة، حفرة يمكن أن يصل من خلالها أي شخص، بينما لم تكن تريد أن يصل إليها أحد. ما عدا بيتر – وأريد أن أفكّر، ما عداي أنا أيضًا، لكنّها لم تكن تفكّر بي - لم تكن تريد أن تكون على تواصل مع أي شخص في تلك اللحظة.

خلال الساعتين اللتين سبقتا عودة بيف إلى البيت، ماذا كانت كايسي تفعل؟ بماذا كانت تفكّر؟ أقول إنني أستطيع أن أتغلغل إلى داخل جلدها، ونعم، صحيح، يمكنني أن أقول إنّني أعرفها أكثر مما تعرف هي نفسها، ونعم، صحيح، لكن كلما حاولت أن أتغلغل فيها، في تلك اللحظات، لم أكن أحصل إلاّ على صوت مشوش لا معنى له يصمّ الأذنين. لم تكن تعرف بالتأكيد أن بيف ستعود إلى البيت، حتى لو كانت تعرف أنها يمكن أن تعود. لم تكن تعرف كيف ستكون ردة فعل بيف عندما تجد أن ابنتها الهاربة قد عادت. لكنها لم تكن تعرف، هي كايسي، كيف ستكون ردة فعلها. لا تخطّطي لها،

لا تفكّري بالأمر كثيرًا، اتركي الأمر يحدث فقط، عليكِ أن تجدي وسيلة لرأب الهوّة من هنا إلى هناك، من هذا الحاضر المستحيل إلى مستقبل يتعذر تصوّره... لكن لا، لا أظن أنه كانت هناك أيّ فكرة عن المستقبل، ولا بقدر قليل. فقد خانتها أمّها، وأنكرها أبوها. لم تكن تعرف حتى كيف يمكنها أن تشعر – فتاة غرّة، وحيدة، متألمة، منكسرة – إذًا كيف تستطيع أن تفكّر؟ لا أظن أن أفكارًا كانت تدور في رأسها على الإطلاق، صوت فقط، الزئير، الضوضاء البيضاء التي تصمّ الآذان.

في حوالي الساعة الثانية، عادت بيف إلى البيت. أعرف روايتها من القصّة فقط. فلم تكن تنوي البقاء في البيت. فقد نسيت بعض الأوراق المتعلقة بالزيارة المنزلية التي ستقوم بها في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، شيء يتعلق بالدواء. لأنني تذكرت ذلك لاحقًا. أذكر أنّها استخدمت كلمة "يتعلق بـ" وكيف بدا لي ذلك غريبًا. أتخيّلها تدخل إلى البيت بسرعة، تنورتها الطويلة ملتفّة حولها، وسمّاعتها الطبية معلّقة حول رقبتها، تعلو وتهبط فوق صدرها الذي يلهث باستمرار - لكن ربما يكون هناك وقت لتناول وجبة خفيفة سريعة؟ - وفجأة، في الزاوية، رأت كايسي، ضئيلة الجسم في معطفها المنتفخ (لم تكن ترتدي معطفها عندما هربت، أليس كذلك؟ تساءلت بيف)، وشعرها الرطب يتدلّى، تجثم فوق مقعد مرتفع إلى الطاولة في وسط المطبخ، هادئة كما تريد.

هذه ليست ابنتي، قالت بيف لنفسها – للحظة فقط فكّرت أنّها مخادعة، من النظرة التي في عين كايسي. كدت أسقط ميتة، قالت، أظن أنّني أمسكت قلبي، كانت تخيف ضوء النهار، هادئة جدًا،

مثل لصّ، في المطبخ. مثل لصّ أو شبح.

قالت بيف إن صوتها كان لا يزال هادئًا، ويكاد يكون مرعبًا، كما لو أنها كانت مسرورة: بيف، هل عدت إلى البيت.

نعم، وأنت كذلك، ردت بيف. أظن أن الدموع اغرورقت في عيني، لكن صحيح، لم أقترب وأضم ابنتي إلى صدري. لا أستطيع أن أفسّر ذلك. في تلك اللحظة، ارتعبت منها، فقد بدت دجالة، مخادعة، مليئة بالتحدي، كما لو أنهم أعادوا إليّ فتاة مختلفة.

صحيح؟ قالت. ماذا يعني ذلك؟ أقصد، حقًا؟

هل هذا بيتي؟ قالت عندئذ. كانت هادئة وباردة. كانت بيف غاضبة. بالتأكيد. في أي حالة وضعتنا فيها، أنا وأندرز. لم يكد يغمض لي جفن. لعدة أيام. كلّ ذلك بسبب فرض فترة محددة لعودتها إلى البيت ليلًا، هل يمكنك أن تتصوّري ذلك. حسنًا، قد تسألين، قلت، بعد كلّ أحابيلك (كم أتذكر هذا يا جوليا: كلمة "أحابيل" استُقيت من بلد آخر، من قرن آخر - من يقول أحابيل؟) لكن كايسي لم تنزعج.

أريد أن أسألك عن بضعة أشياء، يا بيف، بتأكيد على بيف. وقالت بيف فيما بعد، صراحة شرّيرة. ثمّ، كما قالت بيف، لم تكن أسئلة أبدًا، وإنما اتّهامات: بيف كذابة، وأنها أبعدت كايسي عن أبيها، واختلقت قصّة غير صحيحة كي لا تواجه الحقيقة الفظيعة: فقد حبّلها رجل لم يحبّ بيف قط ولم يرد أن يكون له طفل منها، وأن كايسي جاءت بالخطأ، وأنها لم تكن مرغوبة... حسنًا، قالت بيف، يمكنك أن تتخيّلي كيف يمكن أن يشعر المرء من جراء كلّ ذلك، جروح أصابتني بها ابنتي، فتاتي التي ضحّيت بكلّ شيء من أجلها، ثمّ

كرّرت ذلك لتحدث تأثيرًا: كلّ شيء.

هل أعرف أنا، جوليا، أو أيّ واحد منّا، من يصدّق منهما أو ما هي الحقيقة؟ فلم يكن يوجد أحد منّا هناك، ولا يوجد شهود. لذلك عندما قالت بيف إنّ كايسي التي كانت ترتدي معطفها الأزرق قبل أن تعود بيف، كانت على وشك أن تخرج - عندما قالت بيف إنّ كايسي ضربت المنضدة بيدها بقوة، وقالت لأمها إنها كذابة أشرة ثمّ اندفعت إلى خارج البيت وراحت تجري بعد ظهر ذلك اليوم الربيعي الشديد البرودة (كانت أشعة شمس باهتة تشق طريقها عبر السماء الرمادية، وضوء النيون في حديقة البيت يلمع)، وألقت حقيبتها على كتفيها، وصفقت باب البيت وراءها بقوة ولم تترك أثرًا وراءها. هذا هو التعبير الذي استخدمته بيف، مثل شيء خارج من تمثيلية تلفازية أو من رواية بوليسية، كما في مسلسل "اختفى ولم يعد له أثر"، قاعدة لجميع جيوش الفتيات والنساء اللاتي اختفين، اللاتي لم يعد يظهر لهن أثر - نعم كان ذلك قاسيًا، في ذلك الحين، لمعرفة ما الذي تعنيه بيف، أو لمعرفة كيف بدا المشهد حقًا. فلم يكن يبدو أنه صحيح تمامًا.

لم نكن أنا وبيتر وحدنا من تساءل. حتى في يوم الخميس، انتشرت شائعات بأنّ الشرطة تساورها الشكوك. وأنهم أمضوا وقتًا طويلًا في استجواب بيف وكذلك أندرز شوت، مع أنه أثبت تواجده في مكان آخر عندما حدث ذلك. أقصد أنه كان في مكان عمله.

أما أبي وأمّي، فقد حافظا، ظاهريًا، على تكتمهما واتزانهما. كانا يحاولان أن يكونا شخصين بالغيْن، هادئين، يحاولان ألاّ يستسلما للهستيريا التي ألمت بسكان برويستون، بعد يوم واحد فقط من

اختفاء كايسي للمرة الثانية. كانا يحاولان أن يشعراني بأنه توجد سابقة لما حدث – حادثة لم تنته بجثّة ملقاة على أحد الشواطئ أو قرقعة عظام بين جمرات النار، أو فتاة تقرفص في أحد الأزقة في بوسطن وحقنة في ذراعها. قالت أمّي إن "الشرطة تؤدي واجبها، وهذا كلّ شيء. فعليهم أن يعرفوا كلّ من تعرفهم كايسي، وجميع الأماكن التي من الممكن أن تكون قد ارتادتها". ثمّ "هل أنت متأكدة يا حبيبتي أنها لم ترسل لك رسالة نصيّة على الهاتف؟ لا شيء؟ ولا حتى إلى صديقك بيتر؟"

"لقد أغلقت هاتفها يا أمّي. لقد أطفأت كلّ شيء منذ أيام. إنها لا تريد أن يعثر عليها أحد".

حكى بيتر للشرطة كلّ ما يعرفه. قال أحدهم إنه رأى فتاة ترتدي معطفًا أزرق تصعد إلى سيارة على جانب الطريق السريع 29، على مسافة نصف ميل شمال بيت بورنيس، في حوالي ذلك الوقت، وقال إنه يظن أن السيارة، ربما كانت سيارة صالون بيضاء أو فضية اللون.

في صباح يوم الجمعة، عُلِّقت صورة كايسي على لوحة الإعلانات المضاءة بالقرب من حديقة اللوتس، ترمق بابتسامة متكلّفة جميع السائقين والمسافرين على الطريق السريع 29، وكان جميع رجال الشرطة حتى بوسطن يبحثون عن فتاة ذات بشرة بيضاء وشعر يكاد يكون أبيض، يبلغ طولها حوالي 160 سم ووزنها 47 كغ (لم تكن تريد أن يعرف الناس وزنها، كنت أعرف ذلك)، ترتدي بلوزة زرقاء سماوية اللون، رقيقة، وبنطال جينز، وتنتعل حذاء رياضيًا أسود ماركة نايكي. ولم يذكر الوصف الرسمي شيئًا عن الفجوة بين

أسنانها، أو ابتسامتها الملتوية. أعتقد أنها غيّرت معطفها وصبغت شعرها عندما أصدروا أوصافها – فهذا شيء أساسي، أليس كذلك؟ حتى أنا أعرف أنني سأفعل ذلك.

هل تركت بيف حقًا ابنتها، ابنتها الجميلة الوحيدة الغالية، تركض وتخرج من باب البيت في اللحظة التي عادت فيها من الهاوية، كأنها عادت من بين الأموات، دون أن تبذل أي محاولة، على الأقل، لأن توقفها؟ لماذا لم تلحق بها بسيارتها وتبحث عنها حتى بعد مضي بضع دقائق؟ لا بد أنه كان هناك تباطؤ بين اللحظة التي هربت فيها كايسي، واللحظة التي صعدت فيها إلى سيارة الصالون ذات اللون الفاتح وجلست في المقعد الأمامي، لا ثلاث دقائق، وإنما حوالي عشر أو خمس عشرة دقيقة، وكيف كان بوسع أمّها، في أثناء تلك الدقائق، ألاّ تفعل شيئًا أبدًا لإنقاذها؟

في يوم الجمعة سمعنا أخبارًا بأنها شوهدت في أماكن عديدة- في هافرهيل، طبعًا، وفي نيوبريبورت، وكذلك في بورتسموث، وفي فانيويل هول في بوسطن، وحتى في بروفينس تاون، مع أن أحدًا ممن أعرفهم لم يصدّق ذلك. وفي المدرسة، كان لكل تلميذ رأي في ما حدث. وكنت أتوقّع دائمًا أن يسألني أحدهم ماذا أعرف، لأنني أعرف كايسي أكثر مما يعرفها أي شخص آخر. لكن بيتر كان الشخص الوحيد الذي يعرف. ولم يخطر ببال الجميع أنه لا يوجد لديّ شيء أقوله عنها، لأن صداقتنا كانت قد "انتهت" منذ بدء المدرسة الإعدادية. سنتان - سنتان ونصف، ربما – لكن لم يكن ذلك يعني أن إحدانا لم تكن تكلّم الأخرى. إنس أننا كنّا مع بعضنا طوال حياتنا، توأمان سياميان حتى ظهرت مورسيل الشرّيرة. إنس أنّنا كنّا أختين تحت جلدنا. لكن بيتر

يتفهم ذلك. فقد جاء إليّ وحكى لي كلّ ما يعرفه، وكلّ ما قاله للمحقق. وحكى لي ماذا يقول عنها أصدقاؤها – يظنون أنها ذهبت إلى نيويورك، كان ذلك واضحًا. وقالوا إنها قالت إنها تريد أن تصبح عارضة أزياء هناك – هذا ما قالته ميسن، صديقة كايسي خلال الأشهر القليلة الماضية، فتاة غبية لكنها جميلة، ترتدي ألبسة اليوغا المتنوعة التي تشتريها من مركز التسوّق في كيتيري – ولعل جاي، ابن عم بريانا، قد سمع منها، بل حتى أنه تلقى مكالمات من رقم هاتف خلوي من ماسوشوستس، ظنّ في البداية أنها مكالمة وصلته عن طريق الخطأ، لكن ربما كانت هي، أليس كذلك؟ وصديقة أخرى، ألما، الفتاة التي تورطت في مشكلة بسببها، تظنّ أنه ربما كانت كايسي في طريقها الآن إلى فلوريدا – فلا نزال في عطلة الربيع، ولعلها تسافر بالوقوف على جانب الطريق السريع وتطلب توصيلة بسيارة أحدهم، ولعلها وجدت شخصًا مناسبًا، وهي تمضي معه بعض الوقت.

من حسن الحظ أنني لم أكن أنصت إلى تلك الفتيات وهن يتفوهن بكل هذا الهراء. وقلن ذلك لبيتر، الحليف الصبور دائمًا، أو العميل المزدوج، الذي نقله لي. ففي بعد ظهر يوم الخميس ذاك، خرجنا من المدرسة وجلسنا على درج ملعب الأطفال أسفل الطريق - الملعب الذي يقومون بترميمه منذ ذلك الصيف البعيد عندما أصيبت يد كايسي في ملجأ الحيوانات. وكان الهواء يهبّ من تحت سترتينا، ذلك النوع من الهواء الذي يجعلك ترفع ياقتك، وقد جمّد المقعد المعدني مؤخرتي. لم يكن بيتر يرتدي سترة سميكة، وإنما بلوزة كتبت عليها حروف بيضاء كبيرة – فدسّ كلتا قبضتيه من تحتها ووضعهما على بطنه ليدفئهما، فبدا كأنه حامل. لو كنت في فترة غير هذه، لجعلتُ

منها نكتة مضحكة.

"أنت لا تظنّ أنها في فلوريدا أو في مدينة نيويورك"، قلت له.

فهزّ رأسه. أسندنا ظهرينا إلى العمودين المعدنيين اللامعين للمدرج، ساقانا مرفوعتان أمامنا. كان بإمكاننا أن نرى حتى مسافة بعيدة من خلال الأشجار - التي لم تتفتح براعم معظمها حتى الآن - حتى الطريق الذي تمرق فيه سيارات مسرعة أحيانًا. شعرت كما لو أننا كنّا في قصّة تدور حولنا، القصّة التي كانت، أخيرًا، تدور حول حياة بالغين، ولم أرغب أن أكون هناك. جلسنا صامتين للحظة. سحبت خيطًا عند ركبتي، عند حافّة الفتحة في بنطالي الجينز ذي الثقوب، البنطال الذي كنت قد وعدت أمّي بأن لا ألبسه إلى المدرسة.

"لا تظن..."، قلت.

ثمّ توقفت. لم أستطع أن أقول ما كنت أفكّر بما كنّا نفكّر فيه معًا.

"أشياء كثيرة قبيحة يمكن أن تذهب في المنحى الخطأ في هذا العالم"، قال بيتر، "لكنّ لا يوجد لدينا أيّ دليل بأنّ شيئًا قد حدث. أليس كذلك؟"

"أظن ذلك".

"لا، هذه هي الحقيقة. فكلّ ما نعرفه هو أننا لا نعرف".

"هذا لا يساعدنا كثيرًا".

فقال: "يجب أن نبدأ من نقطة ما". نظرت إلى يديه، إلى أصابعه الطويلة بأظافرها المشذّبة النظيفة. أحيانًا، لا أزال لا أصدّق بأنه هو أيضًا لا يرغب بي. حتى ذلك الوقت، هناك، أستطيع أن أتوقّع كلّ حركة يقوم بها، كأنه محاط بمجال قوة، قوية جدًا حتى

أنها لا تكاد تجد مقاومة. لا بد أنه يدرك ذلك؟ لكن ألم يقل إن كلّ ما نعرفه هو أننا لا نعرف؛ وإذا كان ذلك ينطبق على كايسي، فألا ينطبق كذلك على كلّ شيء، على كلّ تصرّف غامض ننسب إليه هذا اليقين؟

فقال: "انظري". كان طرف أنفه العظمي وحافات منخريه قد بدأت تزداد احمرارًا من البرد، "إلى أن ظهرت في غرفتي - حرفيًا في غرفتي - يوم الثلاثاء، وكنا قد ظننا أنها ماتت، أليس كذلك؟ إلى أن ظهرت، كان ذلك يبدو كما لو أنها سقطت من الكوكب".

"صحيح".

"لم نكن نعرف إن كان علينا أن نصدق ما قالته بيف وشوت عمّا جرى. لا تستطيعين أن تقولي إننا لم نكن نتساءل عمّا إذا كانت ترقد الآن تحت كومة من أوراق الأشجار في الغابة وراء بيتهم".

"في الغابة الزاحفة"، قلت، مع أنّ كايسي الوحيدة التي يمكن أن تفهم ما أقصده. بأسناني الأمامية مزقتُ جلد شفتي حتى تذوّقت طعم الدم. كم كان مهمًا في تلك الأيام القليلة السماح لتلك الفكرة - تلك الصورة – وعدم ذكرها حتى لبيتر أو لأبي وأمّي، ولا حتى لنفسي. لكن كان ذلك صحيحًا: فلم يكن بإمكانك أن تقول إننا لم نتساءل، ونحن ننظر إلى عينيّ شوت وإلى شفتيه الرقيقتين وقسمات وجهه التي يُفترض أن تكون ألمًا لكنها قد تكون ابتسامة، وإلى بيف التي جعلها امتلاء جسمها تبدو مبتهجة على الدوام، لكنها بدت متجهمة الآن.

"لم تكن معرضة للخطر آنذاك"، قال بيتر، " لذلك، لماذا يجب أن تكون في خطر الآن؟"

"لأنها في المرة السابقة تركت رسالة وأخذت درّاجتها الهوائية".

"أما الآن فقد أخذت معطفها". وصمتنا ثانية.

"هل تظن أنّها تعرف إلى أين كانت ذاهبة؟"

هزّ بيتر رأسه قليلًا، ونظر عبر الأشجار، وقال: "إنها ليست في حالة جيدة، فإن ما فعله كلارك بورنيس شوّش تفكيرها بالكامل".

فقلت: "كلّ ما فعله أندرز شوت أو ما فعلته بيف".

"ما فعلته بها الحياة كلها".

أغمضتُ عينيي. بوسعك أن تسمع من بعيد صوت السيارات المكتوم وصيحات الطلاب وضحكاتهم في باحة المدرسة الثانوية. لم يكن هناك أحد في ملعب الأطفال غيرنا، مراهقان كبيران على وجودنا هنا، والهواء مشبع برائحة التراب الندي والمعدن البارد. لوهلة خيّل إليّ أنني عندما سأفتح عينيّ، فإني سأراها هناك، تتأرجح فوق الحصان الأرجوانيّ ذي النوابض في الأسفل، ركبتاها عند ذقنها، ترتسم على وجهها ابتسامة عريضة. لكنّي أدركت في عين عقلي أنّ كايسي لم تعد الفتاة في الوقت الحاضر، وإنما فتاة ذلك الزمن الذي مضى، الفتاة النقية، التي ولّت.

في ذلك الزمن فقط، نانسي، مالك الحزين خاصتنا، تلك الرؤية البعيدة، غير المحتملة، التي سميناها، أنا وكايسي، في ذلك الصيف قبل أن يتغيّر كلّ شيء - أو أنها ابنة عم نانسي - جاءت لتذكّرني بمقلع الحجارة. لم يكن ثمة أيّ منطق في ذلك، ليس عندما شوهدت كايسي آخر مرّة تصعد إلى سيارة على الطريق السريع. فإذا كانت تريد أن تطير، فلن يكون طيرانًا إلى مكان بعيد، وإنما طيران لتعود، الفترة التي تستغرقها الرحلة تقريبًا. لكن ذلك كان أكثر الأشياء غرابة، في شهر أبريل، في ماسوشوستس، في رطوبة صباح ذلك اليوم الربيعي المبكّر، أن أرى من وراء كتف بيتر، من بعيد، تحليق طائر

مالك الحزين ببطء، ذلك الطير الذي يعود إلى ما قبل التاريخ، من تلك البحيرة شبه المليئة بالماء، المكسوة بأوراق الأشجار الندية، على الجانب الآخر من الحديقة. رفرفة تلك الأجنحة الواسعة الداكنة الرقيقة أعاقت رؤيتي فالتفتُّ بسرعة - هل هي شبح؟ تساءلت بسرعة - لأرى صعودها المتواصل الدؤوب، تلك الرقبة المحنيّة في شكل حرف S، قدماها المتشابكتان مثل بيت العنكبوت ترتفعان مثل عجلات طائرة. وقلت في نفسي، إننا في شهر أبريل – ومن غير الممكن أن أرى ذلك: نانسي، في رويستون، الآن، ومددت يدي بدون تفكير لأمسك بذراع بيتر – أستطيع أن أقول إنه فوجئ، فأجفل قليلًا، أو أن ساعده انكمشت قليلًا، تحت يدي، لأننا لم نكن نلمس بعضنا كثيرًا، أنا وبيتر، وبهذا أقصد، أن أحدنا لم يلمس الآخر قط، حماقة يمكنني أن أفسّرها بطرائق مختلفة، إطراء وغير إطراء، وقد اخترت منذ مدة طويلة ألاّ أفكّر بها. "انظر"، همست، "نانسي".

"من هي نانسي؟" استطعت أن أسمع من صوته أنّه كان يبتسم، لكنّي لم أنظر إليه، لأنني لم أستطع أن أبعد نظري عن الطائر، الأسود البهي في تلك السماء المنذرة بسوء. أشرت إليها، وتناهى إليّ صوت بيتر الذي سأل، "ماذا يفعل هنا؟ في الموسم غير المناسب، أليس كذلك؟"

"حتى أنه يبدو غير حقيقي"، قلت، عندما طار وجثم تحت ظل الشجرة وراء الحديقة.

"من هي نانسي إذًا؟" سألني بيتر بعد دقيقة، بعد أن استوى واقفًا وهبط متأرجحًا من العمود إلى الأرض، "لقد تجمّدت مؤخرتي".

"نعم. لا يزال الجوّ باردًا". وانزلقت على الزلاقة بدلًا من أن

أهبط الدرج. عندما وضعت يدي على مؤخرتي، أحسست باللحم البارد من خلال بنطالي الجينز. حكيت لبيتر قصّة نانسي، وحكيت له عن النكتة الخاصة بيني وبين كايسي في آخر صيف كنّا فيه توأمين، عندما لم نكن نتخيّل أن إحدانا ستنفصل عن الأخرى، وعندما كنّا نتوقّع أننا سنظلّ صديقتين إلى الأبد.

"لم أر الطير نانسي منذ زمن. قد تكون هي التي أرسلته".

"لا تقولي أبدًا أبدًا، كما أظن. إلى أي شيء يقودك هذا بالتحديد؟ ما هي الرسالة التي تنقلها إن كانت هناك رسالة؟"

قلت يجب أن نذهب إلى مقلع الحجارة.

"لا بد أنك تمزحين"، وأشار إلى السماء. "في هذا الطقس؟ وقد أصبحت الساعة الخامسة. ماذا تأملين أن تجدي هناك؟ لماذا بحق الله سنذهب إلى هناك؟ كما لو أنها نصبت هناك خيمة كشّافة صنعتها من أغصان شجر التنّوب وتشعل نارًا لتشوي ثمار السرخس؟"

فقلت: "ربما". عادة، ربما أشعر بالقلق بأنّ بيتر سيسخر مني، لكن العثور على كايسي هو أهم شيء. ثم أضفت "ثق بي"، وكدت ألمس ذراعه مرة أخرى تلقائيًا. لم تكن لمسة فيها شيء من الغزل، وإنما ضرورة ملحة، وقد فهمها. لم يجفل منها هذه المرة.

استغرقت العودة سيرًا على الأقدام فترة أطول مما أذكر. لم يقل أيّ واحد منّا الكثير. حاولت الشمس المتأخرة عبثًا أن تخترق اللون الرمادي بلون الصوف، والحصى الناعم تحت أقدامنا لا يزال نديًا، وما إن اجتزنا بيت عائلة باركر، حتى بدأ الجدار اللا نهائي من الأشجار الدائمة الخضرة تضغط من جانبينا بشكل حزين ورطب. وعند المنعطف المؤدي إلى مقلع الحجارة نمت أعشاب وشجيرات

كثيفة لأن أحدًا لم يعد يطرقه بعد أشهر الشتاء، فبدت النباتات التي نمت تحت الأشجار تتأرجح بين موت الشتاء الماضي وحياة الربيع القادم، أكوام من أوراق الأشجار اللزجة والأغصان المتشابكة التي نمت على أسطحها أزرار خضراء غضة تتهيأ لأن تتفتح. وتلاشى الدرب المترب المليء بالحفر، في بعض الأماكن، واستحال إلى برك، لكن الطريق أمامنا كان سالكًا. وبالطبع فقد كان موقف السيارات فارغًا. سنجاب يقفز بين الحين والآخر، وطائر مبكّر أو طائران يصدران حفيفًا، ويزقزقان. كان الصمت يخيّم على مقلع الحجارة بسطحه الأسود الزجاجي.

"إنك تمزحين يا جي، أليس كذلك؟" قال بيتر الذي دسّ ذقنه في ياقة بلوزته. كانت فتحتا أنفه الحمراوان تلمعان.

"إنه مجرد إحساس. دعنا نمشي حوله، ربما نجد شيئًا".

"النار المتقدة، أليس كذلك؟"

"أو شيئًا آخر".

"الطائر ليس علامة، كما تعرفين".

"كيف يمكننا أن نكون متأكدين؟"

تردد بيتر المنزعج، لكنه لم يمش بعيدًا. لم نتمالك نفسينا من ألاّ ننظر. مشينا معًا حول مقلع الحجارة. تبيّن أن الدرب مضلل أكثر مما كنت أتوقّع. فلم تكن هناك دائرة واضحة حول حافّة الماء، وكانت الصخور اللامعة ملساء تحت أقدامنا، وكانت أصابع الشجيرات البرية الشائكة تخمش رقبتينا ورسغينا.

"عمَّ نبحث بالتحديد؟" سألني بيتر، يداه على خاصرتيه، واقفًا فوق صخرة ناتئة عالية فوق المياه الراكدة، بعيدين عن موقف

السيارات. كان نفَسه يبعث دوائر دخانية في ذلك الجو البارد، ثم أضاف، "لأني أشعر بأن لا جدوى من كلّ ذلك".

لم أستطع أن أعارضه، وقلت: "ظننت أننا سنجد أثرًا عنها. ظننت أنها قد تكون قد جاءت إلى هنا".

"وما هو السبب؟"

هززت كتفي. لم أستطع أن أقول السبب لأن هذا المكان كان يعنينا نحن فقط، أنا وهي، لأننا عندما كنّا نأتي إلى هنا، كانت السعادة تغمرنا، وكانت السعادة تغمرنا لأننا معًا، ولأنه كانت توجد لدينا بيوت وآباء، وكنّا نصدّق أننا سنظل هكذا دائمًا. ليس هذا سبب لأيّ شيء.

"جوليا"، لمسني بيتر هذه المرة، واضعًا يده على كتفي. كان صوته واطئًا ويكاد يكون أجشًا، "تظنين أنها قد تكون هنا لأنكِ فقدتِها هنا. لكن ذلك حدث منذ زمن بعيد". ثمّ تركني، واستدار.

على الرغم من ذلك، عندما بدأنا نعود إلى النقطة التي انطلقنا منها، أبقيت عينيّ مفتوحتين لأرى رفرفة أول شريط ملون، أو لمعة قرط على أرض الغابة. ورحت أبحث عن آثار أقدام في الطين اللزج - قدمان صغيرتان، آثار قدمين حديثة - أو هاتف خلوي، أو مفتاح بيت، أو عشرة سنتات تلمع. حكاية هانسيل وغريتيل، سكوبي دوو، تان تان في التيبت؛ نزهة عند الصخرة المعلقة؛ دائمًا، باستمرار، توجد علامة. عن كايسي، في مقلع الحجارة، لم تكن هناك أيّ إشارة.

أوصلني بيتر إلى البيت – كان الظلام قد هبط في ذلك الوقت، وكنت قد تأخرت على موعد العشاء - ثمّ اتصل بأمّه لتأتي وتأخذه. بوجود أبي وأمي شعر بالتوتر – كانا كلاهما في غاية التهذيب – ومع أنه كان السبب في تأخير وجبة طعامنا، خيّل إليّ أنه لم يشأ أن يكوّنا عنه

فكرة خاطئة، ويظنّا أن ثمة شيئًا بيننا، فظلّ واقفًا في الممر. قال: "أمّي في طريقها لتوصلني"، وبدأ حديثًا ذكيًا عن فريق تعقب الآثار، وكيف أنه كان يحلم ذات يوم بأن يذهب إلى جامعة بنسلفانيا، إذا قُبل فيها. وقال إن أمّه درست في تلك الجامعة. ولم نأت على ذكر كايسي، لكنّها كانت تقف معنا في الممر. وعندما وصلت أمّه، أطلقت زمورًا من الشارع، فخرج مسرعًا. "آسف لأنّي أخّرتكم عن تناول العشاء"، قال لأبي وأمي، "كان علينا ألاّ نتأخر"، ثم قال لي دون أن يلتفت إلى الوراء، "أراكِ في المدرسة".

رفعت يدًا، شيئًا أشبه بتلويحة، لكنه لم يرها.

على مائدة العشاء، سألتني أمّي إن كانت هناك أخبار عن كايسي في المدرسة. وقال أبي إن إحدى مريضاته، روز بريمنير، قالت إنها سمعت على تردد جهاز الشرطة أنهم وجدوا بعض الأدلّة بالقرب من ميناء نيوبري. هززت رأسي وأزحت البطاطا المهروسة إلى جانب في صحني، ثم سوّيتها بشوكتي. لقد مضت فترة طويلة الآن. قد تكون في أي مكان. قد تكون قد عادت إلى بانغور، مع أنه خطر لي بأن الشرطة لا بد أنها تفكّر بالبحث عنها هناك. لم نتحدّث عن ذلك، عنها، كثيرًا. لم تكن هناك أشياء كثيرة يمكن أن نقولها. سألت أمّي عن فريق تعقب الأثر وعن تحضيري للمسابقة القادمة. أحسستُ أنّها أرادت أن تسألني عن بيتر - كانت تعرف أنني لا أزال أحبه - لكنها لم تسألني.

بعد العشاء، بعد أن غُسلت الصحون، وصعدت إلى غرفتي، جاءت أمي وضمتني إليها، ثمّ أخذت تمسّد خدّي، ودسّت شعري وراء أذني. كانت عيناها حزينتين. لم تقل شيئًا. فلم تكن بحاجة لأن تقول شيئًا.

استيقظتُ قبل الفجر. وعلى الرغم من أنّ الهواء كان باردًا في غرفة نومي، كنتُ أنضح عرقًا تحت الغطاء. صباح السبت: لا يوجد سبب للنهوض. لكن قلبي كان متحفزًا، حلمي لا يزال يرافقني في الغرفة. كايسي: طبعًا. كما كانت، نعم، لكن ليس بمعنى أنّ هذا كان الماضي. بل الآن. كنّا نلعب لعبة، لعبة من ألعاب التظاهر تلك التي كنّا نلعبها لسنوات: أنتِ الوحش، وأنا الفارس. أنتِ الطيار، وأنا المناضلة المقاومة. أنتِ الهاربة، وأنا التي سأعثر عليك. أنتِ الساحرة السوداء، وأنا زعيمة النور. أنتِ الجندي العائد من الحرب، وأنا زوجتك. في الحلم، كايسي، بشعرها الأبيض - الأشقر، ترتدي عباءة سوداء من الريش - عباءة طير، عباءة نانسي - التي وعدت بأن تخبئها، هاربة، ساحرة، فتاة مراهقة، وتجعلها تستطيع أن تطير. فقط، في خلال ثوان، احترقت واستحالت جزءًا من جلدها، التحمت به، وأصبحت شيئًا منها، بشكل رقيق، بشكل مؤلم. كانت عباءتها مسمّمة، نعم مسمّمة. صرخت بألم، جوانب عينيها بيضاء، منتفخة، ذراعاها ممدودتان نحوي. ولم يكن بمقدوري أن أفعل شيئًا سوى أن أقف هناك وأراقبها، شاهد متردد لكنه عازم، لا يتزعزع. صرخاتها أيقظتني في العتمة الباردة، لكنّي لم أعرف ماذا يمكن أن يشبه صراخها - خفاش؟ قطّة في حالة نزو؟ وحتى بعينيّ المفتوحتين، لا يزال بمقدرتي أن أراها، صديقتي كايسي، يغلفها ريش أسود، جسمها كلّه ما عدا رأسها الأبيض ويديها، تذوي تحت العباءة الداكنة.

أين هي؟ أين كنّا لعب؟ ماذا كانت لعبتنا المشؤومة؟ أعرفها، أستطيع أن أشمّها، المكان يحوم فوق عتبات وعيي، لكني لا أستطيع أن أصل إليه. أغمضتُ عينيّ مرة أخرى، ورحت أنصت إلى الطريقة

التي تردّد فيها صدى صوتها، وأخذ يهزّ الجدران. في العتمة تحت أغطيتي، رأيت شظايا زجاج ملونة تلمع، وأحسست بثقل الدرابزين الأملس تحت يدي. رفعت عيني ونظرت إلى الأعلى. عندها أدركت ما يجب عليّ أن أفعله، في العتمة التي تسبق بزوغ الفجر في بداية الربيع. قلقة، طبعًا، أصبحت على ثقة فجأة أيضًا، بدقة لأن هذه ليست لعبة أطفال أو سيناريو متخيّل، لأنه في كلّ دقيقة تمرّ، كانت العباءة تحترق أكثر وتلتصق بلحم كايسي، وإذا لم أهرع لنجدتها، فإنها لن تستطيع أن تطير أبدًا، بل حتى لن تبقى على قيد الحياة. لا مهرب من كل ذلك.

خطر لي بسرعة أن أوقظ والدَيّ. لكنهما لن يفهما: ومثل بيتر، سيظنان أنني أختلق هذه الأشياء: "خيالك خصب"، طالما كانت أمّي تردد. كنتُ بحاجة إلى حليف يصدّق ما أصدّقه من الهواجس والدلالات المنذرة، في الغريزة وليس في المنطق. مثل طفل، أو نبي - أو مثل شخصية هاغريد في هاري بوتر. استغرقت دقيقة فقط لأتذكّر الكلبة بيسي والعاصفة ديرتشو، وخطر لي ذلك أيضًا، لا كفكرة وإنما كشيء أعرفه في أعماق ذاتي، كما لو كان في حلم. رحت أبحث عن الرقم الذي لا أزال أحتفظ به في قائمة الأرقام منذ أن كنت أشارك في فريق الخطابة في الصف السابع، وعلى الرغم من أنني كنت أرى بوضوح شديد أنّ الضوء الأخضر يشير إلى الساعة 4:43 صباحًا، فقد اتصلت برودي مولنارو.

هل أيقظتُه؟ يصعب قول ذلك. هل فوجئ؟ أظن ذلك، بل حتى أنه فوجئ كثيرًا، لكنّه ليس من الأشخاص الذين يتكلمون كثيرًا، ولا من أولئك الذين يُظهرون مشاعرهم. لا مبالاة عاطفية،

كما تقول أمّي. قلت له إن الأمر يتعلق بالفتاة الشقراء الصغيرة. الملاك، ذكّرتُه بها. وقلت له إن اسمها كايسي. قلت له إنها بحاجة إلى مساعدتنا. عندما كنت أكلّمه، كان بإمكاني أن أتخيّل تلك العينين الهلاميتين اللتين تلمعان بخفوت في محجريهما. كان الظلام لا يزال مخيمًا في ساعة مبكرة من صباح يوم السبت. فتاة صغيرة تتصل به بالهاتف – عمرها أقل من نصف عمره. لكنه أنصت إليّ واستجاب إلى ما قلته كما لو كنت عمدة رويستون، كما لو كان مفهومًا تمامًا أنني إذا طلبت منه أن يفعل شيئًا غير عادي، فإنه يجب أن يفعله بكل بساطة. لأنه أمر جوهري.

هل سيتهم والداي، وهل سيتهم بيتر، رودي بأنه رجل غبي (لا أكثر الأضواء بريقًا ولمعانًا، لا أكثر السكاكين حدّة)؟ بالتأكيد. لكني شعرت، في ذلك الصباح، بالامتنان، لأنني كنت بحاجة إلى شخص يمكنه مساعدتي، شخص لن يقول لي إنني لست إلاّ طفلة، أو أنني فتاة غير عقلانية، أو أنني مخطئة حتى قبل أن نبدأ. إنه رجل يدرك أهمية المشاعر، يتمتع بإحساس أو بحدس لشيء ما. إنه رجل يثق بكلبته بيسي أكثر مما يثق بالآخرين.

هل كان ثملًا؟ كنت سأقول، عندما تحدّثت إليه، ربما. عندما أصعد إلى شاحنته، سأتمكن من معرفة ذلك بيقين تام، نعم. حتى عندما كانت بيسي تلهث وتنفث أنفاسها الحارة بيننا في المقعد الأمامي، غمرتني رائحته، رائحة دخان سجائره، وأبخرة المشروب، كما لو كانت تنضح من خلال مساماته. لم أكترث بالأمر. قد يكون ذلك قد ساعدني قليلًا، أي أنّه كان سكرانًا هكذا. لقد جعل حلمنا الذي يشبه الرحلة يبدو حقيقيًا بدرجة أقل، كأنه كان يحلم بذلك أيضًا.

لم أشعر بالخوف من الركوب معه عندما صعدت إلى شاحنة رودي مولنارو عند الساعة الخامسة والثلث من صباح ذلك اليوم من أيام السبت في شهر أبريل عندما كنا لانزال في الظلام، لا يعرف أحد ماذا سنفعل أو إلى أين سنذهب. لم أشعر بأدنى خوف. كلّ ما بوسعي أن أقوله هو أنني وثقت به ثقة تامة، سكرانًا ووحيدًا. وثقت به من أجل بيسي. وثقت به بسبب الفترة الطويلة التي أمضاها مع أمّه المريضة وشدّة تعلقّه بها. وثقت به لأنه كان نقيض القسوة، ولم يكن يعرف كيف يفكّر بما يريد بشكل جيد. لم يخطر ببالي كلّ ذلك إلاّ بعد أن مضى زمن طويل، بعد أن أصبح كلّ ذلك من ضرب الماضي، لكن في تلك الساعات، كان يمكنني أن أكون - في ظرف آخر – مرعوبة.

لم نقل أشياء كثيرة في جوّ مقصورة الشاحنة الخانق ونحن في طريقنا إلى المصحة، عندما كانت فتحات مكيّف الهواء تنفث هواء حارًا، وبيسي تلهث نسخة من حوارنا. كان رودي يلهث أيضًا، أو على الأقل، كان يتنفّس بصوت مرتفع، كما لو كانت جميع مسالكه الهوائية مسدودة، مليئة بالمخاط. كان وجهه المنعكس يلمع على لوحة العدادات التي لونها قريب جدًا من لون الطين. رحت أتنفّس أنا أيضًا من فمي، بسبب الروائح التي ملأت مقصورة الشاحنة.

"أظن أن البحث عنها فكرة جيدة"، قال أخيرًا، بعد أن لاك لحم خدّه. لعقت بيسي شفتيها كما لو أنها تعرب عن موافقتها وتثاءبت، مصدرة من حنجرتها صريرًا أشبه بصوت مفصلة غير مزيّتة. كانت أسنانها تقترب كثيرًا من أذني.

"يبدو الأمر هكذا" قلت موافقة. كانت يداي معقودتين في حضني، كما لو كنت جالسة في قاعة كنيسة. ثمّ، باستثناء فتحات

مكيّف الهواء وصوت أنفاسه وصوت بيسي وهي تناور لعابها، لذنا بالصمت ثانية.

ترجّل رودي من الشاحنة ليفتح القفل الضخم الذي يوصد البوّابة الرئيسة على الطريق. لا أعرف ما هي الأفكار التي كانت تدور في رأسي – بأنّنا اجتزنا الطريق من مقلع الحجارة عند بزوغ الشمس؟ - لكني لم أتخيّل أننا سنصل إلى المدخل الرئيس. كانت الشاحنة تهتز وتترنح، حتى عندما كانت تسير بسرعة عشرة أميال في الساعة فقط، أغصان الأشجار تحتك وتتكسر على الجانبين. من المؤكد أنه لم تمرّ عربة من هذا الطريق منذ زمن. كانت الأضواء الأمامية تتقافز بجنون، تارة تنير ربوة ترابية، وتارة تنير الدرب المليء بالحفر أمامنا، وتارة أخرى تضيء الأشجار ذات الأغصان المتشابكة. وبغتة ظهرت بونيبروك أمامنا، حول منعطف في الدرب، بهيكله الأسود المتهالك إزاء السماء الزرقاء التي بدأت تصبح بلون الخميرة.

من الخارج، لم يبد أنّ شيئًا قد تغيّر طوال السنوات منذ أن كنا نأتي أنا وكايسي إلى هذا المكان – ويبدو أن مشاريع البناء التي أثير حولها جدل كثير لم تُنفذ، وظلت من نسج الخيال، لكن هذا لا يعني أن أقدام أحد لم تطأ هذا المكان، أو أن الزمن لم يعث فيه مزيدًا من الخراب. ومن بعيد، بدا لي أن عددًا أكبر من النوافذ قد هُشِّم، وأزيل عدد أكبر من مصاريع النوافذ أو كانت تتدلّى منها. وانتشر عدد أكبر من رسوم الغرافيتي على طول الجدران. عندما أطفأ رودي محرك الشاحنة، أبقى الأضواء الأمامية منارة، فأضاءت مدخل المبنى الرئيس الموصد بالسلاسل الذي كنا قد اجتزناه، أنا وكايسي، منذ زمن. مدّ رودي يده من أمامي وأخرج من صندوق التابلوه مصباحًا يدويًا كبيرًا

فضّي اللون. كدت أحسّ بوزن المصباح في يده. أطلق صوتًا وهو يقفز من السيارة إلى الأرض. طارت بيسي فوقه، وحطّت على الأرض كما لو أن لا وزن لها. راحت تتشمّم الهواء، وكانت أذناها مشنفتين، لكنها قرّرت ألاّ تنبح. كان كلّ ما يُصدر حفيفًا في الغابة يقع تحت ملاحظتها. تمنيت لو أنّني أعرفها أكثر حتى أداعب مؤخرة عنقها، ولألقي بنفسي تحت رحمتها.

لوّح رودي بضوء مصباحه حول واجهة بونيبروك. ذلك التأثير الذي يحدثه الضوء الكشّاف في مرقص، وسأل، "من أين كنتما تدخلان، كما قلتِ؟"

"لستُ متأكّدة أنني قلت". وقدته نحو نوافذ غرفة الطعام.

"كما تعرفين فإن ذلك يعتبر تجاوزًا لممتلكات الآخرين". قال ذلك دون أن يطلق حكمًا. مجرد ملاحظة، ثم أضاف، "إن ذلك مخالف للقانون".

"كنّا مجرد طفلتين"، قلت.

شخر، وتوقّف وفرك عينيه. "لكنّك تعرفين ذلك"، قال بإصرار.

"أظن أنّنا كنا نعرف".

النافذة الكبيرة التي كنّا نمرّ من خلالها، كانت متداعية أكثر مما كانت في الماضي، ولم تعد موجودة تقريبًا. الإطار فقط. وكانت الأمطار قد أتلفت الأرضيّة الخشبية في الداخل، فأصبحت متماوجة مثل مويجات في ميناء صغير. وتناثرت في كل مكان قطع زجاج مهشمة تلمع تحت أقدامنا. بدت لي الغرفة مختلفة، بشكل ما: عندما أخذ

رودي يحرّك مصباحه من جهة إلى أخرى، أدركت أن كلّ شيء يمكن أن يُزال - أيّ شيء يمكن نقله - قد اختفى. لم يعد هناك شيء في الغرفة إلاّ الغرفة نفسها. حتى تمديدات الإضاءة اقتُلعت من السقف، ولم يبق سوى جص مُقتلع وأسلاك تتدلّى منه.

"إلى أين؟" حرّك رودي رأسه من جهة إلى أخرى كأنّه مؤشر، "في أيّ طريق؟"

"أظن الطابق العلوي. أنا آسفة".

كانت لبونيبروك أغانيها الخاصّة بها، صرير وفرقعات وأنّات عالية عندما تمرّ الريح عبرها. خارج المبنى، بدأ ضوء النهار ينزف فوق الأفق، أما في القاعة الأمامية للمصحة فلم يكن بإمكانك أن تعرف: فلولا مصباح رودي لبقينا في ظلام دامس. بدأ يحركه بسرعة حولنا: ذرات الغبار تنجرف في الهواء. كانت الأرضيّة المحفّرة قد عُرّيت من الألواح الخشبية، واختفى الدرابزين نفسه، والنافذة ذات الزجاج المعشق المزخرف بالزهور - اختفت كلّها. فلم تعد هناك أشباح فتّانة؛ حتى الأشباح هربت، وكان كلّ ما تبقى رائحة الرطوبة الباردة، كما لو كان التراب يستعيد مكانته. وأصبح الدرج أمامنا هيكلًا في العتمة.

نبحت بيسي التي كانت هادئة وعوت قليلًا، وراحت تتسلّق الدرج.

"حسنًا يا بنت. إن كنتِ تقولين ذلك". أصبح الهواء من حولنا سميكًا. كنتُ شديدة الامتنان لوجود رودي في تلك السحابة البسيطة من رائحة التبغ والمشروب، ودسست أطراف أصابعي خلف معطفه من الوبر، قليلًا فقط، حتى نكون على تماس عندما رحنا نصعد الدرج.

في قرارة نفسي كنت أعرف أنّها ستكون هنا. عرفت ذلك منذ اللحظة التي استيقظت فيها. ربما عرفت منذ اللحظة التي رأيت فيها نانسي. كانت كايسي أعزّ صديقاتي. لقد صنعت إحدانا الأخرى. وجدتها بيسي خلال دقيقتين – بيسي التي بدأت تخب ما إن صعدنا إلى الطابق الثاني. لم تنتظرنا نحن البشر المذعورين، لم تنظر إلى الوراء. كنّا نسمع قرقعة أظافر أقدامها فوق الأرضيّة، بالإضافة إلى صوت حركتها الإيقاعية. كنا نشعر بانتقالها من اتجاه إلى آخر، في إحدى الغرف، تدور فيها، ثم تنتقل إلى الغرفة التالية، صوت الخشخشة المنبعث من الطوق حول رقبتها. كنّا نتبعها بخطى وئيدة، ورودي يلوّح بمصباحه في العتمة مع أنه لم يعد بحاجة إليه في ذلك الحين.

"ستكون هنا، يا رودي"، قلت له، "سترى".

لم يكن الصوت الذي انبعث منه واضحًا. كان النهار قد بدأ يطلع، أزرق - رمادي، بدأ يتسلل الآن ويصل حتى إلى الممرات الداخلية المعتمة، أعمدة باردة من النور الباهت. بغتة، بدا كلّ ذلك أقل سريالية، وأقل واقعية أيضًا. في أي نوبة جنون طفولي كانت قد نظّمت ذلك؟ كما لو أنها لم تكن سوى لعبة أو قصّة، كما لو أنها كانت ستفعل كما تخيّلتها – كما أردتها - أن تفعل؟

ثم نبحت بيسي، في أكثر الممرات الجانبية ظلمة التي كنّا قد أطلقنا عليها، أنا وكايسي، "جناح الحجر". انطلق رودي في ما كان بالنسبة له، كما أظن، ركضًا، نوعًا من الركض البطيء، وجريت أمامه، فأصبح بمقدوري الآن، على الأقل، أن أرى بقعًا داكنة على الأرض، باذلة جهدي لكي لا ألوي كاحلي.

الغرفة رقم 7، الغرفة التي لم يتشكّل عفن على حيطانها في شكل زهور ذهبية أو قرمزية اللون، ولا تزال المغسلة التي اسوّد لونها، جافة كالغبار. كانت مفصلات باب غرفتنا التي توجد قضبان على زجاج نوافذها العالية، شبه مخلوعة، كما لو أن أحدًا كان يفكّر بسرقتها، لكنه عدل عن ذلك. وقفت بيسي تحرس هيئة زرقاء مكومة أمام أحد الجدران، بسترة تزلج تخرج منها أطراف نحيفة كالعِصِيّ وكتلة خفيفة من الشعر الأبيض الأشقر. أخذت بيسي تضرب بحوافرها بالتناوب بانفعال، تهزّ ذيلها وتنبح، ثم جرت إلى الأمام لتحاول أن تلعق – حرفيًا، تلعق -كايسي. كانت كايسي التي لم تكن واعية تمامًا ولم تكن غير واعية أيضًا، قد غطت وجهها بذراعيها. تلوّت وأصدرت أنينًا – "لا، لا، لا"، كان كلّ ما سمعته بحدّة أكثر عندما بدأ لسان بيسي يلعقها، "لا، لا، لا".

رأيت الدورق البلاستيكي "سميرنوف"، الفارغ تقريبًا، وعلبة رقائق القمح ملقاة بجانبه، وكيس الشمع مندلق نصفه إلى الخارج، وقنينة كوك دايت، مكشوفة الغطاء، نصف ممتلئة. وكانت هناك حقيبة ظهرها أيضًا، تكاد تكون فارغة، وكيس فارغ، وبجانبه توجد علبتا حبوب طبيّتان برتقاليتا اللون، أغطيتهما الكبيرة البيضاء تلمع فوق البلاط الوسخ. وقفتُ عند مدخل الباب، لا أفعل شيئًا سوى النّظر، بينما ركض رودي وهو يلهث خلفي. لم أنبس بكلمة واحدة.

"لا، لا، لا " راحت كايسي تئّن.

"عليّ اللعنة"، قال رودي وأنفاسه في أذني، كما لو أنه ظن أن كلّ ما يجري أمامه هو قصّة أيضًا، وأنه لم يكن يصدّق ما تراه عيناه. أما بيسي التي على الرغم من أنها لم تكن هادئة تمامًا (كانت

مبتهجة على نحو مبرر، فقد فازت في اللعبة) فقد عرفت أنّ الجائزة بشرية والنتائج حقيقية. عندما توقف رودي بجانبي، توقّفت بيسي عن النباح: لكنها كانت لا تزال تخبط بحوافرها وتهزّ ذيلها، ثم تدير رأسها لتنظر إلى رودي، ثمّ تعود وتنظر إلى كايسي، ثمّ إلى رودي ثانية. كان من الواضح أنه يجب أن يقول لها ماذا يتعين عليها أن تفعل بعد ذلك.

"فتاة جيدة، يا بيسي"، قال لها، ثمّ أضاف، "اجلسي"، فجلست وهي ترتعش. "اللعنة، اللعنة" ظلّ يهمس. أعطاني المصباح الكاشف الذي أطفأته – فلم تعد له حاجة الآن. لم نعد بحاجة إليه لنرى كايسي مستلقية في إحدى زوايا الغرفة. أخذ يبحث عن هاتفه الخلوي، ثمّ اتصل برقم.

ببطء فقط بدأت أدركُ الرائحة الكريهة التي فاحت من حولنا: قيء وشيء آخر أيضًا. شيء يضيف إلى رائحة رودي، بشكل ما. لم تكن كايسي ميتة بأيّ حال من الأحوال، على الرغم من محاولتها ذلك.

هرع رودي الذي جفل من الرائحة الكريهة نحوها، وحاول أن يوقظها برفق، ويهزّ كتفيها بلطف. رفض آخر بصوت مكتوم. لم تبعد ذراعيها عن وجهها. تخيّلت عينيها مغمضتين، لكنّنا لم نستطع أن نعرف إن كانتا كذلك. وقد تناثر شعرها المشهور حولها في التراب والغبار. كنت مولية ظهري إلى الحائط، أبعد ما يمكنني عنها، لكني كنت لا أزال في الغرفة. جلست على الأرض وانتظرت. كانت ركبتاي تلامسان صدري. يا إلهي، كانت الغرفة باردة – على الرغم من أنه كان لا يزال يوجد زجاج يغطي النافذة. لاحظت أنها اختارت غرفة لا تزال فيها النافذة مغلقة لتصد الريح. لم أقل شيئًا. عندما خرج رودي

وبيسي لاستقبال رجال الإسعاف عند مدخل المبنى، لم آتِ بحركة. كان النهار قد طلع. أخذت أنظر إلى سترتها ذات الوبر تعلو وتهبط مع أنفاسها. شخرت قليلًا. أظن أنها لم تكن تعرف أنني موجودة هنا.

ظهر رجال الإسعاف أخيرًا. سمعت صوت جلبة عند بئر الدرج ثم على طول الممر. صوت قرقعة النقّالة وهمهمات، وظننت أنها ستتحرّك الآن، لكن بالرغم من أنهم كلّموها مباشرة وسألوها بعض الأسئلة، لم تنبس بحرف واحد.

"إنها مستيقظة" قال رجل الإسعاف ذو اللحية، وهو يحاول، عبثًا، أن يرفع ذراعها المشدودة فوق رأسها. "ربما لا تريد أن تكون حيّة، لكنّها كذلك".

"يا لها من فوضى ملعونة"، قال المسعف الآخر، ثم قال لي: "ساعدينا وللمي هذه الأشياء؟" وأشار إلى العلبتين والكيس.

"أنتِ صديقتها، إيه؟" سأل المسعف ذو اللحية عندما جثوت على ركبتي لأنفذّ ما طلبه مني، ووضعت علبتي الحبوب ورقائق البسكويت في حقيبتها الظهرية، ورحت أفتش عن غطاء قنينة الكوك.

"هذا صحيح"، قال رودي الواقف عند المدخل، يدخّن سيجارة، ربّما ليغطي على الرائحة. "لولا هذه الفتاة لما عثرنا عليها. فقد ظنّت الشرطة أنها ذهبت إلى نيويورك، أو اتجهت شمالًا، أو شيئًا من هذا القبيل".

هزّ المسعف المتجّهم رأسه، متوترًا، مركزًا على ربط كايسي وحملها ووضعها على النقّالة، ثم قال مرة أخرى: "فوضى ملعونة".

"عظيم جدًا"، أمال الرجل الآخر رأسه إليّ، "لعلكِ أنقذتِ حياتها".

لكن بعد ذلك حانت لحظة، بينما كانوا يحومون حول جسدها، بينما كان رودي، المرهق، يدخّن وتكاد تكون عيناه مغمضتين، يمسّد رأس بيسي التي هدأت الآن، يهرشها برفق وراء أذنيها، لحظة أصبحتُ فيها وحدي لأرى كايسي بوضوح، أقصد رأسها. حرّكت ذراعيها المثبتتين بقوة على وجهها، قليلًا فقط، أتاحت لي أن أرى عينيها اللامعتين من ورائهما، كما لو كانتا من داخل كهف: مفتوحتين، حذرتين، نظرتا إليّ بغضب لم أره طوال تلك السنوات التي أمضيناها معًا، غضب قاتل. بإمكاني أن أقسم بأن شفتيها تحرّكتا أيضًا، بأنّها كلمتني – بصمت، أقصد، نطقت الكلمات، ثلاث كلمات فقط: اللعنة عليك، خائنة. يمكنني أن أقسم بأن هذا ما قالته.

في منتصف شهر يونيه، ذهبوا. عندما شارف الصفّ التاسع على الانتهاء، وكذلك شكل حياتي المألوف حتى تلك الفترة: مهما كان يمثل أمامي في المستقبل، فقد كان عليّ أن أقبل أنّ صداقتي مع كايسي - صداقتي الحميمة – قد انتهت بالفعل. وخلال أول فصل صيف وحتى الخريف، تعلّقتُ ببيتر، وتعلّق بي: لقد أعطتني كايسي، بهذا المعنى، ما كنت أريد. فقد استمرت صداقتي مع بيتر أكثر من ستّة أشهر، ستّة أشهر بأكملها أكّد خلالها كلّ واحد منا للآخر بأننا فعلنا أفضل ما كان بإمكاننا أن نفعله، من أجل كايسي، وأنّنا كنا الوحيدين – كما كان واضحًا – اللذين كنا نعرفها حق المعرفة ونفهمها.

لكنّه شيء غريب، أن تشاطر حبّك مع طيف - أو الأكثر من ذلك، أن تشعر بأنّ الحبّ بينكما هو في الأساس حبّ كان مُقدّرًا لها

وهي التي ألقته عليك. وإلاّ فكيف انتقلنا خلال بضعة أسابيع من مرحلة ينكمش فيها بيتر ويجفل عندما لمسته إلى مرحلة لا يعود فيها قادرًا على ألاّ يبعد يديه عنّي؟ قالت جودي إن هذا كله منطقيّ جدًا، وهو أنه تراجع في البداية لشدة رغبته بي، لكنه كان يشعر بالذنب من جانب كايسي، خاصة عندما كانت تتعرض إلى محنة، وما إلى ذلك. كانت روايتها بخلاف روايتي، مثل رسم درج في حمّام غرفتنا العلوية من كتاب إيشر لتعليم الرسم. لكنّي كنت أرى الأشياء كما تراها أحيانًا، وظللت أشعر بالقلق بأنه عندما كان يقبّلني ويغمض عينيه، كان يرى كايسي، أو عندما يضع يده على ساقي في السينما، أو عندما كنا نشاهد التلفاز، بأنه كان يقارن، في عقله، بين عرض فخذ كايسي التي تشبه فخذ دمية تحت راحة يده، وبين فخذي الكبيرة. أما عندما كنّا نتحدّث عن الشعر أو نعزف موسيقى، لم أكن أشعر بالقلق، لأن هذه المشاعر المتبادلة لم تكن مشاعرها هي. لكنه كتب عنها أغنية أخرى – قصيدة أخرى فيها لازمة جميلة حول كيف تفوح منها رائحة الورد - وكان ذلك مدانًا أيضًا.

لذلك، ربما قتلتُ الأشياء لأنني كنت متيقنة بأنها ستموت - مثل أي شيء آخر، كما تبدو جميع قصصي أحيانًا، جعلت المتوهم يبدو واقعًا، وأن تبدو القصة المختلقة حقيقة، كما لو أن المخيلة جعلتها هكذا. أو أنني كنت محقّة منذ البداية. ففي عيد الميلاد، اتفقنا على أنه من الأفضل أن نكون أصدقاء – وقد جعلنا ذلك نبدو مثل شخصيتين في رواية، وبالتأكيد من الأفضل أن نبقى أقرب إلى صديقين سابقين، بتلك الطريقة غير المبالية لكن الودودة حيث لا تشعر الصديقة التالية بالقلق، لكن لا يمكنها أيضًا إلاّ أن تشعر

بالقلق. والأهم من كل ذلك، لم أكن أريد أن أكون الفتاة الحزينة، الفتاة التي فقدت صديقتها، لا مرّة واحدة وإنما مرّتان، ثمّ خسرت في الحبّ في تلك الصفقة، بالرغم، مثل كتاب إيشر لتعليم الرسم، عندما ترى الأشياء من منظور معيّن، لا يمكنك ألاّ تراها ككل.

نجحت قصّتي التي تحكي عني وعن بيتر. فقد كنّا حقًا صديقين حميمين، صديقين متلازمين تقريبًا، حتى أواخر الربيع في الصفّ العاشر - الصفّ الحادي عشر بالنسبة له - عندما بدأ بيتر يرى فتاة تدعى جميلة، فتاة جاءت مؤخرًا إلى صفّه لها عينان خضراوان وبشرة ناعمة بلون القهوة بالحليب، وتتمتع بروح جميلة – حقًا جميلة. كانت في الصفّ الحادي عشر أيضًا في ذلك الحين، وكانت عدّاءة أيضًا، وتغنّي. أحبّها الجميع كثيرًا – أحببتها كثيرًا - وعندما كانت تفتح فمها لتتكلم، كانت كما لو أن ويتني هيوستن قد ظهرت فجأة في الغرفة.

لكن كلّ ذلك حدث في وقت متأخر كثيرًا. فأنا لا أزال هنا. أنا على ما يرام. وقريبًا سأنتقل إلى صفّ متقدم. ولا أزال أذهب مرة في الأسبوع لزيارة معالجة نفسانية في نيوبيربورت التي أوصى بها لوالدي المشرف الاجتماعي في المدرسة. كانت أمّي توصلني إلى عيادتها وتنتظرني في محل دنكن دوناتس المحليّ مع كمبيوترها النقال، بينما أجلس أنا في تلك العيادة الكئيبة المخصصة للنساء، المطلّة على ساحة موقف سيارات. وفيها سرير صغير، أتجاهله، وكرسي له مقعد صلب أجلس عليه، وتوجد نبتة كبيرة في حوض، ووزعت علب محارم كلينكس بعناية في أرجاء الغرفة.

وعُلّقت على الحائط صورة داكنة غريبة، تصور مشهدًا من

قصة خيالية من العفاريت والفطر السام في غابة ليلية. لماذا؟ من يختار تلك اللوحة الغريبة الكئيبة الكالحة؟ أحد العفاريت – بأجنحة مخيفة تلمع مثل يعسوب – له شعر أشقر - أبيض يذكّرني بكايسي. والأكثر من ذلك، فإن العفريت يذكّرني بحلمي الذي رأيته عن كايسي وعباءتها السوداء الطائرة المصنوعة من الريش، العباءة المسمّمة التي ستقتلها بدلًا من أن تحررها. وفي كلّ أسبوع، عندما أنظر إلى تلك اللوحة التي هي أشبه بمهماز يحثّني على أن أحكي لهذه المرأة عن ذلك الحلم، عن تلك الفتاة، عمّا أعرفه الآن – لا بكلمات، وإنما بالمعرفة فقط، مثل ثقل في الهواء، مثل بقايا رائحة – عن تقدّم سنوات عمري. وفي كلّ أسبوع، كنت أقرر ألاّ أقول عنها شيئًا.

الآن أصبحت أعرف، مع أن ذلك لن يكون مجديًا، ماذا يعني أن تكوني فتاة تكبرين. ربما كان بإمكانك أن تختاري بأن لا ترتدي العباءة، لكن عندها لن تكوني حرّة أبدًا، ولن يكون باستطاعتك أن تحلقي، أو يمكنك أن تأخذي العباءة التي تُعطى لك. لكن ماذا يمكن أن تكون العواقب، ماذا يمكن أن تفعله العباءة، ماذا يمكن أن يتطلب ارتداؤها، لا يمكنك أن تعرفي سلفًا. قد يرى الآخرون بشكل أفضل، لكن ليس بإمكانهم أن ينقذوك. فكلّ ما يمكن أن يفعله أيّ واحد منّا للشخص الآخر هو أن يمتلك الشجاعة بألاّ يولي ظهره ويبتعد. أنا لم أفعل ذلك في ذلك الوقت، حتى جاء وقت فعلت ذلك.

لم تكن لدينا أشياء كثيرة نقولها لبعضنا، بيني وبين هذه المعالجة. إنها سيدة لطيفة، لكن صدقًا، ماذا تعرف؟ بالنسبة لها، أنا لست سوى مراهقة أخرى مضطربة، فتاة أصيبت صديقتها بالاكتئاب. لكن لعنتي تكمن في رؤية أشياء، في معرفة قصص، كيف

تتجلّى، وأشخاص، كيف هم. لا أسعى لمعرفة هذه الأشياء. بل هي التي تلاحقني، لأكون صادقة معكم، لدى كايسي الاسم التنبُّئي، أما أنا فلديّ اللعنة - أو الموهبة، وذلك بحسب الطريقة التي تنظر إليها. وإذا تمكنّت السيدة اللطيفة من رؤية هذه الأشياء أيضًا، فلن تكون هناك حاجة إلى توضيحها، لكن إذا لم ترها - وفي هذه اللحظة، فإني أغامر بشيء من الثقة بأنّها لم ترها – عندها فإن المحاولة لن تكون مجدية. إن ما أريده هو أن يحمل أحد العبء عنّي، أو، على الأقل، أن يشاركني في حمله. وإذا لم أره، فلن أحاول أن أعرف، وبالطبع، فإنك لا تستطيع أن تعرف أبدًا ما الذي يحدث لشخص آخر، أو ما الذي يظنون أنه يحدث لهم، وهو سيّان. لا يمكنني أن أعرف كيف كانت العباءة المسمّمة تبدو وهي تحترق وتلتحم في جلد كايسي. حتى أنني لا أستطيع أن أتخيّل ذلك.

بعد أن غادر رجال الإسعاف ونقلوا كايسي إلى المستشفى في هافيرهيل، وجاء الشرطي وأخذ أغراضها، أوصلني رودي بشاحنته إلى البيت. لم يكن والداي قد استيقظا بعد، لذلك، ربما لم يعرفا أنني غادرت البيت. لم يكن رودي ذلك الشخص الذي يوصلني حتى باب البيت ويناقش أمّي – ربما كان يخاف من والدَيّ أكثر مما يخاف منهما معظم أصدقائي. جلسنا بضع دقائق في مقصورة شاحنته الدافئة، نحن الثلاثة – أنا وهو وبيسي – مذهولين من أحداث الصباح. لم تعد الرائحة الكريهة قوية كما كانت في ذلك الحين، أم أن أنفي قد امتلأ بها الآن.

"رودي"، قلت أخيرًا، "شكرًا لك. وبيسي...". أدارت عينًا مغطّاة نحوي، وأبانت أحد أنيابها.

"يظن رجال الإسعاف أنها ستكون على ما يرام".

أمسكت يدا رودي الوسختان المقود بقوة.

"من الأفضل أن أدخل إلى البيت الآن. سيتساءل أبي وأمي أين كنت".

"طبعًا، يا آنسة". خيّل إليّ أنه قد يميل نحوي، من فوق الكلب، لكنه لم يفعل، "عندما تذهبين لزيارتها، قولي لها إن رودي سعيد بأنك بخير، اتفقنا؟"

عندما دخلت إلى البيت، تبادر إلى ذهني أن رودي لم يسألني قط لماذا ظننت أن كايسي موجودة في بونيبروك. كان متأكدًا من أنّني أعرف. تساءلت هل سيغضب أبي وأمّي مني عندما أخبرهما بما فعلناه. يجب أن أخبرهما عن تلك الأوقات التي كنت أمضيها هناك مع كايسي، منذ سنوات، لكن أمّي، خاصة، لن تكون مسرورة عندما تسمع ذلك.

كنت محقّة. فقد كان بإمكاني أن أرى وجه أمّي العابس عندما حكيت لها ما فعلناه أنا وكايسي في الماضي، كما لو أنها نظرت إلى ابنتها وأدركت بأنّني لم أكن تلك الطفلة التي كانت تعتقد دائمًا أنني كنتها. لم تقل أيّ شيء بالتحديد. هزّت رأسها، لكن يمكنني أن أقول إن قصّة أننا كنّا، أنا وكايسي، نذهب إلى المصحة ونلعب فيها في ذلك الصيف منذ زمن بعيد كاد يزعزعها كما زعزعتها قصّة كايسي الآن. بشكل ما، بطريقة لا يمكن التعبير عنها، لم تعد أمّي تكترث كثيرًا لكايسي. فقد شعرت بالارتياح لأنه تم العثور على كايسي، ولأنها سالمة

الآن، لكنها لم تكن تريد أن تعرف شيئًا آخر. فأنا من يهمها، وعندما، لسنوات عديدة، كانت كايسي جزءًا منّي، كان أمرها يهم أمّي أيضًا. لكن أمّي ألغت كايسي من حسابها منذ زمن. بالنسبة إلى أبي وأمي، فإن قول "تلك أخبار سيّئة!" والتعبير عن الشفقة بصمت هو أكثر الردود المناسبة تفاؤلًا لهذا النوع من الأطفال.

لم يكن ذلك ينسحب على أمّي فقط. وإنما هذه هي حقيقة الأمر. ففي يوم الإثنين، عقد المدير في المدرسة اجتماعًا صباحيًا للمدرسة برمتها في صالة الألعاب الرياضية ليعلن بأنه تم العثور على كايسي وأنها ترقد حاليًا في المستشفى وهي في حالة مستقرّة، وتحت رعاية أسرتها المحبّة، لذلك يمكننا أن نبتهج جميعًا. لقد استخدم كلمة "نبتهج" خاصّة لي. فقد صعد إلى المنصّة، فخذاه غليظتان في بدلته الضيّقة وقد أبدى عناية كبيرة بتسريحة شعره، كان يبدو راقص روك في عرس، وقال، أرجو أن تمنحوا كايسي وأسرتها (أسرتها؟ أندرز شوت؟) خصوصيتها، وعند هذا التعليق، سمعتُ ضحكات مكتومة غاضبة ورائي بين حشد التلاميذ، ثمّ قال إن هذه مسألة شخصية، ولا يوجد أيّ سبب يدعونا لمناقشتها أكثر، والرجاء عدم التخمين أو نشر إشاعات. ثمّ طلب منّا أن نعود إلى صفوفنا، وبالطبع، لم يتحدث أحد في الممرات عن شيء سوى عن كايسي.

"هيه، جوليا". دنت مني تلميذة من الصف العاشر اسمها أولي لم تكلّمني قبل الآن، وقالت: "سمعنا أنّك شاركت فيها، لقد ساعدتها على الاختباء".

لم أجبها، بل تابعت طريقي مطرقة الرأس.

"لا تصدّقي كلّ ما تسمعينه"، قالت جودي بالنيابة عني.

"كانت تلك الفتاة عاهرة"، قال أحد أصدقاء أولي، "ألا تذكرين ماذا فعلت في الخريف الماضي عندما كانت في الحفلة في بيت أ.ج؟ كانت سكرانة تمامًا".

"وأظن أنك لم تكن كذلك أيها الحقير؟" فوجئت لأنّي أعرف أن جودي كانت تعتبر كايسي عاهرة أيضًا. لكن جودي كانت تكره نفاق الصبية أكثر من أي شيء آخر.

"حسنًا، لا أعرف"، واصل الفتى كلامه، "لكن لم ينته بي الأمر أنني أصبحت شبه عار في غرفة مع مجموعة من الفتيات، أليس كذلك؟"

"في أحلامك فقط"، أجابت جودي وهي تسحبني من مرفقي لنبتعد.

واقترحت عليّ، "اتصلي بأمّك. عودي إلى البيت. خذي اليوم إجازة، وربما غدًا. فإن ذلك سيهدئ الأمور".

"قد لا يحدث ذلك".

"صدّقيني، ستهدأ الأمور".

"لماذا أنت واثقة كلّ هذه الثقة؟"

فقالت جودي: "لأنه كما حدث في الماضي، عندما كنت لا تزالين تظنين أن كايسي فتاة طيبة. لا يمكنك أن تري الحقيقة لأنك تهتمّين بها كثيرًا. إن ذلك يشوه رؤيتك. والواقع هو أن الناس كانوا مهتمين بها أكثر بكثير عندما كانت مفقودة. أما الآن فقد أصبحوا يعرفون نهاية القصّة. لقد انتهت. والنهاية ليست مثيرة كما كانوا يتصورّون: فقد تكون فتاة مومس مراهقة في ميدان تايمز سكوير، وقد تكون قد وجدت عجوزًا وقع في حبها في فلوريدا، أو قد تكون

قد اختُطفت، أو قُتلت وقُطّعت إربًا ونُثرت قطع جسدها على طول الشاطئ في بلام آيلاند. أي شيء من هذه الأشياء كان سيجعلها فتاة خاصّة، وكانوا سيتذكّرونها. قد يكون أحدهم قد صنع فيلمًا عنها، أو ورد ذكرها في نشرات الأخبار. كان من الممكن أن تكون هناك محاكمة. لكن تبين أنها ليست سوى طفلة أخرى تشاجرت مع أمّها فذهبت وأمضت ليلتين في مبنى مهجور".

"لقد سرقت دواء من مجموعة أمّها الطبية. حاولت أن تنتحر".

"حسنًا، قد يمنحها ذلك بعض النقاط الهامة، لكن لا يعرف أحد في المدرسة ذلك بعد. وكانت ستكون قصّة أفضل لو أنها نجحت في أن تنتحر في الواقع".

"يا إلهي، هذا فظيع".

"فكّري بها كقصّة تكتبينها لفريق الخطابة، إذا أردت. فالنهاية السعيدة ليست نهاية. لا أحد يريد نهاية سعيدة لأنهم يهتمون بالقصّة أكثر مما يهتمون بالشخص".

"كيف يمكنك أن تكوني حقيرة بهذا الشكل؟"

"أنا لست حقيرة"، قالت جودي، "أنا أقول لك الواقع فقط".

عدت إلى البيت في ذلك اليوم، وأخذت اليوم التالي، الثلاثاء، إجازة، وعدت إلى المدرسة يوم الأربعاء. بدا لي أن حفنة من التلاميذ كانوا يرمقونني ويتهامسون، كما لو أنهم يقولون نعم، إنها صديقتها التي وجدتها. وجاءت إليّ صديقتا كايسي الجديدتان، ألما وفتاة أخرى تدعى جوستين، في الكافتيريا، وسألتاني عمّا حدث. لم أخبرهما التفاصيل – لم أخبرهما عن القيء، أو الفودكا، أو قناني الحبوب الطبية - بل قلت لهما إنها ذهبت لتختبئ في المصحة العقلية، وقد خمّنتُ أنها ربما تكون

في المكان الذي كنّا نذهب إليه عندما كنّا في سن أصغر. وسمعت أنّ ألما، على الأقل، قد ذهبت وزارت كايسي، لا في المستشفى وإنما في البيت، قبل أن يغادروا. وحكى التلاميذ، لا لي، بل من حولي، شتى أنواع القصص التي سمعتها في النهاية. فقد قالوا إن رودي مولنارو عشيقها، وأنهما كانا يذهبان إلى المصحة ويمضيان فيها أيامًا، وأن بيف أرسلت كايسي إلى خارج البلدة لتبعدها عن قبضتيْ رودي. وقالوا إنّ كايسي كانت قد هدّدت بأن تذهب ولن تعود إلى البيت إذا لم تطرد بيف أندرز شوت، وقالوا إن أندرز شوت كان يتحرش بكايسي جنسيًا، وأنها هربت عندما اكتشفت أمّها ذلك. وقالوا إن والد كايسي لم يمت، وكان قد دعا كايسي - لا، كايسي وبيف؟ - لأن تأتيا وتقيما معه. وقالوا إن والد كايسي في الحقيقة هو رودي مولنارو، وأنها كانت مستعدة لأن تترك أمّها من أجله - لا، بل إنهما كانا يقيمان علاقة غرامية، ثمّ أدركا مؤخرًا أن ذلك يعتبر سِفاحًا، لأنه أبوها وهي ابنته. وقالوا إنّها حاولت أن تنتحر لأن المدرسة طردتها بسبب تعاطيها المخدرات، لا، وإنما لأنها تعرضت لعملية اغتصاب جماعي على يد حفنة من الطلاب من أعضاء فريق لعبة اللاكروس، وقالوا يبدو إنها صبغت شعرها - لا، بل حلقت شعر رأسها؟ - عندما هربت. وقالوا إنها أصيبت بنوبة ذهانية ولم تكن تعرف أين هي عندما عثروا عليها في المصحة. وقالوا إننا، أنا وهي، عشيقتان سرّيتان؛ وقالوا إنّني كنت أغار من علاقتها مع أندرز/ رودي/ بيتر وقد استدرجتها لتذهب إلى المصحة لأقتلها، لكني شعرت بالندم في اللحظة الأخيرة. وقالوا إن ما حدث فعلًا لغز ولن يعرف حقيقته أي واحد منّا أبدًا.

لم أقل شيئًا - ولا حتى لجودي - ولا لبيتر. قلت لنفسي إنها

إحدى هدايا الصداقة التي يمكنني أن أقدمها، كما ينبغي، حتى لو جاءت متأخرة، لكايسي: وهي أن أحتفظ بالقصّة التي أعرفها لنفسي، أو التي خيّل إليّ أني أعرفها. دعهم يقولون ما يريدون.

لفترة من الزمن، ظلّ أهل البلدة يخمّنون ويحلّلون ويحسبون ويتخيّلون. فقد كان الجميع يريدون سماع قصّة، قصّة ذات حبكة، وفيها دوافع وأحداث ثم تبلغ الذروة ثم تصل إلى حلّ. وقد حوّلت القصّة التي كانوا يريدون سماعها - مهما كانت الصيغة التي أسبغوها عليها - كايسي إلى نوع من ضحيّة: ضحيّة الإدمان، أو ضحيّة التحرش الجنسي، أو ضحيّة أمّها، أو ضحيّة أندرز، أو رودي، أو حتى ضحيّة لي. كان العثور على جثّة سيصنع منها أفضل قصّة، العنوان الرئيس، عندها قد ننهار كلّنا، ونُصدم، ونندم و- وفي وقت متأخر جدًا – نشعر بالحبّ اتجاهها.

عندها، عندها فقط، بعد أن تبرأ من ذاتها الشهوانية الآثمة، يمكن أن تُخلّد كايسي، أن تُؤلّه، وأن تُطهّر وتُرفع إلى مقام أعلى. ولو كانت قد قُتلت، لكنا قد تذكّرناها بأنها كايسي الحلوة، كايسي الجريحة، كايسي المهملة، كايسي الجميلة ذات العينين اللازورديتين وشعرها الناري - الأبيض، كايسي التي طهّرتها المعاناة والألم. عندها كان أهالي بلدة رويستون سيحترمونها ويعتبرونها بطلة.

لكن بما أنها لم "تلق حتفها"، كما يقال، لم يعرف أحد ماذا يجب أن يفعل معها، بفكرة أنها – "فتاة مضطربة" دمدمت ميلدرد بيل بحزن من وراء منضدتها، أفضلهم - وبعد أسابيع من تلك الأحاديث التافهة، أداروا ظهورهم وابتعدوا.

وفي المدرسة، بعد بضعة أيام على الأكثر، انتقل التلاميذ

للحديث عن أمور أخرى: كسرت سيبرا فرانتو ثلاثة أضلاع عندما سقطت من الشجرة خارج نافذة غرفة نومها؛ ووقوع والد ألكس بول، متعهّد دفن الموتى، في مشاكل لأنه خلط بين جدتين ميتتين في صالة الجنازات. في الغالب، كان الأمر أشبه بإنستغرام: ننتقل إلى صورة أخرى، وهكذا غابت كايسي عن الشاشة.

قبل مغادرتهما، رفضت كايسي أن تراني رفضًا قاطعًا. أرسلتُ لها رسائل بالبريد الإلكتروني وكتبت لها رسائل نصيّة على الهاتف، لكنها لم تردّ على رسائلي. حرصت على ألاّ أتصل بها في بيتها، لأسباب مختلفة، لذلك، في منتصف شهر مايو، أي بعد خروج كايسي من المستشفى بأسبوعين وعودتها إلى البيت، اتصلت أمّي أخيرًا. كانت بيف هي التي رفعت سماعة الهاتف.

"بادرة لطيفة منك أن تتصلي"، قالت لأمّي - بنبرة رسمية، قالت أمّي، كما لو أن المرأتين لا تكادان تعرفان بعضهما، "وإننا ممتنّون جدًا جدًا لجوليا لمساعدتها في العثور على كايسي". ("هل كنت تظنين"، قال أبي، "أن المرأة كانت سترفع سماعة الهاتف بنفسها وتتصل بك لتشكرك؟ من أجل إنقاذ حياة ابنتها؟ إنه شيء صغير، بعد كل شيء") ثمّ تابعت بيف كلامها، "كانت فترة عصيبة، كما يمكنك أن تتصوّري، وخاصة بالنسبة إلى كايسي، البائسة". لاحظت أمّي هذه الكلمة وكرّرتها على مسامعي، لأنها كانت تتوقّع أن تسمع كلمة "مكتئبة" التي بدت واضحة، لكنها قالت بدلًا من ذلك "بائسة" التي على الرغم من أنها صحيحة أيضًا، لم تكن تنطوي على القوة الكافية

لمواجهة هذه الظروف. "لذلك"، تابعت بيف، "فإننا نحاول أن نتطلع إلى المستقبل..."

"طبعًا" قالت أمّي إنها قالت، محاولة أن تطمئنها، "وهذا يعني، بطرائق هامة، إغلاق الباب على الماضي".

"طبعًا" قالت أمّي إنها قالت مرة أخرى، ولو بشيء من الحيرة.

"سننتقل من رويستون"، قالت بيف، "بداية جديدة هامة".

"طبعًا، لكن متى؟"

"في نهاية الأسبوع القادم".

"يا إلهي"، لم تتمكن أمّي من إخفاء دهشتها، ثم أضافت، "لكن كيف سيتم ذلك؟ حياتكم كلها..."

"لقد أعلمت دار العجزة بذلك. إنهم يتفهمون، فهذه ظروف خاصّة. لم يعد بإمكاننا البقاء في رويستون".

فوجئت أمّي بذلك أيضًا: أرادت أن تسألها لم لا؟ لكن أسلوب بيف كان متوتّرًا جدًا، غريبًا جدًا، فلم تجرؤ على سؤالها. "إلى أين ستنتقلون؟" سألتها بدلًا من ذلك، بتهذيب شديد.

"أفضّل ألاّ أقول الآن. لا تقلقي، فالجيّد في المهنة التي أعمل بها أنه يوجد دائمًا عمل لشخص يتمتع بمهاراتي". ("مهنتها هي الموت"، قال أبي، "فهي ليست مخطئة في ذلك")

"لكن ماذا عن أندرز؟" سألتها أمّي مستفسرة، "فلا بد أن يستغرق ذلك بعض الوقت بالنسبة لطبيب في مستواه..."

فقاطعتها بيف بنقرة بلسانها. قالت أمّي إنها كانت تستطيع أن ترى بأمّ عينها علامة الرفض التي ارتسمت على وجه بيف: تضييق منخريها وتسطيح شفتيها. نظرة نألفها جميعًا. "أندرز شوت لن

ينتقل معنا"، قالت بيف، بوضوح وببساطة، تلك الجملة فقط.

"أنتِ وكايسي فقط؟"

"صحيح".

يا إلهي. أرى ذلك. إذا كان الأمر سيتم بهذه السرعة – فأنا أعرف كم يجب أن تكوني مشغولة - لكن جوليا تحبّ كثيرًا أن ترى كايسي"، قالت أمّي، " قبل أن تغادرا – لكي تطمئن على صحة كايسي. لأنه، كما تعرفين، فإن ما حدث مؤلم جدًا لجوليا، فقد كانت آخر مرّة رأت فيها كايسي..."

لكن أمّي قالت بعد ذلك إنها عرفت من نبرتها المتوسّلة بأنّها لم تتوقّع أن تقول بيف نعم.

"هنا تكمن المشكلة"، قالت بيف، "فقد مرّت حبيبتي كايسي بفترة مؤلمة جدًا، وإن أيّ شيء يمكن أن يذكّرها به، حسنًا... أنا آسفة، لكن عليّ أن أقول لا. أعرف أنّك ستتفهمين".

"طبعًا"، قالت أمّي، مع أنّها قالت لي بأنّها لم تفهم لوهلة. "وماذا عن شعورك بالصدمة أنتِ؟" قالت لي أمّي. "كان عثورك عليها معجزة، وكان مريعًا أن تريها وهي في تلك الحالة". هزّت رأسها.

كان بإمكاني أن أعرف متى دار هذا الحديث - في المطبخ ونحن نعدّ العشاء، مثل الكثير من أحاديثنا، عندما كنت أغسل خسّة على المغسلة، وكانت هي تُحمّر شرائح لحم البقر – عندما ارتعش جسد أمّي. كان بإمكانك أن ترى ذلك في الطاقة المجنونة التي كانت تقطع بها شرائح اللحم.

"لا أستطيع أن أفهم ذلك"، قالت، "فأنا لا أفهم كلّ ذلك".

لم تكن أمّي تعرف، في ذلك الحين، كلّ ما جرى، أو على الأقل

ما حكت كايسي لبيتر بما حدث، في بانغور، وبعد ذلك. كنت أقطع أوراق الخسّ، مولية ظهري لها. لا أعرف هل تُعتبر خيانة إذا أفضيت لها بكلّ ما أعرف. "ما هو الشيء غير المفهوم؟" سألتها، بدلًا من أحكي لها ما حدث.

فقالت: "تجعلك تتساءلين ما هي الأشياء التي لا تعرفينها. ما الذي يجري من حولك ولا تستطيعين رؤيته".

لذنا بالصمت معًا دقيقة، ونحن نقوم بعملنا.

"إني أتساءل يا جوليا، يا ابنتي الغالية، هل أنني أعرف كيف تسير حياتك؟ أو من أنتِ؟"

"لا تكوني سخيفة يا أمّي". لكنّها لم تكن مخطئة تمامًا. وأدركت أنا أيضًا من جديد تفرّد كلّ واحدة منّا، وكم قليلة هي الأشياء التي نتشارك فيها في أنفسنا وفي حيواتنا، مع أننا نتشارك في الغرف وفي الساعات وفي الأحاديث. كنت أعرف كايسي طوال حياتي. عرفت حركاتها وتعابيرها ونبرة صوتها. كنت أعرف كيف تفكّر وروحها المرحة والأشياء التي نتشابه فيها والأشياء التي نختلف فيها. ألم نكن أختين سرّيتين، يربطنا حبل سرّيّ واحد؟ لكنّي صرفتُ انتباهي عنها، وبسرعة كبيرة، بدا، بتذكّر الماضي أنها تغيّرت، أن الأمور قد تغيّرت. وبدأت تنجلي الأيام، الواحد تلو الآخر، والأشهر التي بقيت فيها، أو التي اعتبرتُ أنني بقيت خلالها، جوليا نفسها – مع أنه من كان يعرف، حقًا؟ - وفي تلك الأيام، عندما كنت أتحرّك في دروب مألوفة، تغيّرت حياة كايسي إلى حد أنه لم يعد بمقدوري تمييزها، وراء ستار سميك، وراء أبواب البيت الصغير الذي يقع في الشارع المسدود، حتى الشيء الذي كنت أظنّ أنّني أعرفه، لم أكن أعرفه، وأن الشخص الذي

ظننت أنّني أعرفه، أصبحت، وراء جلدها، غريبة عني. كنت غويا الغافل في المحكمة الإسبانية، وهي الثورة الفرنسية.

لم أكن أعرف بماذا تفكّر، وما مرّت به من تجارب، لكني، عندما عدت إلى صفات الأسلاف الوراثية، عرفت كيف أجدها - لم تكن قد تغيّرت كثيرًا. الشيء الذي لم أتوقّعه هو أنها لم تكن تريد أن يُعثر عليها. تلك النظرة الأخيرة التي رمقتني بها كانت طافحة بالغضب.

في المطبخ مع أمّي، هي واقفة عند الموقد، وأنا عند المغسلة، للمرة الأولى انتابني الهاجس الذي يصيب الكبار وهو أن أمّي كانت تخشى أيضًا هذه الهاوية، لا فيما يتعلق بكايسي وإنما بي، أنا وأمّي. فهمت أنّها تظن بأنها كانت تعرفني - من لحمها، اللحم الذي خرج إلى العالم من بين فخذيها، دائمًا بجانبها، ولا أزال، في مكان ما، في داخلها – وقد خافت، الآن، ربما للمرة الأولى في حياتها، من أنّها لم تكن تعرفني مطلقًا. التفتُّ إليها وضممتها بين ذراعيّ - لم يعد حجمها أكبر مني، بل في الواقع، أصبحت أطول منها – وضممتها إليّ، وقبّلت خدّها الناعم، وهمست في أذنها، مرة أخرى، "لا تكوني سخيفة يا ماما"، ثمّ أضفت، "لا يوجد شيء يمكن أن تخافي منه". كانت أمّي قد رددت على مسامعي هذه العبارة مرات كثيرة، وتبدي بادرة الحبّ والطمأنينة هذه؛ لكن هذه أول مرة أقول لها ذلك. وأول مرة أيضًا فهمتُ أن هذه الكلمات قد لا تكون حقيقية.

رأى **بيتر كايسي** مرة ثانية. لم يكن ذلك متعمدًا، ولم يكن ليكلّمها، لكنّه رآها. بعد يومين من رفض بيف طلب أمّي بأن أراها.

كان بيتر برفقة أبيه في محلات تارغيت في الساعة التاسعة ليلًا، بعد أن أنهى تدريبه على الجري، وكانا يرغبان في شراء طعام للكلب، ومناشف ورقية، وشاحن جديد لهاتفه الخلوي. صادفا كايسي وبيف في الممر العريض بين قسميْ المكياج والأدوات المنزلية. قال إن كايسي، شاحبة كالحليب، كانت تدفع العربة، وكانت تبدو قزمة من وراء شبك العربة البلاستيكي الأحمر، وكانت أمّها تحجبها -بجسمها – الضخم، الذي يصدر هسهسة ورائحة عطرة - عندما اقترب. قال كانت في عربتهما كومة من مناشف الحمّام البيضاء، وعلبة ذهبية من بخاخ الشعر. لقد لاحظ ذلك. قالت كايسي مرحبًا، لكنها لم تتحرك من وراء العربة، وكانت عيناها كابيتين، كما قال. يظن أنها تتناول دواء. كانت نحيلة كعصفور، تتحرك بسرعة. بيف التي لم تكن تحبّ بيتر، ابتسمت له ابتسامة متكلفة.

"بعض الأعمال تظهر في آخر دقيقة"، قالت، "أشياء كثيرة يجب أن نفعلها قبل أن نذهب"، ثمّ دفعت كايسي والعربة بقوّة إلى ممرّ قسم طعام الحيوانات الأليفة - مثل امرأة خاطفة، قال بيتر – وكان هذا كلّ شيء. كانت كايسي تنتعل خفّ غرفة نوم، ذلك النوع من جلد الخروف المنفوش. حزن لأنها لم تنظر إلى الوراء. "كأنها رهينة"، قال مرة أخرى، "كأنها ليست هي".

مهما كان ذلك يعني.

طوال سنة تقريبًا، لم يذهب أندرز شوت إلى أيّ مكان. بل بقي في البيت الصغير في الشارع المسدود - استأجره من بيف، كما

أظن، حتى باعته في ربيع السنة التالية – وعندما كنت تراه، ونادرًا ما يحدث، في محل بيل أو رايت إيد، كان يمدّ شفتيه الرقيقتين بابتسامة واهية ويميل برأسه قليلًا تعبيرًا عن التحية، ويواصل طريقه.

خمّن معظم سكان البلدة، بسبب بقائه، أن أندرز لم يرتكب أي خطأ، وأنه يمكن تلخيص ما جرى في ذلك البيت الصغير ببساطة بأن "الأمور لم تنجح" أو أن "بيف وكايسي كانتا بحاجة إلى بداية جديدة". لكن ألم يكن أندرز شوت مصدر كلّ مآسي كايسي؟ ألم يدمّرها كما دمّرها ليو، ذلك الكلب الشرس الذي مزّق يدها؟ لم نقل ذلك لوالدينا، وإن كانت قد خطرت لهم أفكار كهذه، فإنهم لم يعبّروا عنها علنًا.

قد يكون أندرز بريئًا أيضًا – مذمومًا، غريبًا، وباردًا - لكن لا شيء أكثر من هذه الأمور المؤسفة. ربما، تساءلنا أنا وبيتر، كان كلّ ذلك بسبب بيف، ملاك الموت. ما هي الأشياء الحقيقية وما هي غير الحقيقية في تاريخ كايسي؟ هل كان اسم والدها بورنيس حقًا؟ من أين جاءت بيف، والآن إلى أين ذهبتا؟ إلى أي مكان يمكن أن تكونا قد ذهبتا، بهذه السرعة، لأنه لا يوجد لديهما "أقارب" هناك – على حد علمنا، على حد علم كايسي. لا يوجد أقارب لبيف. لذلك، ربما، إلى أي مكان يمكن أن تذهبا إليه، لم تعودا بيف وكايسي بورنيس. وبعد أشهر، بحثت في غوغل عن اسميهما، لكني لم أعثر على شيء، لا شيء مطلقًا يشير إلى وجود حياة بعد حياتهما في رويستون، كأنه لم يعد لهما وجود. كنت آمل في أن تكتب لي كايسي، أو تتّصل بي بالهاتف، أو ترسل لي رسالة نصيّة، لكنّها لم تفعل ذلك.

في منتصف الصيف، لم تعد رويستون تتحدث عنهما. وعندما انتهت السنة الدراسية، تفرّق الطلاب وعملوا منقذين ومستشارين في مخيمات الطلاب، وذهب بعضهم في رحلات على الدراجات الهوائية، أو التحق بعضهم الآخر بالمدرسة الصيفية، وتحوّل جلّ انتباههم وأحاديثهم إلى سرطان الثدي الذي أصيبت به أمّ جودي، وإلى الحريق الذي اندلع في مصنع هينكيل. ولم يعد لدى الكبار ما يقولونه، فلم يقولوا المزيد، ثمّ خيّم الصمت حول كايسي، وأصبح أكثر صمتًا من القبر، كما لو أن كايسي لم يكن لها وجود على الإطلاق.

تحدّثت أنا وبيتر عنها كثيرًا، في البدء، عندما كان أحدنا يمسك بيد الآخر، وعندما بدأ أخيرًا يعتبر صداقتنا حبًّا، كما كنت أعتبرها منذ البداية. لكن حديثنا عنها بدأ يقلّ مع مرور كلّ أسبوع. حتى بيننا، نحن اللذين كنا نعرف بقدر ما يعرفه أي شخص آخر، كنا نستطيع أن نقول الكثير قبل أن نعود وندور في دوائر.

كان بيتر مقتنعًا بأن بيف بورنيس قد غيّرت اسميهما، وأن كايسي، حيثما ذهبت، لم تعد كايسي بورنيس. وبعد تفكير عميق، ازداد قناعة بأن بيف كانت دائمًا امرأة حالمة، تعرف كيف تكسب ثقة الآخرين، وكيف تنتقل من قصّة إلى أخرى، وأن السنوات العشر التي أمضتها في رويستون ليست سوى فصل واحد في سلسلة من المسرحيات. وفي رأيه لم يكن هناك شخص يدعى كلارك بورنيس، وأن مدرّب كرة القدم في بانغور الذي تحدّثت عنه كايسي لم يكن سوى صدفة غريبة محضة. "تصوّري ذلك الرجل المسكين" قال بيتر، "مع هذه الطفلة المجنونة بتلك القبعة التي تغطي رأسها به وهي تقف عند عتبة باب بيته، في فجر يوم إثنين، هكذا على حين غفلة. كيف يمكن

أن يبدو ذلك؟" تساءلت هل كلّم آرثر ج. بورنيس زوجته، آنا ماريا، عن هذا الأمر، وهل تحدّثا عن كايسي، وهل لا تزال حيّة بالنسبة إليهما بطريقة ما.

يرى بيتر أن بيف كان لها اسم مختلف منذ البداية – بل حتى هل نعرف أين يفترض أنها نشأت؟ في روشستر، بنيويورك؟ لانكاستر، ببنسلفانيا؟ أو خارج ويلمنغتون؟ لماذا لا يعرف أحد عنها أشياء مؤكدة، ولماذا لم يلاحظ أحد بأنّهم لم يكونوا يعرفون؟ ويظن بيتر أن بيف تشبه أولئك المحتالين الذين تشاهدهم في برامج الجريمة في التلفاز، اسم مختلق، هوية مزيفة، توصل الموت في أرجاء البلد وهي تحمل حقيبتها المليئة بالمورفين والأوكسيدون والفينتانيل – وتدعى ملاك الرحمة. وقال ربما أن بيف لا تعرف من هو والد كايسي. وقد لا تكون كايسي ابنة بيف.

"إنك تبالغ" قلت، فقال: "لماذا؟ إن ذلك يحدث".

لم أشأ أن أصدّق بأن تاريخ طفولتي المتماسك يمكن أن يتفكك كليًّا، بسبب نزوة من نزواتنا. فأجبته، "لا، هذا لا يحدث كثيرًا"، وأضفت، "إننا نعرف هؤلاء الناس جيدًا". كنت على استعداد لأن ألوم أندرز شوت على كلّ ما حدث: ظهوره في حياتهما، استمالته لبيف، اهتمامه الشديد والشرير بأن يتحكم بكايسي الذي ربما تجلّى في طرائق مختلفة. ولم تقل لنا شيئًا معيّنًا، لا لي ولا لبيتر، لكن شيئًا ليس جيدًا حدث في ذلك البيت. كنّا نعرف ذلك كلانا. لماذا لا نصدّق، كما صدّقت كايسي حقيقة كلارك بورنيس؟ لماذا لا أصدّق كايسي، كما كانت كايسي تظن بأن قطّتها التي اختفت، إلكترا، تعيش حياة أخرى، حياة أفضل في مكان قريب، تأكل وجبات طعامها من صحون

فضية وأنه كُتب لها مستقبل جميل؟

أريد أن أصدّقها بقوة، من أجلي ومن أجلها أيضًا. إن قصصنا كلها مختلقة بشكل ما. إن الشيء الذي لا يبدو متخيلًا – الشيء الذي يبدو حقيقيًا أكثر – هو كابوسي عن كايسي وعن العباءة المسمّمة، وإحساسي بأنّ هذا هو معنى أن ننمو ونكبر. فمهما كانت الخيارات التي يخيّل إلينا أننا نتخذها، ومهما كانت الأشياء التي نظن أنّنا نستطيع التحكّم بها، لها حياة وقدر لا يمكننا أن نراهما بالكامل. بأنّني أستطيع أن أشعر في أي اتجاه ستسير الحبكة، بأنّني استطعت، في صباح يوم السبت ذاك من شهر أبريل منذ سنتين، إنقاذ حياة كايسي بورنيس – ما هو إلاّ وهم أتعلّق به. إن ما سيكون، سيكون، مهما كان، لا لأن القدر منيع، حصين، وإنما لأن لا أحد منّا يراه وجهًا لوجه: عبر زجاج داكن هو أفضل ما يمكننا أن نفعله.

في الليلة الماضية على العشاء، فتح أبي وأمي حديثًا عن موضوع الجامعة مرة أخرى. فقد كان عليّ أن أقدم طلب الالتحاق بالجامعة هذا الخريف. جلسنا حول طاولة المطبخ والعرق ينضح منّا والنوافذ مفتوحة لتهبّ منها نسائم خفيفة، وكان الغروب يلقي بأعمدة من الضوء والظلّ عبر الحديقة، وكانت شجرة القيقب تغطي السماء الغربية القانية. وكنا نسمع صوت نقيق الضفادع، ونسمع وتناهى إلينا من بعيد أصوات أولاد أسرة ساغافي الذين كانوا يلعبون مبتهجين في بركة الماء في حديقتهم (لعبة "ماركو..." "بولو..."). أثار أبي الموضوع: يجب أن نخطّط لإجراء بعض الزيارات إلى الجامعة في

أغسطس، قبل أن تبدأ المدرسة.

استندَ إلى الوراء في كرسيه – وكان هذا يزعج أمّي التي تظن أنه سيقع كلّما فعل ذلك، كما كانت تكره أن ترى خدوشًا على الأرضيّة – وقال من دون أن ينظر إليّ، كما لو أن ردّي لم يكن مهمًا بالنسبة له. "هل من آراء أخرى؟"

"أريد أن أمثّل"، قلت، وهذا الأمر لم يكن جديدًا، بالطبع، لكن الجديد بالنسبة لي هو أن أضع هذا الطموح في المرتبة الأولى.

"طبعًا، يا حبيبتي"، قالت أمّي وأضافت قطع حلوى كويش في صحوننا دون أن تسألنا، "لكن هذه ليست الطريقة التي تختارين فيها جامعة".

"لم لا؟"

"بالتأكيد، يا كارول، لم لا؟" حرّك أبي أرجل الكرسي الأربع، واستخدم شوكته. "إذا أردتِ أن تمثلي فما الخطأ في ذلك؟"

"لن تنالي شهادة في التمثيل"، قالت أمّي.

"ربما لا"، قلت، "لكنّي أستطيع أن أختار الأشياء التي تهمني وفق ما لديهم من برامج مسرحية جيدة".

"ما الذي يجذبك كثيرًا إلى التمثيل؟" سألت أمّي. فقد كانت تريدني أن أهتم بالسياسة، أو بالعلوم. فهي ترى ذلك التزامًا للمرأة، حتى الآن. وهي تعتبر التمثيل شيئًا سلبيًا – تكررين عبارات كتبها شخص آخر، وتدّعين بأنك شخص ليس أنتِ.

"هيا يا كارول، أعطي البنت فرصة"

"إني لا أجادلك، وإنما أتساءل".

"هل عليّ أن أوضح حقًا؟"

"جرثي"، قالت أمّي، وقد ارتسمت على وجهها تعابير الشخص البالغ المهتمّ، حاجباها مرفوعان، وابتسامة مصطنعة على شفتيها.

"لا يمكنك القول إنها عديمة الأهمية ثقافيًا". بدا لي أنني أصبحت في موقف المدافع عن نفسي، "لا يوجد شيء تهتم به ثقافتنا أكثر من هذا".

"من المسرح؟"

"من التمثيل. حسنًا، التلفاز، السينما، كل الأشياء. هذا ما نفعله نحن الأمريكيّون".

"لم أعد أستطيع فهمَ ما تقولينه جيدًا" قال أبي مبتسمًا، "فأنا أمريكي، وأنا طبيب أسنان. وأعتني بالأسنان".

"تعرف ماذا أقصد".

"لا، حقًا يا عزيزتي. وضّحي الأمر لنا".

"أنا أحبّ التمثيل، أوكي؟ ألا يكفي هذا؟"

ربَتَ أبي على ظهر يدي على الطاولة، وقال: "طبعًا يكفي. أمّك تقسو عليك. نعرف أنّك تحبّين ذلك، وهذا شيء جيد". صمت ثم قال: "إنها تريدك فقط أن تفكّري بالسبب. لأنه قد تكون هناك أشياء أخرى، لا أعرف، بدائل، قد تهتمين بدراستها أيضًا. ليس بديلًا عن التمثيل، كما تعرفين، وإنما إضافة".

" أتقصد شيئًا مثل معالجة السرطان؟"

ضحك وقال: "شيء من هذا القبيل".

هززت رأسي. غيّرنا الموضوع.

كيف يمكنني أن أفسّر بأن كلّ شيء يبدو بأنه تمثيل، كالمسرح، بالنسبة لي؟ فكلّنا نرتدي أزياءنا ونضع أقنعتنا، ونتظاهر.

إننا نأخذ الأحداث والعواطف الواسعة، غير المكتملة، التي لا يمكن فهمها، المحيطة بنا وننغمس فيها، ونضعها في شكل قصة مبسّطة، قصّة بسيطة نمثّلها على أنها حقيقية. مثل: أنني أحبّ الأفوكادو لكني أكره الكرنب. أو: أنني متفوقة في اللغة الإنكليزية لكني ضعيفة في الرياضيات. أو: أنني صديقة مخلصة أعمل كلّ ما يمكنني لمساعدة الأشخاص الذين أحبّهم. أو: أنني أعرفك معرفة جيّدة وأستطيع أن أتوقّع كلّ حركة يمكن أن تقدم عليها. أو: أنني أعرف نفسي، وأن هذا هو أنا.

لكنّنا في واقع الحال لا نعرف شيئًا على الإطلاق، سوى كيف ينبغي أن تسير القصّة، ونوهم الآخرين بأنّها قصّتنا، آملين بأن يصبح كلّ شيء على ما يرام. والفرق هو أن ذلك يجري على المسرح، أو في الفيلم، ونقرّ بأنها حيلة، ونقبل أنّنا صنعنا عالمًا يستثني ما نتجاهله. كالآلهة، نخترع عالمًا يبدو معقولًا.

في فيلم حياة كايسي، فإنها تشفى من حزنها (لأنه يمكن تلخيص كلّ ما مرّت به بأنه حزن)، وعادت إليها بيف كما كانت كايسي تعتقد ذات يوم ولفترة طويلة بأن بيف هكذا – الأمّ البدينة، الغريبة الأطوار، المحبّة بقوة التي هي حليفتها الوفية القوية في عالم من الوحدة. في الفيلم، تبدأ كايسي من جديد، في مدرسة ثانوية في ستامفورد، بكونيتيكت، أو في أتلانتا، بجورجيا، أو في بورتلاند، بأوريغون، فصلًا جديدًا، يمكنها أن تكون فيه أي شخص تريد أن تكون، محبوبة وناجحة وسليمة وحرّة، تشق طريقها إلى مستقبلها النقي.

في هذه الحياة الجديدة، التي أصبح ظلام بونيبروك في طي النسيان، فإنها تسبح، تنزلق بروعة في فترات بعد الظهر الذهبية الطويلة في المياه البلّورية، مثل المياه التي في مقلع الحجارة. القاع ليس معكرًا، أو غادرًا، وهي تعرف أنّها لن تغرق أبدًا. وعندما نشاهد ذلك الفيلم – لو صنعوه أصلًا، ولو عُرض - فإننا سنقول: نعم، طبعًا. هذا ما يعنيه أن تكوني فتاة شابّة؛ هذه هي القصّة الحقيقية، هذه الرؤية الجميلة: ضربات كايسي الهادئة على الماء والموجات اللطيفة التي تحدثها؛ شعرها الأبيض الأشقر المعقود بشريط؛ المياه الخضراء الرقراقة، على طول الضفة التي تتدلّى فوقها أغصان الأشجار، والصخور البنية المائلة إلى الأصفر، الضخمة، في الأعلى، السماء الشديدة الزرقة. هذا ما لن ننساه أبدًا.

شكر وتقدير

أتوجه بالامتنان والشكر إلى محرري الحكيم والسخي، جيل بيالوسكي، وإلى الفريق الرائع في W.W. Norton، وإلى أورسولا ديول، وتشارلي كينغ، وجميع العاملين في Fleet/Little, Brown UK. وأتوجه بالشكر الجزيل إلى سارا شالفانت وأندرو ويلي، وكيليّ، البطلين الرائعين، الكائنين المثاليين.

وأعرب عن حبي أيضًا إلى أسرتي الغالية وأصدقائي للدعم الذي قدموه لي: إلى جيمس، حبيبي وقارئي الأول، وإلى لوسيان، التي كانت تضحكنا على الدوام، وإلى ليفيا، قارئتي الثانية التي لا تقدّر آراؤها واقتراحاتها بثمن.

وأتقدم كذلك بالشكر إلى لويس غلوك على قصيدتها منتصف الصيف"، الملهمة.

المؤلفة

كلير مسعود روائيّة أمريكية من أصول جزائرية. حازت على زمالتي Guggenheim و Radcliffe وعلى جائزة Strauss Living Award من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، ووصلت مرّتين إلى نهائيات جائزة PEN/Faulkner Award. كتبت ستّة أعمال روائية من بينها "المرأة في الطابق العلوي" و"أطفال الإمبراطور" و"الفتاة التي تحترق". تهتمّ في رواياتها بالحيوات التي لا تجري وفق ما خُطّط لها، والقصص التي يشكّلها الناس لأنفسهم كي يُكملوا حياتهم وعلاقاتهم بعد ذلك.

المترجم

خالد الجبيلي مترجم سوري مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، حائز على إجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة حلب، بسورية، و من معهد اللغويين بلندن. عمل سنوات طويلة مترجما و مراجعًا في منظمة الأمم المتحدة في نيويورك. ترجم أكثر من 45 كتابا أشهرها "قواعد العشق الأربعون" و"حكايات من ضيعة الأرامل" و"سخط" و"زوربا اليوناني".

الفتاة التي تحترق

«أما أبي فهو حاضر في حياتي إلى درجة أنني لم أكن أنظر إليه. ليس كما ينبغي لي أن أفعل. فأنا أحبّه كثيراً، لكني قلما أراه (..) أعرف وجهه جيّداً إلى حدّ أنني لا أستطيع أن أعرف متى يطرأ عليه أي تغيير - وقالت أمّي منذ أيام إنّ أكثر من نصف شعره قد شاب: متى حدث ذلك؟ (..) أما بالنسبة إلى كايسي، فقد بدا الأمر كما لو أنّ والدها يقف وراء ستارة سوداء سميكة فيها بضعة ثقوب صغيرة، وكان عليها أن تقرّب رأسها كثيراً من تلك الثقوب وتنظر من خلالها، لتحاول تركيب شكل والدها وهيئته من الشيء القليل الذي تستطيع أن تراه»

جوليا وكايسي اليتيمة صديقتان منذ دخولهما رياض الأطفال. تشاركتا كلّ شيء: أغاني ليدي غاغا ووجبات ماكدونالدز والعناية بالقطط، والأسرار الصغيرة. لكن ما كادتا تدخلان سنّ المراهقة حتى اختلف كل شيء في صداقتهما لأسباب لم تفهمها جوليا: هل ما زالت صديقتها المقرّبة مقرّبة فعلًا رغم الصمت الذي ساد بينهما والرسميّة في التعامل؟ هل هم الأهل، أم المدرسة، أم التحولات الجسدية، أم الأسرار التي تحاول كايسي إخفاءها عن صديقتها لتحافظ على صورة مثالية في عينيها، ما دفعهما للتباعد؟

«أحببت جمال الروائيّة الغاضب،
وكلماتها الصّادقة..»
أليف شافاق

Cover illustration: Shutterstock
Cover design: Diana Chamma

ISBN 978-9948-38-566-0

روايات
REWAYAT